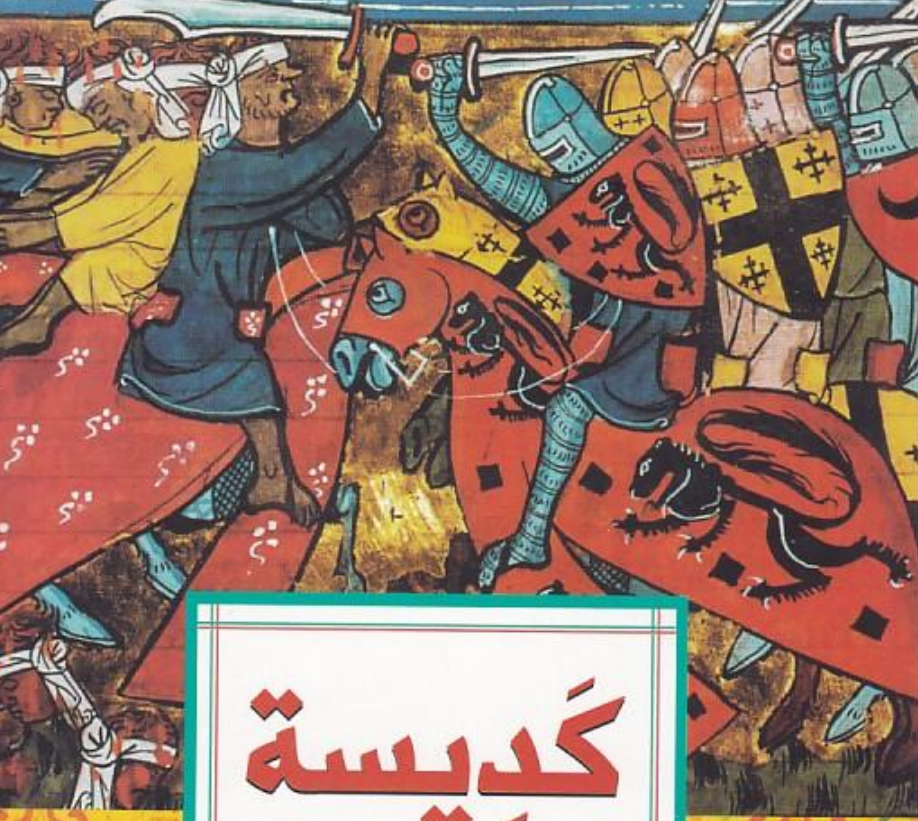

كَدِيسة

حجّاج أدّول

رواية

دار العين للنشر

كَدِيسة

كَديسة

رَواية

حجاج أدول

الطبعة الأولى / ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: غادة خليفة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٥/١٣٣٠٢

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 327 - 4

كَدِيسة

رواية

حجّاج أدّول

دار العين للنشر

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أدّول، حجّاج

كَديسة: رواية/ حجّاج أدّول.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٥

ص؛ سم.

تدمك: ٤ ٣٢٧ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ١٣٣٠٢ / ٢٠١٥

إهداء

إلى ابنتنا، صديقتنا، زميلتنا.. شيماء الصبّاغ.
من اتخذتنا أبًا وأمًا لها فأطلقنا عليها اسم "كَدِيسة" أي قطة بالنوبيَّة. نحتسبك شهيدة عند الله.

حجّاج وهدى أدّول

كلود الأول (كلود بن فيكتور)

من زمن مضَى، قامت بلاد الفرنجة القاطنة في جنوب البحر الوسيط، بشن حملات بَحَرِيّة مسلَّحة على بلاد العرب القاطنة في ضفة البحر الجنوبية. فشلت الحملات التي كانت ترفع شعار الصليب، وهدفها المعلن هو انتزاع بيت المقدس من العرب المحمَّديين، أي المسلمين! أُزهقت ألوف ألوف الأرواح في تلك الحروب، وسالت أنهار من الدماء. وبعد الفشل المتوالي، الحسرة ضربت قلوب ملوك بلدان الضفة الشمالية. فراحوا يجهِّزون لحملة كبيرة للاستيلاء على مصر وإخراجها من الصراع، فقد أدركوا، أن مصر بناسها الكثيرين وأموالها الأكثر، هي حرْبة المسلمين الضاربة، وقلعة التصدي ضد تلك الحملات.

لويس التاسع ملك الفرنسيس، من أشد المتحمسين لتلك الحملة،

فراح يروِّج لها في أنحاء أوربا، وكذا عند البابا إينوسينت الرابع الذي أعلن تأييده ومباركته لتحضير حملة صليبية جديدة، يتولى تجهيزها الملك لويس التاسع. وطوّالي فُرضت ضرائب على ناس الفرنسيس لتمويل الحملة. وقرر ملوك أوربا أن الموانئ الغنية هي التي تقوم بتجهيز مراكب الحملة. ثلاث سنوات والعمل على قدمٍ وساق لتجهيز الحملة الضخمة. وبالفعل انطلقت الحملة والملك شارل التاسع على رأسها، ورافقته زوجته مرجريت دو بروفنس وأخواه شارل أنجو وربرت دي أرتوا، ونبلاء من كبار العائلات في فرنسا. الأسطول الصليبي الضخم تكون من 1800 سفينة و80 ألف مقاتل بعتادهم وسلاحهم وخيولهم وطعامهم وشرابهم، فكما كانت تلك المراكب ضخمة في عددها، فهي ضخمة في أحجامها. لويس ملك الفرنسيس كان على متن أقوى مركب من مراكب الحملة، وأفخمها واسمها لو مونتجوي.

ميناء مرسيليا شاركت بالمال والعتاد والفرسان والجنود. وكان أهم فارس من فرسان مرسيليا ليس هو أكبرهم سنًا، بل أصغرهم واسمه كلود بن فيكتور. توقفت حملة لويس الصليبية في قبرص حيث انضم للحملة عدد كبير من فرسان المعبد وفرسان الاسبتالية، وهم أشرس الفرسان وأكثرهم تعصبًا للمسيحية، فرسان رهبان نذروا حياتهم وموتهم في سبيل المسيح. لهم تاريخ شرس في

الحروب المسيحية، وانضم أيضًا للحملة النبيل هيو دو بورجوندي قريب الملك لويس.

لويس التاسع تملكه الغرور بعدد مراكبه وبقوتها وغزارة جنوده وفرسانه الميامين، المدججين بالسلاح والمتحمسين للقتال المتحفزين لسفك الدماء. ولأنهم ذاهبون باسم المسيح إلى كنيسة المسيح وقبره، أُطلق عليهم اسم الحُجّاج المسلحون! أرسل الملك لويس قبل إبحاره من قبرص برسالة تحذير لسلطان مصر، واسمه الملك الصالح. طالبه بالاستسلام! فردّ عليه الملك الصالح برسالة يحذّره فيها من عاقبة مهاجمته لمصر، وينبئه بأن بَغْيه سيصرعه!

المراكب الحربية الثمانمائة تمخر في البحر، وترتفع مقدماتها في هدوء، وتَرَفُّع مع الأمواج وتهبط في رزانة وثقة. الأشرعة الهائلة تحمل علامة حمراء كبيرة للصليب. وقوى الرياح تعبّئها لتدفع المراكب الأسطورية للتقدم في إصرار. الحملة العفيّة متجهة إلى مصر ذات التاريخ التليد.

الفارس كلود بن فيكتور من مدينة مرسيليا الفرنسية، التي تقع على شاطئ البحر الوسيط. وعائلته من أغنى العائلات في فرنسا كلها. عائلة فيكتور لها قصر ضخم فخم يطل على الخليج. ورغم امتلاكها لمزارع العنب وآلات عصره وتخميره، فحياتها مرتبطة بالبحر، تمتلك عشرات من المراكب ذات الأشرعة الكبيرة

والمتوسطة، مراكب تجوب البحر الوسيط وتتاجر مع أشهر الموانئ به، وبالطبع أشهر ما تبيعه هو النبيذ الفرنسي الأحلى في الدنيا. ومن تقاليد العائلة وكل العائلات الكبيرة في أوربا، أن الابن الأكبر هو من يرث القصر وإدارة المراكب التجارية، وينال أكبر العوائد المالية.

كلود مختالٌ بطوله ورشاقة جسده وفروسيته الشرسة. فرح بجمال وجهه. واثق من نفسه تمامًا لحدٍّ قارب الغرور، لذلك قبل سفره في تلك الحملة، أمر أشهر الرسامين في مرسيليا أن يرسم له رسمًا بحجم كبير، الفنان رسم كلود بن فيكتور وهو يرتدي أفخم وأغلى الملابس، وركَّز على جمال طلعته وإشراقة ابتسامته، وبريق عينيه الزرقاوين. كلود ثَبَّت هذا الرسم في أهم بهو بقصر عائلته عائلة آل فيكتور. وفي نفس هذا البهو انتصب بجوار جدار منها عدد من أردية الفروسية الحديدية التي كانت لفرسان العائلة القدماء وعددها سبعة عشر، وكلها عليها البيْضات الحديدية التي كانت تحيط برؤوس الفرسان، السبعة عشر في انتصابها وكلها ترتكز على السيوف أو مُمسكةً بالرماح، بها هيبة وسطوة وكأن داخلها فرسانها القدامى أحياء ينتظرون أوامر المعارك.

ولأهمية كلود بن فيكتور وشهرة عائلته وغناها الذي نما نموًا كبيرًا في عهد فيكتور الموهوب في التجارة، وهو الذي بنى القصر

الكبير ببرجيه. قصر منيع وكأنه قلعة حربية. الملك لويس التاسع طلب كلود بن فيكتور ليكون في صحبته على ظهر مركبه الملكي لو مونتجوي. فلبّى كلود بن فيكتور الدعوة فخورًا بنفسه، ونال بعض الحسد من زملائه وأصدقائه فرسان مرسيليا، وافترق عن صديقه الفارس فيتو، سليل عائلة فيتوريو ذات الأصول الإيطالية.

كلود يعشق البحر ويعشق السباحة كما عشق الفروسية. وخلال سباحته في البحر أحس كثيرًا بأن مخلوقات ما تشعر به ويشعر بها. تحيط به حين يسبح على هيئة دوائر وأمواج ذات أشكال وأحجام غريبة، تلاصقه وتداعبه وتناديه بأسلوبها حبًا وأملًا! لكن، ماذا تريد هذه المخلوقات منه؟ ولماذا تهتم به دونًا عن غيره؟ لم يعرف، ولم يهمه أن يعرف. أحاسيسه بعيدة تمامًا عن الرسالة التي تريد تلك الليّنات السابحات أن يبلغنها له. لم يستطع كلود بن فيكتور أن يحكيَ هذا لعائلته ولا لأصدقائه، فإن حكي، هل سيصدّقه أحد. حتى صديقه الأقرب له فيتو لن يصدقه. فقط حكى لأمه، فقالت له:

– احترسْ يا بني، إنها نداءات جِنيَّات البحر، والأقاويل تقول إن الجِنيّة الشابة حين تُعْجَبْ بشاب جميل، تناديه وتلح في النداء حتى تسحره، ويذهب إليها في جوف البحر فتتزوجه وتبقيه معها، وإن رفض الشاب زواجها والبقاء معها، أغرقته فيعود لأهله جثة هامدة.

كلود لم يصدق أبدًا أن تلك النداءات للزواج منه أو لإغراقه. إنها حوريات طيبات يناديه ليبثّ فيه أمرًا طيبًا.

كلود بين قيادات الحملة هو الأقوى والأجمل، وأيضًا الأكثر حماسة لغزو الشرق الكافر. عُمر كلود وقتها لم يتعد الثامنة عشر عامًا. فكّر كثيرًا في والديه وصدمتهما إن قُتِل ابنهما، لكن خيال خطيبته الجميلة آجنيس يأتيه ويحاصره ويدفعه للابتسام. كمْ هي جميلة رغم أن رأسها لا يحوي لا فكرًا ولا عمق ذكاء، ولا قلبها يحس بعموم الناس، فكل ما يهمها هو الدلال بجمالها، والتفاخر بين صديقاتها والتعالي على بقية الناس. كلود أحب آجنيس، ويظن أنها تحبه.

صباح يوم، كلود بن فيكتور في المقصورة الرئيسية مع بقية القيادات الكُبرى، ووسطهم الملك لويس التاسع، وعلى يمينه كاهن الحملة. يجلسون في مقاعد وثيرة. وكلهم في ملبس قشيب أنيق. السيوف تتدلى من أحزمتهم، أغلبهم معتنون بشواربهم وذقونهم المشذَّبة في أناقة وجمال، أما كلود فهو حليق اللحية والشارب فهو من دونهما يظن أنه أجمل. ولم يكتف كلود بسيفه، يضع كتابًا ضخمًا على حِجره، فالكتب لا تفارقه. يحبه الملك لويس التاسع ويشجعه على القراءة، خاصة في كل ما يخص المسيحية. وحين يكون الحديث عن الإنجيل، فكلود رغم صغر سنه، هو بعد الكاهن

الأكثر حفظًا لكلمات الإنجيل المقدس، وإن كان صغر سنه لم يعطه الفرصة أن يتعمق في فهم غايات الإنجيل والتوغل في روحه. الكاهن المصاحب للحملة يوغر قلوب مستمعيه ضد المحمديين الكفرة، وضرورة تنصيرهم أو قتلهم وانتزاع المقدسات المسيحية من تحت سيطرتهم. أغلب المتفاعلين مع كلمات الكاهن الكارهة كانوا من هم في عمر كلود بن فيكتور. الشباب الصغير الذين تشتعل قلوبهم بالحماسة.

بين قيادات الحملة، معلوم أن الفارس كلود بن فيكتور قارئ متبحر يحتار من يعرفه.. أيقول عنه أولًا إنه فارس الفوارس، أم يقول عنه القارئ النهم أولًا؟ حقيقة، هو الاثنان معًا.

وأشرفت مراكب حملة ملك الفرنسيس على الوصول إلى ميناء دمياط. وعند فجر يوم سبت من شهر يونيه الصيفي، ظهرت مراكب الحملة، وفي سرعة هجمت عليه هجوم الكواسر. ثمانمائة مركب ضخمة فخمة تدلت منها قوارب عميقة واسعة تحمل الجنود، وبعضها يحمل الفرسان وخيولهم. في حماسة يجدِّفون سريعًا سريعًا حتى تقترب القوارب من الشاطئ فيقفز من سطحها ثمانون ألف مقاتل وفارس وحصان! مياه البحر وأمواجه تضرب فيهم وتصل لأسفل صدورهم ولبطون الخيل. الملك وقياداته الكبرى لم يرتد أحد ملبسهم القتالي الحديدي لشدّة الحر، اكتفوا بأرديتهم القماشية وعليها رسم

الصليب، ووضعوا فوقها شبكة من زرد الحديد القوي اللامع يغطي صدروهم ورؤوسهم وأعناقهم، وعلى رؤوسهم بيضات حديدية. الفرسان يساعدهم الجنود ليمتطوا ظهور خيولهم. الخيول زاهية بالأقنعة القماشية التي وضعوها على رؤوسها وأعناقها في ألوان عديدة، كل لون يبين جماعة معينة الفرسان. خلف الفرسان ألوف ألوف من الجنود الأشاوس. ورسم الصليب على صدور المهاجمين جميعًا، وعلى دروعهم التي يمسكونها بيسراهم، فيمناهم ممسكة بالسيوف والرماح والبُلط. والصيحة الأعلى التي تغلي في النفوس لتتفجر طائرة من الحناجر:

– المجد ليسوع المسيح، والموتُ للزنادقة.

جنود الحملة يتقدمون في اندفاع لا يعبأون بالمياه، ولا بالأمواج التي من المفترض أن تعيق سرعة هجومهم. ينطلقون مطلقين صيحات القتال، وكل الصيحات تنفث الكراهية النارية، وتريد ترويع المدافعين المسلمين وبث الخوف فيهم، وفي نفس الوقت الصيحات تخفف شبح خوف الموت الكامن، فالحياة غالية مهما كانت شجاعة المقاتلين. ثم دخلت الفرحة صيحاتهم. فرحة النزول على الأرض وإن كانت مياه البحر ما زالت تصل لركبهم. صهيل الخيول الحائرة المضطربة الخائفة تضرب آذان المهاجمين. غاغة وهيصة وحيْص بيْص، لكن كل مجموعة منهم ترى عَلَم فرقتها عاليًا وصليبًا بلون

معين واضحًا في وسطه، فتتبع عَلَمها. رغم هذا تداخل المهاجمون في بعضهم، والكثير لايص لا يعرف ما يفعل، فقط يهجم مع الزحام وهو هايص بفرحته أنه من ضمن الألوف المهاجمة التي في جانب الرب، والفرحة تزداد لأن المدافعين المحمديين قليلون، عكس ما كانوا يتوقعون، وعلى رمال الشاطئ وتصادم دروع الصليب بدروع المدافعين، ورنين السيوف المهاجِمة على السيوف المدافعة، وتلاحم الصيحات واللعنات، ازداد الصليبيون فرحة حين شاهد بعضهم انتصاب الخيمة الحمراء على جانب من الشاطئ. إنها خيمة مليكهم لويس ليدير المعركة من داخلها. ومن حولها انطلق عدد من الفرسان الأشاوس يتقدمهم الفارس كلود بن فيكتور.

القتال شديد بشع طوال الصباح، الصليبيون يزحزحون المسلمين من أماكنهم ويضطرونهم للتقهقر. ولما انتصفت الشمس في السماء، صار الصليبيون يتقدمون بوضوح والمصريون يتراجعون. ولم تتوقف المعركة وبشائر النصر الصليبي صارت أكيدة. انسحب قائد المصريين منهزمًا. انتصر الصليبيون انتصارًا ساحقًا في معركة دمياط. ولم يفقدوا إلا العدد اليسير من القتلى والجرحى، فاستبشروا خيرًا، وأنهم سيوقعون بالمحمديين شرًا وبيلًا.

مدينة دمياط خلف شاطئها الذي دارت فيه المعركة الخاسرة. الهلع أصاب أهلها، فهرب منهم خلق كثير فزعًا من مجازر سيرتكبها

المهاجمون. الصليبيون دخلوا المدينة دون عناء، واستولوا عليها بكل ما كان فيها من سلاح ومؤونة. وفي سرعة وقبل أن يصل نهار اليوم التالي كان جيش لويس قد حصن أسوارها ضد أي هجوم، وحولوا جامع المدينة إلى كنيسة وتولى شئونها الكاهن المرافق للحملة. وصارت دمياط مدينة صليبية.

سقوط دمياط في أيدي الصليبيين كان له وقْع الصاعقة على المصريين، وعلى السلطان الملك الصالح أيوب الذي غضب من قائد جيوشه في دمياط المنكسرة، وقال له: "أما قدرتم تقفون ساعة بين يدي الفرنج؟".

أهل مصر سرعان ما قرروا أن الحرب لم تنته بعد. أُعْلِنَ النفير العام، وهرولت عامة الناس من القاهرة والإسكندرية وسائر المدن لتصل سريعًا وتساند جحافل الفلاحين الذين أسرعوا من القرى لوقف زحف الصليبيين. كل أهل مصر اسْتُنْفِروا سواء من الأغنياء أو الفقراء وبينهم أعداد من النساء. الأغلب على الأقدام الحافية، والأقل على ظهور الحمير، وكل منهم يحمل سكينا أو منجلا أو سيفًا قديما أو حتى شاكوشًا أو قطعة حديد. يتجهون لمدينة المنصورة المجاورة لدمياط، فالمنصورة ستكون الهدف التالي للصليبين. المصريون القادمون للدفاع عن الإسلام، لا زاد معهم. كل قرية يمرون عليها، نسائها يقدمن لهم الطعام والشراب والظل ليرتاحوا قليلًا.

حول دمياط قرر المصريون ألا يتركوا الغزاة يرتاحون. بدأوا حربًا ليست مثل الحرب المعروفة. يتسلل البعض سواء كانوا جنودا أم من الأهالي، ويخترقون أسوار دمياط أو يسبحون في هدوء في النيل أو يلتفون من البحر، يشنون الهجوم على معسكرات الصليبيين ويقتلون منهم ويأسرون وينقلون ما يأسرونهم إلى القاهرة.

مؤرخ صليبي رافق الحملة واسمه جوانفيل، كتب (أن المسلمين كانوا يتسللون أثناء الليل إلى المعسكر الصليبي ويقتلون الجنود وهم نيام ويهربون برؤوسهم). وكتب مؤرخ مسلم اسمه ابن أيبك الدواداري (إن خوف الصليبيين من العوام المصريين كان أشد من خوفهم من الجنود).

في دمياط يتقابل كلود بن فيكتور مع فيتو بن فيتوريو كثيرًا. وخلال جلساتهما مع بعضهما، تحدثا عن أعداد القتلى المهولة في جانب المحمديين، يفتخران بالأعداد الكبيرة التي قتلوهما وكيف أن دروعهما وملابسهما بل وجهيهما تلطّخا بالدماء. وخلال لقائهما حدث أكثر من هجوم من المتسللين المسلمين وتصدى لهم الصليبيون ومنهم كلود وفيتو. استمرت الحال هكذا وقتًا طال حتى أتى من فرنسا ألفونس دى بواتي، الشقيق الثالث للملك لويس، ومعه إمدادات وقوات إضافية، فتشجع الصليبيون وقرروا التحرك إلى الإسكندرية أو القاهرة. اختار لويس القاهرة بنصيحة من أخيه

روبرت دو أرتوا. الذي قال له: (إذا أردت قتل الأفعى فاضربها على رأسها).

الصليبيون من دمياط يتجهــون للمنصورة ليحتلوها ومنها إلى القاهرة. يســيرون بجوار نهر النيل، ويوازيهم على ســطح النيل عدد من مراكبهم. وفي تقدمهم دخلوا بعض المعارك البســيطة مع المسلمين وانتصروا فيها بسهولة. حتى وصلوا إلى فرع نيلي اسمه بحر أشــمون، حيث تجمع جيوش المســلمين على الضفة الأخرى ليمنعــوا الصليبيين من الوصول إلى المنصــورة. فأصبحت مياه بحر أشــمون تفصل بين الجيشــين. نصب الصليبيون معسكرهم وأحاطوه بالأسوار والخنادق وأعدّوا المجانيق. وهكذا فعلت جيوش المصريين. أعدوا مجانيقهم ونصبوا ســقالات خشــبية قوية عليها أكواخ سميكة الخشــب تعلو وتكشف جيش الصليبيين. ولما حاول الصليبيون بناء جســر ليعبروا عليه إلــى ضفة الجيش المصري، أمطرهم المصريون بالقذائف النارية، وحفروا في النهر من جانبهم حتى يُفشِلوا امتداد الجسر لضفتهم. وبالفعل أفسد المصريون خطة الصليبيين بكل الوسائل.

خائنٌ ما دلَّ الصليبيين على مَخَاضه في النهر، فتمكنت فرقة فرسان يقودها أخو الملك "روبرت دي أرتوا" مع فرسان المعبد، وفرسان فرقة إنجليزية يقودها النبيل وليم أوف ساليزبري، من

العبور بخيولهم وأسلحتهم إلى ضفة المصريين، ويفاجئونهم بهجوم فرسان صليبي كاسح شتت معسكرهم وبعثر جنودهم وأسقط منهم الكثير من القتلى بمن فيهم قائد الجيش. يتقهقر الجنود المصريون مذعورين إلى المنصورة.

كلود بن فيكتور وفيتو فيتوريو، مثلهما مثل قيادات الحملة، وعلى رأسها الملك لويس وبقية فرسان وجنود الحملة، ازدادوا ثقة في أن حملتهم ستنتصر، وستصل إلى القاهرة لتملك زمام مصر، ومنها يستطيع الصليبيون استعادة بيت المقدس والشام كلها. كلود وفيتو على ثقة بأن ليس في المسلمين فرسان ذوو شكيمة مثل الفرسان الصليبيين، لكنهما وغيرهما لم يجرِّبا بعد مقاتلة فرسان مماليك مصر، وسريعًا ما سيعلمون جميعًا أن الغرور ينتهي بكوارث.

تقدم قادة فرسان المماليك ليمسكوا بزمام أمور الجيش. الفارس أقطاي صار قائدًا للجيوش المصرية، نظَّمها سريعًا من جديد، والملكة شجرة الدر التي تولت حكم مصر شجعتهم. الفارس المهول بيبرس البندقاري، عرض خطة محكمة لهزيمة الغزاة، باستدراجهم في كمين مُحكم داخل مدينة المنصورة. في الخفاء تمّ وضع متاريس في الشوارع حتى يجبروا فرسان الفرنجة وقت الوطيس القتالي أن يتجهوا إلى أماكن معينة تكون فيها نهايتهم.

فرسان الصليبيين اقتحموا المدينة في يوم حار، بعد أن ظنوا

أنها خاوية من ناسها ومن جنودها، تمامًا مثلما حدث في مدينة دمياط. الخيول الصليبية بأقنعتها اللامعة، وعلى ظهورها فرسانها تندفع في الشوارع الخالية، وتتجه ناحية قصر أمير المدينة ليستولوا عليه ويجعلوه مقرًا لمليكهم. بعض الفرسان يرتدون كامل دروعهم القتالية من أخمص القدمين حتى العنق، والرأس تحويها بيضة حديدية مخيفة لا تُظهر من وجه الفارس سوى حيزٍ ضيقٍ ليرى منه أعداءه الذي جاء لقتلهم. بين هؤلاء الفرسان المغرورين وُجِدَ فرسان المعبد بدروعهم البيضاوية البيضاء، ووسطها الصليب الأحمر، وكذا فرسان الاسبتالية بملابسهم ودروعهم الداكنة ووسطها رسم الصليب الأبيض. يتقدم الفرسان على ظهور خيولهم القوية التي تتدلى من جوانبها السيوف الاحتياطية والبُلط المتنوعة الأشكال. الخيول في خبْوٍ وجَمال والفرسان في كبرياء وثقة ودلال.

فرسان المماليك خرجوا عليهم بغتة وهم يصيحون كالرعد القاصف وأخذوهم بالسيوف. ومن جانب آخر ظهرت جموع العربان وعوام المصريين من فلاحين وشغالين وفي وسطهم النساء، وكل منهم يحمل ما استطاع إيجاده من سيوف قديمة صدئة أو سكاكين مطبخ أو شواكيش أو عصيّ. المفاجأة مذهلة ولها وقْع الصاعقة. وقع فرسان الصليبيين في حصار. فرسان المماليك كل منهم كشيطان يمتطي صهوة حصان مُجَنَّح يطير به! ليسوا داخل كتل الحديد مثل فرسان الصليبيين، لذا فهم أخف حركة. يهجمون في سرعة البرق

ويلتفون حول خصومهم فترتبك خيول الغزاة وتُربك فرسانها الذين يتلقوْن الطعنات في مفاصل دروعهم. من وقْع المفاجأة وعاصفة الهجوم عليهم، حاول فرسان الصليبيين الهرب في أكثر من اتجاه. ترك فرسان المماليك لهم ثغرة فأسرع أغلبهم يهربون منها، ثم وجدوا مقاومة ومقذوفات سهام وأدوات طبخ وكَنَب ومقاعد تنهال عليهم، فاضطرتهم ليتجهوا في اتجاهين. البعض اتجه ناحية ساحة تصل إلى النيل، واعتقد أنه أفلت من المكيدة، وأغلبية الفرسان وجدوا طريقًا عريضًا بين بيوت المدينة، فأسرعوا ليعبروه للنجاة. عبروا منتصفه وإذا بالطريق مسدود بمتاريس خشب واحتياجات البيوت من دكك ومناضد وضلُف أبواب ونوافذ! المتاريس عالية ولا تستطيع خيولهم بثقلها أن تثب من فوقها. من خلف المتاريس ومن نوافذ البيوت وأسطحها، النساء والصبية الصغار يلقون عليهم الأحجار وكل ما هو ضار. وخرجت عليهم جموع حاشدة من المصريين من حارة جانبية وهم مسلحون بالسكاكين والسواطير. الخيول تلتف حول نفسها وتضرب في جنودها الملتفين حولها، والفرسان فوقها في ارتباك. نار القتال العنيف الدموي ليست هي التي تطيح بهم، الشمس سخّنت ملبس فرسان الصليبيين وبيضاتهم التي تحيط برؤوسهم. صارت الحرارة قيظًا يكاد يكوي أجسادهم، وصاروا في عرض جرعة مياه تعوّض شلالات العرق التي تسيل من مسامهم وتبلل ملبسهم الداخلي، وتتسرب قطرات من فواصل

الحديد تحت إبطهم ومنطقة الحوض. أصيب منهم الكثير وسقطوا من ظهور خيولهم. بعض الخيول أصيبت وهاجت فأسقطت مَنْ فوقها، وأخذت تدور هنا وهناك فتزيد الإرباك إرباكا. وجنود الصليبيين في بؤسهم هذا، صاحوا بالانسحاب من هذا الكمين المهين، فإذا بفرسان المماليك آتون من خلفهم شاهرين سيوفهم صائحين صيحات الظفر وأعملوا فيهم القتل والأسر.

الذين يهربون ناحية النيل نالوا الأحجار فسقط منهم من سقط وتمّ أسره، ومن وصلوا إلى النيل وجدوا فرقة فرسان مملوكية تحاصرهم. فماذا فعلوا؟ ألقوا بسيوفهم وهبطوا من ظهور خيولهم وأطاحوا بالبيضات الحديد من أعلى رؤوسهم ليخففوا أوزانهم. ثم قفزوا في النيل ليسبحوا ويعبروا إلى الضفة الأخرى، كانت غلطة مميتة، لم يستطيعوا السباحة بما عليهم من حديد، وانشقت الأرض بالمصريين ومعهم مقاطف مليئة بالحجارة، انهالوا عليهم بالقذف وهم يحاولون السباحة وأصابوهم في رؤوسهم فغرقوا في ميتة وضيعة.

جيش الصليبيين على الجانب الآخر من النيل، يشاهد المأساة التي وقع فيها أفضل الفرسان، يرونهم وسيوف وحراب وفؤوس وبلط فرسان المماليك تبيد فيهم، والحجارة مثل الأمطار غزارة تضرب في أجساد فرسانهم ورؤوسهم فتطيح بهم من ظهور خيولهم. شاهدوا وقوع الكثير من الفرسان في الأسر المهين،

حاول بقية جيش الملك لويس أن يقيموا سريعًا جسرًا ليكون نجدة لفرسانهم الهالكين، لكن المصريين لم يعطوهم الفرصة. كلود وفيتو وبقية الفرسان لم يجدوا أي طريقة لإنقاذ المحاصرين من فرسان حملتهم، لكنهم شاهدوا فرسان المماليك ومدى فروسيتهم وشجاعتهم وسرعة حركتهم، فشهدوا لهم بالفروسية الرائعة.

استمرت مقتلة فرسان الصليبيين طوال اليوم، وفي فجر اليوم التالي هجم جيش المسلمين على معسكر الصليبيين في معركة فرسان في أساسها. معركة نهائية القتال فيها موت أو حياة. انتصار نهائي أو هزيمة ما بعدها هزيمة. بقية فرسان الصليبيين وبينهم كلود بن فيكتور وفيتو بن فيتوري أعطوا كل ما يمكنهم من شجاعة ومن فنون قتال، تمكنوا من قتل الكثير من جنود المسلمين وعوامهم، وحاولوا بث روح الصمود في جيشهما، لكن دون جدوى. فرسان المماليك وجنودهم أشرس وأقوى ومعهم العامة من المصريين، كل منهم وحش كاسر يحمل سلاحه الشعبي ويضرب به ولا يهمه أن يطعنه غريمة بسيفه أو يدهسه بأرجل حصانه. العامة كل منهم حين يفقد سلاحه البسيط، يلقي بنفسه على الجندي الصليبي ويعضه ويستمر في العض حتى وسيف الجندي يخترق بطنه، وفيتو مشغول بمن يناوشونه من يمينه، وثب أحد المصريين عليه من يساره وأمسكه من ساعده الممسكة بالدرع، لم يتركه حتى أسقطه من ظهر حصانه، التف حوله عدد من عوام المصريين، يبعدهم فيتو بسيفه وبركلات

من ساقيه، ولم ينقذه إلا كلود الذي اقتحم المحاصرين بحصانه، وفيتو يحاول الوثوب خلف ظهر كلود، أصيب بطعنة سكين في جانبه، تأوّه وهو يواصل التشبث بسرج حصان كلود. تمكن كلود من إيجاد حصان لفيتو، وتركه في مجموعة جرحى على خيولهم، وحولهم مجموعة فرسان وجنود يحمونهم وينسحبون بهم سريعًا مع مجموعة الملك لويس وحراسه، وكان من ضمن المنسحبين الكاهن الكاره للمحمديين.

وتستمر المعركة الخاسرة واليأس غالب على كل جنود الحملة. كلود يقاتل بشراسة وسَفَكَ دماء الكثير من جنود المسلمين، وهو يتحسَّر كثيرًا على دماء المسيحيين الفرنسيس وغيرهم التي سالت وأرواحهم التي أُزْهِقت. يقاتل بشراسة وحقد وضرباته مشحونة بالغل، مقاومًا الحرارة التي تلهبه والعطش الذي كاد يهلكه. الأوامر التي تدور من مجموعة لمجموعة من مقاتلي الصليبيين.. الانسحاب. الانسحاب. الجيش الصليبي ينسحب في فوضى عارمة، صار أغلب جنوده وفرسانه كل همّه أن ينقذ نفسه من مقتلة أكيدة، وخوفهم الأشد من العامة المصريين الغاضبين كما الأسود الهائجة. الهروب هروب أفراد وهروب جماعات، وكل الهاربين يتجهون شمالًا ناحية دمياط للجوء لمراكب الحملة الراسية، ومن هناك يعودون بعارهم إلى ديارهم. عدد من الفرسان والجنود يناوشون المسلمين حتى يعطوا الفرصة لجيشهم في الهروب السريع، ثم

ينسحبون هم بالتالي. التيه يسود الجميع وسط الأراضي الزراعية الممتدة والأشجار المنتصبة.

وجد كلود بن فيكتور نفسه الفارس الوحيد الذي يمتطي جوادًا وسط نحو عشرين جنديًا صليبيًا مرعوبًا يأملون أن يقودهم كلود إلى شاطئ دمياط لينجو بأنفسهم من التهلكة. سحناتهم يتجسد عليها الرعب. الدماء تلوثهم من أقدامهم لرؤوسهم. يسيرون مرهقين متخطين الزراعات مبتعدين عن القرى حتى لا يكتشفهم أحد. لا يستطيعون العدْو، فبينهم عدد من المصابين. وجدوا جدول مياه صغيرًا، انبطحوا يشربونه وهبط كلود وأخذ حصانه أولًا ليشرب ثم شرب هو وعاد فوق ظهر حصانه. مستمرون في السير شمالًا. وقبل الغروب كانوا قد قطعوا مسافات طويلة. ولما بدأوا في الاطمئنان، سمعوا صياحات تتصاعد من خلفهم، فوجئوا أن هذه الأصوات هي أصوات جنود مسلمين يطاردونهم. كلود قائد المجموعة المنسحبة، عليه أن يختار بين أمرين.. هل يقرر العدو السريع هروبًا من المطاردين، وفي هذه الحالة سيتخلى عن جنوده الجرحى، أم يتوقف عن الهروب ويقاتل المهاجمين وهو يعلم أن المعركة خاسرة؟ كلود النبيل في سرعة حسم رأيه.. لن يتخلى عن الجرحى وسيخوض معركة أخيرة ضد المسلمين الذين يطاردونهم. حتى لو كل الشواهد تقول إنه مهزوم مهزوم، ووسط المزروعات التي يصل بعضها لوسط المقاتلين، وبين عدد من الأشجار المتناثرة

هنا وهناك والغروب يلقي بشفقه الأحمر، دارت المعركة السريعة وأبلى فيها كلود بن فيكتور وجنوده بلاءً حسنًا، لكن لا فائدة. تمّ قتل أغلب جنوده وأسر الباقين. لم يبق من يقاتل غير كلود بن فيكتور الذي تم حصاره من المهاجمين. زرد الحديد الذي يغطي كل جسده بما فيه رأسه ورقبته، حماه من الطعنات، رغم بعض الرضوض في كل أنحاء جسده نتيجة لضربات قوية من السيوف والبُلط، خاصة تلك التي تؤلمه أكثر في عظمة خده الأيمن. مقدمة رأس حصان كلود، وجانب من عنقه ومساحات من بطنه محمية بجلود سميكة، لكن الحصان يصهل في خوف ويتخبط بين الزراعات. كلود يشتبك مع كل من يقترب محاولًا إصابة حصانه. ورغم هذا نال الحصان طعنتين في أعلى فخذيه من الخلف، أخيرًا تمكن كلود من فتح ثغرة بين جنود المسلمين وأسرع بحصانه منها، يشق طريقه في اتجاه البحر. الحصان يجري مبتعدًا عن مطارديه وهو ينزف من مؤخرته ورغاوَى بيضاء تتكوَّر وتتزايد من فمه الواسع.

اقترب كلود من البحر. الحصان يلهث وسرعته تقل والزَّبد الذي ينفثه من فمه يتزايد ويتساقط منه ككرات صغيرة، ومؤخرته تسيل منها الدماء من فجوتين. لحظات تمر وكأنها سنوات وكلود بن فيكتور يدعو اللـه ألا يموت حصانه قبل أن يصل به للبحر. نسائم البحر الرطبة وصلت لوجْه وأنف كلود. شاهد على بُعد عددًا من رؤوس النخيل وخلفها خط التقاء زرقة السماء بزرقة البحر.

والحصان تنسَّم رائحة البحر وكأنه يعلم أن البحر منجاته هو وراكبه، دبَّت فيه حيوية فزاد من سرعته حتى وصل بين أشجار النخيل وتوقف. الشمس في نهايات الغروب. تحته الرمال الصفراء وأمامه البحر الأزرق بأمواجه التي تتحول أعاليها المتقلبة إلى البياض المُحْمِرْ مع هدير رتيب غامض. كلود يراقب هنا وهناك وسيفه ما زال مشهرًا. إنه في الجانب المخصص للصيد، بعيد عن جانب المراكب التجارية المتوسط والكبيرة. الهدوء يوحي بالتفاؤل والتشاؤم معًا. الحصان يلهث وتصدر من صدره حشرجة كحشرجات مريض الربو. لا أحد بين أشجار النخيل. في البحر مراكب صيد صغيرة تتراقص مع توالي الموج، بينها مركب متوسطة الحجم تعلوها حجرة خشبية بها نافذة ضيقة مفتوحة. كلود لم يشاهد أي صياد لا كبير ولا صغير. هبط من ظهر حصانه بصعوبة. أسند سيفه الملوث بالدماء على جذع نخلة. تخلص من قفازيه السميكين المبتلين بالدماء. خلع بيضة الحديد التي تغطي رأسه وعنقه وألقاها جانبًا. وجهه ورقبته من المجهود والإرهاق وكتمة البيضة صارتا في حُمرة الدم. تحسس خده الأيمن حيث الضربة التي تؤلمه، لا جرح، لكن هناك ألمًا في العظمة. من أعلى ذراعيه ومن حول وسطه حل بعض ملبسه الحديدي وألقاه على الرمال. الدماء تغطي ملبسه الحديدي كله. تحسس حصانه وهو ينظر لإصابتيه النازفتين. ربت على رقبته بحنو واعتذار. كلود قفز

وامتطى الحصان المُنهك الذي حرك رقبته الغليظة ورأسه النحيفة هنا وهناك، وهو يصهل صهيل المغلوب على أمره. بمهمازه نغز جانب الحصان فأسرع به مرغمًا ليشق المياه المالحة. كلود يريد الوصول إلى المركب المتوسطة ليحاول الهروب بها إلى وسط البحر، وبعدها يكون ما يكون. الحصان يخوض في المياه والموج الخفيف يضرب في صدره وينثر رذاذه في وجهه وبعضه يصل لوجه راكبه. الحصان خطواته بطأت، وعيناه جحظتا. يخوض البحر بصعوبة وقد وصلت المياه إلى قرب ظهره، وكلما أتت موجة ضربت أعلى رقبة الحصان واستمرت لتغطي ظهره بالكامل ومؤخرة الفارس. ثم لم يتحمل الحصان المصاب أكثر من ذلك، وخر غائصًا في البحر نتيجة لإرهاقه ولإصابتيه ونزفه الكثير من الدماء. قفز كلود من ظهر الحصان. صارا معا غاطسين في أسفل مياه البحر. كلود عيناه مفتوحتان فشاهد الحصان المسكين وقد مال بجسده الضخم جانبًا، وأخذ يرفس بأرجله الأربع وهو يودّع الحياة. كلود نسيَ الحصان وهمّه كيف يقاوم الغرق. يريد أن يطفو، يريد أن يسبح. وكيف يسبح وهو في إرهاق بالغ وجوع مُهلك؟ كيف يسبح وجذعه وساقاه يغلفها بعض من ملبسه القتالي؟ لكن الروح غالية. ضرب بقدميه على رمال القاع بغية أن يصعد لأعلى ويأخذ أنفاسًا هو في أشد الاحتياج إليها. ما كاد وجهه يظهر فوق ظهر المياه وقد فتح كامل عينيه، ولمح بقايا حُمْرَة الغروب

تتلاعب مع تلاعب المياه المالحة، وفتح فكيه على اتساعهما ليأخذ شهيقًا عميقًا، حتى ضربته موجة واندفعت المياه المالحة إلى رئتيه وجوفه فألقته الموجة في عمق المياه مرة أخرى يترنح. وكلما حاول وقارب الوقوف ليرفع رأسه ليتنفس تضربه موجة أخرى قبل أن يملأ رئتيه من الهواء. كلود رغم قوته وطول قامته، لن يستطيع الاستمرار هكذا، ولن يقدر على مقاومة توالي الموج. هبط جسده في هدوء يائس لأسفل حتى أحس برمال القاع تحته ولمح جثة حصانه. تيقن أنه غارق غارق. راحة اليأس تنتشر بين خلايا جسده، وفي كل هذا اليأس الرازح تُبَثُّ نفسه وعيًا يسري فيه.. شيء ما في تيارات البحر التحتية يساعده ليقف. المخلوقات التي كانت تحيط به في بحر مرسيليا أتت لتكون حوله هنا! تأكد من هذا دون سبب عقلي، فقط أحاسيسه تقول له هذا. بين لجّات المياه باهتة الزرقة، شاهد تهاويم تلك المخلوقات، شاهدها خيالات لحوريات غير محددة المعالم تشير له وتوحي، أن عليه مقاومة الغرق. ولم يجد ما يحدد أجسادهن سوى شعرهن الطويل الأعمق زرقة من زرقة البحر، يربتن بشعرهن على خديه تشجيعًا وتحفيزًا. الحوريات الشابات يطالبنه بألا ييأس ويقاوم الغرق، يُوحين له بواجب ما يجب عليه أن يعيش ليؤديه. تيارات مياه تندفع من أسفله تساعده ليرفع جسده من القاع وينهض. كلود

عاد لمحاولات الوقوف على رمال القاع ليستشرف فضاء الهواء ويتنفس.

في المركب متوسط الحجم التي كان يأمل كلود بن فيكتور أن يهرب بها، صيّاد في أواسط عمره نائم داخل الحجرة الوحيدة. سرواله الأبيض الواسع يستر نصفه السفلي وأعلاه عارٍ. أحس أن كائنًا ما أيقظه وأوحى له أن ينظر من النافذة الضيقة فيرى الفارس الذي يقاوم الغرق، وهو يقب إلى سطح المياه ليتنفس فتضربه الموجة ليغطس وتُبقِي ذراعيه مرتفعتين فوق السطح ليتشبثا بلا شيء والموج يضرب فيهما! وثب الصياد في البحر وسبح سريعًا وأتى كلود من ظهره، وأمسكه من تحت إبطه وسبح به للشاطئ. كلود يشهق ويأخذ أنفاسًا سريعة من الهواء. اطمأن لمنقذه واستراحت نفسه أنه ليس من المغرقين. الصيّاد يبذل مجهودًا كبيرًا حتى وصل بكلود لقرب الشاطئ. يسير الصيّاد وهو يساند كلود الذي يتعثر في حركته. وصلا على الرمال فارتميا معًا.

كلود على البر ملقًى على بطنه يسعل بشدة ويفرغ المياه التي تجرَّعها. ساعده الصيّاد ليستلقي على ظهره ويأخذ أنفاسًا سريعة عميقة، يتمعن في السماء الرصاصية اللون مستشعرًا لذة البقاء حيًا. أدرك أن هذا الصياد عاري الصدر الجالس بجواره قد أنقذه! الصياد في أواسط العمر، ما زالت المياه تتقاطر من شعره على وجهه وعنقه. بدايات الليل لكن كلود يتمعن في وجه منقذه. وجهه

برونزي هادئ. الصيّاد ينظر لكلود نظرات محايدة. سأله كلود بالفرنسية..

– أتعلم أني من جنود حملة الملك لويس؟

– أعلم.

– تعلم أني.. أني مسيحي؟

هز الصياد رأسه مؤكدا علمه. فطن كلود أنه تكلم بالفرنسية والصياد أجابه بها وإن كانت لكنته غريبة!

– تعرف أنت لغتي الفرنسية؟

– تاجرت كثيرًا مع فرنسيين وإيطاليين وتعلمت لغتيهم وتعلموا مني بعض العربية.

– غريبة!

– بل عادي.

– تعلم أني عدوّك؟

– أعلم.

– لمَ أنقذتني إذن؟

– هكذا يجب أن يفعل الإنسان مع أخيه الإنسان.

– ما اسمك؟

ينظر له الصيّاد في حيادية..

– إنسان.

لحظات مرت. اعتدل كلود وجلس ينظر للصيّاد المسلم الإنسان. قال له:

– هل في البحر حوريات؟

– نعم.

– كانت تشجعني على مقاومة الغرق!

– وربما هي التي نبهتني لإنقاذك.

– الرب معي.

– معنا جميعا.

لحظات وكلود يتنفس بعمق وحيرته أعمق. نظر للصيّاد في حب وامتنان، ثم ارتسمت على وجهه ملامح رضاء واستسلام. قال:

– بعد فترة لن تطول ستلحق بي فرقة مطاردة من الجنود المسلمين. سيقتلونني على أي حال.

– لا.

– وما أدراك حتى تقول لا؟

– ستكون أسيرًا فقط.

مدّ كلود يده وبصعوبة من داخل سترته انتزع قطعة قماش بللتها المياه، مرسومًا عليها بخيوط ملونة قصرًا ضخمًا أعلاه برجان. أعطاها للصياد..

– هذا المنديل مرسوم عليه رمز عائلتي، عائلة فيكتور. عائلتي من أكبر العائلات في مرسيليا وفي فرنسا كلها. وهذا كل ما عندي الآن لأعطيه لك من إنسان لإنسان.

بقي كلود بن فيكتور أربع سنوات أسيرًا. ثم دفعت فرنسا الفدية المطلوبة مقابل إطلاق سراح الملك لويس التاسع وغيره من الأسرى ومن ضمنهم كلود بين فيكتور. الفدية ضخمة ضخمة. تعادل ما تجمعه خزائن فرنسا طوال اثني عشر عامًا! وهذه الأموال التي أنفقت في حملة فاشلة، بالإضافة إلى الأرواح التي أزهقت والإهانة التي نالتها أوربا، كانت سببًا في غضب الكثير من الأوربيين ضد كنيستهم التي شجعت هذه الحملة ودعت لها.

في مركب العودة لم يكن كلود في حال مثل حاله، وهو في الذهاب إلى الشرق غازيًا متحاملًا حاقدًا معتزمًا قتل المحمديين في سبيل رفعة المسيح والمسيحيين. صار أشعث الشعر طويل اللحية والشارب، نحيل الجسد عليه رداء خشن. مثله مثل بقية الأسرى يحس بالذل الذي انتهى إليه. لم يفكر في خطيبته الجميلة آجنيس التي أبلغوه بالرسائل، أنها رفضت انتظاره وتزوجت بغيره!

لم يغضب منها ولم يشعر بأي حزن. في هذه السنوات القليلة تغيرت عقليته، ولم يعد يأبه بفتاة كل ما تمتلكه هو الجمال والدلال ولا شيء آخر! موجوع من المذابح التي حدثت بين المسيحيين والمسلمين وقد شارك فيها بقوة، وسفك بسيفه عشرات من دماء المسلمين. الدماء التي سفحت بحمرتها المرعبة تطارده. آلام الجنود وهم يتلقون طعنات السيوف والرمال والنبال والفؤوس والبُلط. صيحات المصابين المفجعة. كلود قلبه مضغوط بالحزن والفجيعة، عقله مسحوق بالتفكير المضني لفهم ما جرى ولماذا جرى؟ وفي نفس الوقت يحيِّره ما جرى له مع حوريات البحر. فكر فيهن كثيرًا خلال فترة حبسه التي طالت. تساءل مع نفسه.. كيف صادقنه على شواطئ مرسيليا، ثم وصلن له وهو يغرق في شواطئ مصر! كيف تيقن أنهن حوريات البحر؟ وما تلك الرسالة التي هي سبب تشجيعهن له أن يقاوم الغرق؟ أما من ناحية البشر، فكلود بن فيكتور أخذ يراجع نفسه، لقد تحادث مع حراسه ومع بعض شيوخ وقيادات المسلمين، تفاهم معهم بقدر كبير من الصعوبة. حاول فهم أعماقهم. حاول الإحساس بأحاسيسهم. وجد فيهم الكارهين له والمشفقين عليه. وجد من رفضوا التفاهم ومن حاولوا التفاهم والحوار معه. انتهى أنه لم يعد يكرههم. لم يعد يكفرهم لأنهم ليسوا مسيحيين. كلود بن فيكتور يراجع حال المسيحيين وحال المسلمين. حال هذا البحر الوسيط الذي كُتب عليه أن تتقاتل ضفتيه ضد بعضهما بعضًا فيلوثا هذا

البحر الأزرق بلون الدم الأحمر. على ظهر مركب العودة كلود ما زال يحاور نفسه.. لماذا الحروب؟ ولماذا سفك الدماء؟ نحن نقول على المحمديين إنهم كفرة. والمحمديون يقولون علينا إننا كفرة؟ فمَن منا المؤمن ومَن منا الكافر؟ من منا على حق ومن منا على باطل؟ فاجأه أنه كان من بين جيوش المحمديين مسيحيون مصريون! كيف؟ أليست الحرب حربًا دينية في شعاراتها؟ كيف يقول شيوخ المسلمين الذين حادثوه كما يقول الفرسان الذين ناقشوه إن جيوش أوربا جيوش فرنجة، أي جيوش غرباء آتون من أوربا، ولا يعترفون بأنها جيوش صليبية؟ كيف يقول أغلب المسلمين إن تلك الحرب ليست حربًا دينية، لكنها تتمسَّح في الدين، وقيادات الحملة الصليبية يقولون إنها حرب صليبية؟ غرائب مدهشة عرفها خلال سنوات الأسر. المسلمون فيهم فرسان هائلون وجنود أفذاذ كما عندنا، هم كانوا الأقوى لأنهم يدافعون عن بلادهم. إن هؤلاء الناس مسلمون، ولا يصح أن يُقال عنهم محمديون. تأكد بالفعل أن في المسلمين أناسًا بشعين، لكن فيهم الطيبين مثل الصيّاد الشهم الذي أنقذه وقال إن اسمه إنسان! والجنود المسلمون الذين أسروني ولم يقتلوني. ونحن المسيحيين، فينا البشعون وفينا الطيبون. فلمَ الحرب ولمَ سفك الدماء؟ هل ممكن أن نزيد من جرعات الشهامة بيننا جميعًا ونتفاهم في احترام وحب بدلًا من الحروب البشعة؟ هل نرسّخ التلاقي الإنساني بيننا بدلًا من الصدام الدموي؟ تُرى..

هل تلك هي الرسالة التي تحاول حوريات البحر أن توصلها لي؟ أفحواها بث المحبة والسلام بين سكان البحر الوسيط؟ ربما! لا. ليس ربما، بل أكيد. فعلًا هذه هي الرسالة. رسالة المحبة والسلام.

يعود كلود بن فيكتور إلى مرسيليا. قلبه يخفق توْقًا لمدينته وأهله وأهلها، أوحشه والداه. أوحشته كلابه المتنوعة. ومركبه تمر بجوار أرخبيل فريول، يراقب القلعتين القائمتين على جانبي الميناء وسور المدينة القوي. النوارس بصيحاتها الحادة تستقبله. خليج مرسيليا الرائع والكنيسة الشامخة على الربوة العالية. المراكب التجارية ومنها مراكب عائلته. البرجان على جانبي قصر عائلته الضخم الفخم. عدد من قصور كبار التجار، وكل منها تحفة جميلة تبين السؤدد والغنى مع الجمال.

عاد كلود بن فيكتور ليستقر في قصره شبيه القلعة. لم يعد قاطنو القصر كما تركهم. وماتت أمه حسرة على أسر ابنها الفارس كلود. أبوه فيكتور دخل في أمراض كبر السن، ويتلهف على ترك مسئولية العائلة لكلود، استقبله من بقيَ حيًا من العاملين في القصر، وعدد من أصدقائه. فرح به كلبان عجوزان بقيا أحياء من مجموعة الكلاب التي تركها حين سافر. تمسّحا فيه فحملهما وحنّ عليهما، وهو يغالب الحزن الذي يفيض داخله. كلود الذي عاد ليس هو كلود الذي ذهب. فارقته الثقة الزائدة بالنفس، وجانب الغرور الذي اعتراه قبل الحرب. مطعون في ضميره من المجازر التي شارك

فيها. أيام لم يحلق ذقنه ولا شاربه، هذّبهما بإلحاح من أبيه. الإصابة القوية التي نالها على خدّه الأيمن تركت أثرًا غامقًا غامضًا على وجهه الأبيض، فظهرت وكأنها شامة طبيعية بنيّة اللون.

حاكم مرسيليا أتى لقصر آل فيكتور ليهنئ العائلة بعودة ابنها كلود سالمًا. أتى في موكب فرسان من حرسه الخاص. لقيَ استقبالًا يليق بحاكم، لكن كلود لم يعره اهتمامًا يليق بحاكم. كلود ليس في حال مزاجي ليجامل الزوّار حتى لو كان الزائر حاكم المدينة.

كلود سريعًا زار صديقه فيتو بن فيتوريو، وأشفق عليه أنه سيكون معتلًا بقية حياته. فيتو تقبّل حاله راضيًا، فهذا أفضل من الموت مقتولًا بسكاكين وعصيّ المصريين، أو غريقًا في نهرهم. وشجاعة كلود بن فيكتور لها فضل إنقاذه.

عند عودته إلى قصره، وهو ينزل من ظهر حصانه، شاهد مجموعة من الرجال، من ملابسهم وجد فيهم من هم غاية في الفقر ومن هم ميسورو الحال، ومن هم بين بين. تقدموا إليه والأسى غالب على سحناتهم. احتضنه أحدهم شاكرًا مبينًا أن كلود أنقذ حياته، وآخر ركع أرضًا مخبئًا وجهه بين كفيه وهو يبكي ذاكرًا أن خلال قتله أحد المسلمين، كانت عيناه تنظران مباشرة في عينيه. عينا القتيل ما زالتا تأتيانه ليلًا ونهارًا تعذبه متسائلة.. لماذا قتلتني؟ عرفهم كلود. كانوا جنودًا في الحملة وعادوا سالمين جسدًا معتلين

نفسًا، فيما عدا اثنين منهم أحدهما بذراع واحدة والآخر مشوه الوجه بضربة سيف. أخذهم كلود لداخل القصر. يؤيدونه في رفض الحرب والندم على المقتلة التي أحدثوها. أفقرهم حالًا يعترف بأنه مثل ألوف من الفقراء مثله، شاركوا في الحملة الحربية طمعًا في مغانم ينتزعونها. ثم قالوا إن مجموعة أخرى كانت معهم وعادت، لكنهم لم يندموا على ما اقترفوه، بل هم فخورون بما فعلوه من أجل المسيح والمسيحية.

كلود حبس نفسه في حجرة مكتبه يتأمل ويتفكر. بعد أيام أخذ يقرأ في الإنجيل ليفهم أعماقه أكثر. ندم على اشتراكه في تلك الحملة الدموية. الإنجيل المقدس يرفض سفك الدماء. لم يأت يسوع المسيح للحرب، بل أتى للمحبة والسلام. انكب كلود ليغوص أكثر وأكثر في الكتاب المقدس. تداخلت نفحات المسيح المُخَلِّص في نفس كلود. في ليلة أخذ يضرب بقبضتيْه على جانبي رأسه ويصيح متألمًا:

– يا يسوع المسيح، كم كان عبدك كلود بن فيكتور غِرِّيرًا. كتابك يا ربنا أساسًا كتاب محبة. محبة للرب محبة للبشر أجمعين.

كلود، لأنه فارس إنساني مفكر، تيقن أن شعوب الجانب الجنوبي من البحر الوسيط، ما هم إلا نوعية بشر تعيش بطريقة ما وتؤمن بطريقة ما، وأن شعوب الجانب الشمالي من نفس البحر الوسيط،

ما هم إلا نوعية بشر تعيش بطريقة ما وتؤمن بطريقة ما. وعليهم جميعًا أن يتفاهموا ويتعاونوا بدلًا من الحروب الدموية التي لا تنتهي.

في أول خروج كامل من حجرته كان الليل جاثمًا، ترك القصر واتجه إلى البحر. الجو بارد جدًا. بملابس خفيفة نزل في البحر وسبح فيه هنا وهناك حتى أحس بحوريات البحر يحطن به. بقيَ ساكنًا يرسل من قلبه وضميره وعقله إشارات ويتلقى منهن إشارات. نعم، إن الرسالة وصلت واضحة، المحبة والسلام. عاد للقصر وطلب من أبيه أن يجمع العائلة كلها صباح اليوم التالي. إخوته البنات بأزواجهن وأبنائهن وأبناء العمومة. فوجئ الحضور وهم يمرون على الباحة الرئيسية بأن السبعة عشر ملبسًا حديديًا الخاصة بفرسان العائلة، قد اختفت هي وسيوفها وحرابها! جلسوا حول كلود ووالده المسن الذي لم يتكلم، بقيَ صامتًا حائرًا من حالة ابنه الذي قارب أن يتولى أمور العائلة. الحضور قلقون من الحالة الحالمة المريبة التي تشي بها ملامح كلود. يومها صارحهم كلود بكل ما عنده، قال إن حملة مليكهم لويس لم تكن خالصة للمسيح وإعلاء قيم المسيح الرحيمة! وأن أهم أهداف الحملة هو السيطرة على طرق التجارة، ومضاعفة المكاسب لكبار العائلات. حكي عن حوريات البحر اللاتي رافقنه خلال سباحته في مياه مرسيليا، ثم أنقذنه حين كاد يغرق في مياه المسلمين. وطالبنه بالتشبث بالحياة عمومًا ليؤدي

رسالته. لم يفهم وقتها ما رسالته هذه؟ لكنه خلال عودته وخلال حبسه لنفسه في حجرة مكتبه، عرف الرسالة المطلوبة منه. رسالته هي بث المحبة والسلام بين شاطئي البحر الوسيط وبين المسيحيين والمسلمين واليهود.

عائلة كلود عائلة متديّنة، وعندها ثوابت فكرية أساسية منها: أن المحمديين كفرة وتجب محاربتهم هم واليهود حتى يدخلوا في دين يسوع. قالت العائلة لبعضها إن كلود ضربته لوثة بسبب الحرب والدماء التي أريقت والحبس الذي ناله في بلاد المحمديين. فكيف تكون المحبة والسلام بين مسيحيين مؤمنين وغيرهم من الكفرة؟ إن ذاع اعتراضه هذا سيجلب المشاكل على العائلة كلها. قال قائل منهم:

– إنها جِنِيَّة البحر. نادت كلود بن فيكتور فاستجاب لها، وبدلًا من أن تغرقه، لوَّثت عقله وأطلقته ليربك المسيحيين. ليتها كانت أغرقته واستراح هو واسترحنا نحن من هرطقته.

توفيَ فيكتور أبو كلود، فيكتور هو المؤسس الحقيقي للعائلة. هو الذي صعد بها من عائلة متوسطة الغنى لعائلة من أغنى أغنياء مرسيليا وفرنسا. هو من أكثرَ من المراكب التجارية، وعرف كيف يتشعَّب في تجارته، وهو باني القصر المنيف الشهير بمتانته وبرجيْه، لذا فالعائلة صار اسمها عائلة فيكتور.

لم يهتم كلود كثيرًا بشئون التجارة والأعمال الخاصة بالعائلة. تركها لابن عمومته. أقوال كلود بن فيكتور ذاعت سريعًا حتى وصلت باريس، وسمعها الكاهن الذي كان يرافق كلود في الحملة فتعجب، لقد كان كلود مقتنعًا تمامًا بضرورة تنصير المحمديين، وبضرورة وضع الأماكن المسيحية المقدسة تحت سيطرة أتباع المسيح، فماذا الذي غيرَّه؟ أتى الكاهن إلى مرسيليا. استضافه كلود في قصره ثلاثة أيام. والثلاثة أيام كلها حوارات ساخنة ومشتعلة بينهما. بيَّن كلود للكاهن أنه نادم أشد الندم على مشاركته في حملة الملك لويس، الحملة التي ارتكبت مذبحة سالت فيها دماء المسيحيين والمسلمين بحورًا، وأنه في آلام ضمير مبرحة، ويدعو ليلًا ونهارًا أن يسامحه الرب ويغفر. قال الكاهن:

– أنت قمت بما يجب أن تقوم به. ألست مسيحيًا؟

– نعم أنا مسيحي. وأنا فرنسي. لكن أولًا أنا إنسان.

رفع الكاهن صوته محتدًا.

– ما قمنا وقمت به معنا من حرب على الزنادقة هو لأجل المسيح.

– لا. حملتنا الوحشية كانت بتحريض من إبليس الكاره للمسيح والمتآمر على كل قيمنا المسيحية النبيلة، فتنهار إنسانيتنا ولا يتبقى لنا سوى شعارات إبليس. وهذا هو التمهيد للمسيح الكذّاب.

– أغزْونا للكفرة معناه أننا نتبع المسيح الكذاب؟ كلود بن فيكتور، يا من كنت فارسًا من فرسان المسيح. تتهمنا بأننا ضد سيدنا المسيح؟ كيف تجرؤ؟

– قـــال يســـوع.. طوبى لصانعي الســـلام. لا طوبى لصانعي الحروب.

– ألم تكن حملاتنا دفاعًا عن المسيحيين المضطهدين في بلاد الزنادقة؟ أليست حملاتنا لتطهير أماكننا المقدسة في القدس؟ أنتَ لا تفهم المقاصد يا كلود بن فيكتور. على كل حال، فلتعلم يا كلود الغائم التائه، أن الممالك المسيحية تفكر في تجميع حملة صليبية جديدة لتغزو الشرق.

تجهّم كلود وقال:

– إن كان، فلا يمكن أن يخلصنا من مهالكنا إلا إله.

ولم يستطع الكاهن إعادة كلود لما كان عليه. كلود يصر أن تسليح الديانات بالكراهية ضد بعضها كارثة على كل الأديان وعلى كل التابعين للأديان، وأن كراهية المختلفين عنا دينيًا، ستدفعنا كما سبق لكراهية المختلفين معنا في مذهبنا المسيحي، وأن الشجاع ليس من يقتل، بل هو من لا يقتل. غضب الكاهن غضبًا هائلًا، ولم يعلم أن كلود من المجاميع التي تطالب الكنيسة بأن تتفرغ للمسيح وتترك شئون الدنيا.

كلود بن فيكتور أتى بالرسام الفنان الذي رسمه من قبل، وهو في حالة غرور ما قبل الحملة، طلب منه أولًا إجراء تعديل ضروري للوحة التي رسمها له من سنوات. أن يضيف على خده الأيمن الشامة الناتجة عن إصابته. ثم يرسم لوحة لوجه إنسان، ذاك الصياد المسلم الذي أنقذه. كلود أخذ يشرح للرسام ملامح الصياد والرسام يرسم لكنه لم يستطع أن يأتي بما يتخيَّله كلود. لذلك قرر كلود أن يرسم وجه الصياد بنفسه. رسم الكثير من اللوحات ومزقها قبل استكمالها، ولا واحدة فيها قاربت لملامح هذا الصياد. كلود بن فيكتور ليس رسَّاما لينجح في رسم وجه إنسان. وفي النهاية توصل إلى ما يمكن أن يرسمه، ملامح تعطي الطمأنينة، فهذا هو المطلوب. علق اللوحة في باحة القصر بجوار لوحته. وكتب تحتها.. إنسان. أوصى كلود بالاهتمام بهذه اللوحة اهتمامًا خاصًا.

بحث كثيرًا عن فتاة تحس به وتتفهَّمه. عن فتاة تساعده في تنفيذ رسالته التي لن يتم استكمالها وإبلاغها خلال حياته فقط، بل خلال حياة أولاده وأحفاده، لذلك كان يبحث عن نوعية معينة من الفتيات. صديقه فيتو فيتوريو وجدها له. إنها مارسيل. مارسيل من عائلة دوفال، وهي شهيرة غنية بمراكبها التجارية، وإن كانت أقل ثروة من عائلة فيكتور. مارسيل جميلة فِرعة الجسد، لكن ليس فقط جمال وجهها وقوة جسدها هما ما أخذا لُب كلود، بل طيبتها وقراءاتها العميقة. استمعت لكلود واقتنعت به وبأفكاره وبرسالته،

فكان زفافهما في ليلة مشهودة، خليج مرسيليا كان في تلك الليلة مضاءً كله بالمصابيح، ولا هدوء طوال الليل من عزف الآلات والغناء الفردي والجماعي، فالزيجة تجمع بين عائلتين من أكبر عائلات مرسيليا.

كلود كل وقته لما يفكر فيه ويريد تحقيقه. أخذ يختلط مع العائلات المغربية المسلمة التي تعيش في ركن شبه منعزل. تعلم منهم العربية الدارجة بالممارسة، والعربية الفصحى أيضًا ليستطيع قراءة القرآن كتاب المسلمين. صرّح كلود بن فيكتور، محمد إن لم يكن نبيًا فهو مصلح اجتماعي على جانب كبير من السمو والعبقرية، ويجب أن تدرسه فرنسا وكل بلدان المسيحية، فتجاربه ونصائحه إنسانية راقية. صادَق اليهود ودخل بيوتهم ودخل الكنيس الصغير الذي أقاموه. ولما اندهش البعض، قال:

– خلقنا اللـه مختلفين، فمن يعارض مشيئته؟ مَنْ؟ مدينتنا نفسها، مرسيليا، ثلث أصولها إيطالية. ومن أصولها كورسيكيون وأرمن. وأسسها إغريق يونانيون. فهل نتبرأ منهم وهم منّا؟ هل ننكر اختلاطنا؟

في جلساته كلها مع أهل مرسيليا يحكي لهم عن دموية الحرب وبشاعاتها. لا يعارض تدريب الشباب على الفروسية، فالقوة مطلوبة والاستعداد للدفاع عن النفس واجب، لكن التدريب أيضًا يكون

بأخلاق الفرسان السامية، ولا تكون التدريبات مُخَلّطة بالكراهية. فليكن شبابنا فرسانًا حقيقيين. والفارس بالضرورة نبيل عادل يدافع عن الحق ولا يحارب الحق.

يستعيد كلود مشاهد الحرب. سيفه يخترق أفئدة وبطون المسلمين، سيفه وهو يطيح بالرقاب. بلطته وهي تنزل على رؤوسهم وصوت تحطيم رؤوسهم، وصرخاتهم وهم يتلقوْن ضرباته، بل وصيحاته وهو يضرب فيهم بكل قسوة وغل. حكى كيف أنه في القتال طعن جنديًا شابًا مسلمًا، فصاح وهو يقع طالبًا أمه! وكيف وهو يطعن آخر وأسقطه أرضًا، فلم يملك المطعون سوى أن يعبر عن كراهيته ببصقة خرجت ملوثة بدمائه. السباب المختلط من الجانبين بأقذع الكلمات، وكل جانب يتهم الآخر بالكفر! يبين كلود أن الحرب بشعة بشعة بشعة. وأنه بقتله عشرات من المسلمين، اكتشف أنه قتل نفسه، وأنه بسيفه خلخل الجسر الرابط بينه وبين اللـه. يكفكف دموعه وهو يطلب الرحمة والمغفرة من اللـه ليعيد ترميم جسر التواصل مع الرب. يكفكف دموعه وهو يرجو مستمعيه العزوف عن الحروب، واللجوء إلى الحوار والفهم والتجارة مع الجانب الجنوبي من البحر، وأن على الأديان الثلاثة أن تبين سماحتها مع بعضها.

استغرق كلود بن فيكتور في كتابة مذكراته. كتب كل وقائع الحملة الصليبية، وشرح ما توصل إلى فهمه من أعماق المسلمين

وأن فيهم الخيرين والأشرار مثلهم مثل المسيحيين ومثل اليهود، بل مثل سائر البشر أجمعين. كتب بمنتهى الوضوح.. "أن العدو للبحر الوسيط هم دعاة الكراهية من الجانبين، وأن على الطيبين من الجانبين أن يتعاونوا! وأن على ذريته ألا تشارك في حملات قتالية على الآخرين، وأن تستغل ثروتها لترسيخ المحبة والمصالح المشتركة في جوانب البحر الوسيط، وأن تدعو الله أن يغفر له مشاركته في حملة لويس وسفكه لدماء المسلمين".

استكمل كلود بن فيكتور مذكراته، ورفض أن يطلع عليها أحد غير زوجته مارسيل وابنيه حين صارا في عمر الرابعة والخامسة عشر. أكد لهم أن أسطر مذكراته تأمر وترجو أحفاده أن يستكملوا رسالة المحبة والسلام.

مرض كلود بني فيكتور، وقبل أن يموت أصر على السباحة ليلًا في البحر العريض. توغل في البحر وعائلته تتابعه من البر مشفقة عليه. تلامَسَ مع حوريات البحر. ودَّعهن وودعنه. وفي فراش الموت كانت مارسيل بجواره وأمامه ولداه. أمسك بكف مارسيل وقال لهما:

– ولديّ الحبيبـــان ومن بعدكما من ذكور، تخيروا نســـاءكم. فبخلقهن وعقولهن وقوة أجســـادهن وجمالهن، تقوون وتتســـامون وتبقـــون آل فيكتور عائلة قويـــة مهابة. وقوتكـــم ومهابتكم تكون

للمسيح وتنفيذا لوصاياه. وعلى ذريتي أن تكون ينابيع محبة للبشر أجمعين.

مات كلود بن فيكتور ولم يتخط الخمسين من العمر. كلود بن فيكتور صار اسمه بين العائلة هو كلود الأول، على أن من ذريته من سيأتي ليكون كلود الثاني، وربما الثالث والرابع إلى ما لا نهاية حتى يتم تنفيذ رسالته، رسالة المحبة والسلام بين شاطئي البحر.

* * *

كلود الثاني (كلود السمين)

عائلة كلود بن فيكتور مثل بقية العائلات، من عادتها أن الذي يرث القصر الكبير وثروة العائلة هو أكبر الأبناء الذكور، وبقية الأبناء لهم القليل الذي يمنع عنهم الفقر. استمرت العائلة في حياتها الاعتيادية، وقد كادت تنسى كلود بن فيكتور وتنسى رسالته، فقد مضت سنوات وسنوات طويلة على موته. مراكب عائلته وبقية المراكب مستمرة في التجارة. التنافس بين العائلات الكبيرة يزداد قسوة، وقد تعصبت كل عائلة لشعارها الذي اختارته لنفسها، شعار آل فيكتور هو الأشهر، رسم قصرهم الكبير ببرجيه. العائلات متوسطة الغنى تعمل بجدية لتتصاعد فتكون في مستوى العائلات الكبيرة. تصادمت العائلات بشراسة لخطف المكاسب في تجارتهم مع موانئ البحر، والتجار الصغار وأصحاب الحرف داخل مرسيليا

نفسها لا يقلون شراسة، فتوترت العلاقات بين الناس وبعضها، فقلّت نسائم الود وزادت عواصف البغضاء، مما أثر تأثيرًا سيئًا على كل أهل مرسيليا، فظهرت العصابات التي تهاجم الدكاكين والمخازن لتسرق ما بها، ثم تفاقمت وصارت تهاجم الناس ليلًا وتهددهم بالسيوف وبالخناجر لتنتزع منهم ما معهم من أموال وذهب وجواهر. القسوة التي انتشرت أثرت أيضًا على العلاقات بين أهالي مرسيليا الأصليين والغرباء. وأكثر الغرباء من اليهود الآتين من مناطق عديدة، والعرب الآتين خاصة من بلاد المغرب العربي الأفريقي. العنف والكراهية ازدادا عليهم، فانكمش اليهود والعرب في أماكنهم. اليهود في شارع يكاد يكون محصورًا عليهم والعرب لهم حي كامل باسمهم، وبنوا مسجدًا صغيرًا. اليهود شطّار في التجارة. ورغم مضايقة أغلب كبار التجار في مارسيليا، بدأ اليهود في مشاركات بسيطة مع بعض التجار، ثم تتزايد مشاركاتهم لشطارتهم وسلاستهم في المعاملات. أما العرب فتركيزهم في الأعمال الحرفية والمساعدة في صيد السمك والعمل البسيط في المراكب الشراعية الكبيرة.

في قصر آل فيكتور، تناسى أحفاده رسالته. أعادوا أردية الفروسية الحديدية فانتصبت في البهو من جديد، تبين سطوة وقوة وبطش عائلة فيكتور. بقيت لوحة كلود الأول الكبيرة في مكانها ولها هيبتها، أما لوحة الصيّاد المسلم الذي أنقذه وتحتها كلمة "إنسان"،

فلا أحد حتى يتوقف أمامها أو يفكر في سبب وجودها. مذكرات كلود الأول مركونة وقد كساها التراب. واستمرت الحال على ما هي عليها. الوحيدة التي تتذكر كلود الأول وتحفظ ما يخصه باهتمام كبير، هي العجوز برجيت دوفال، التي قاربت الثمانين من العمر. برجيت حفيدة كلود الأول. ابنة ابنه، وتزوجت من عائلة دوفال وهي نفس عائلة جدتها مارسيل. لم تنجب، وعندما مات زوجها وتقدم بها العمر، عادت لتعيش في قصر آل فيكتور. برجيت لها سطوة على العائلة، وتدير شئون القصر الكبير، ومن حقها لوم كل من فيه من سادة وخدم. في طفولتها كانت جدتها مارسيل ما زالت على قيد الحياة. برجيت عرفت من مارسيل كثيرًا عن كلود الأول، وسمعت عن رسالته حتى آمنت بها بعمق، وأصرت أنها قبل أن تموت سترى وتحتضن طفلًا يستكمل رسالته. برجيت أخذت مذكراته، واحتفظت بها في حجرتها.

وُلد طفل للابن الذي يسكن القصر ويدير أعمال العائلة. الطفل صورة طبق الأصل من الجد الكبير كلود بن فيكتور، خاصة أن به وحْمة على خده الأيمن تمامًا مثل الإصابة التي نالها جدّه! استبشرت العجوز برجيت خيرًا، فأطلقت على الطفل اسم كلود. كلود الطفل ينمو مفتونًا بالقراءة المتنوعة، ويلح كثيرًا ليقرأ مذكرات كلود الأول، إلا أن جدَّته برجيت ترفض، وحجتها أنه ما زال صغيرًا. كلود يجلس كثيرًا أمام لوحة جده كلود الأول، ولوحة الصياد المسلم

ويتأمل فيهما. برجيت العجوز قالت إن هذا الطفل هو المأمول فيه، وأنه أخيرًا أتى كلود الذي يستكمل رسالة كلود الأول. نهار يوم مشمس أخذته جدته برجيت للبحر. وسبحت معه لتحبّبه في البحر، ولتتعرف إليه حوريات البحر التي حكى عنها جدهما كلود الأول. كلود الطفل أحب البحر، ولم يحس بأي إحساس بحوريات البحر.

كلود الطفل صار اسمه كلود الثاني. كبر قليلا وهو مستمر في التمعن في لوحة الصياد الطيب ولوحة كلود الأول. يحس بهما ويحيِّره لون عينيّ جده الزرقاوين ولون عينيّ الصياد السوداوين رغم ما يبثونه من رضاء وحب. لم يلتفت كثيرًا لاختلاف الملابس بينهما. ولما تنامى حب كلود الطفل للرسم، أتت له برجيت بكل ما يحتاجه ليرسم، فكان أول رسم له هو وجه جدَّته. لم يكن ممتازًا لكنه استطاع أن يأتي بملامحها الرئيسية، خاصة حزْمها وبأسها. سمحت له جدته العجوز أن يمسك بمذكرات جده كلود الأول، لكن ليس مسموحًا له وهو ما زال طفلًا أن يفتح هذا الكتاب الضخم النفيس ويقرأ فيه. سنوات قليلة وأمران أبعدا أمل جدته برجيت في كلود الثاني.. أنه يعشق الضحك والهذر، وشغوف شغفًا هائلًا بالطعام والشراب.

من أعلى برج من البرجين اللذين يعلوان قصر عائلة فيكتور، يقف كلود الثاني متابعًا البحر، ويتمعن في خليج مدينته مرسيليا.

ينظر في إكبار للكنيسة الكبيرة على المرتفع. ينظر لقصور كبار العائلات المنتشرة هنا هناك، يراقب الأسطح الحمراء لبيوت مرسيليا. ينظر لبعيد حيث أرخبيل فريول وجزره الأربع. يرسم الميناء كلها والخليج الذي يعج بالمراكب الشراعية التي تأتي بالبضائع وتسافر ببضائع أخرى. مراكب ذات أشرعة كبيرة، أغلبها مراكب عائلته. عشق البحر، وسبح فيه وحده وتوغّل، وأيضًا لم يحس بحوريات البحر، ولم يلتفت لتأكيدات جدته بأن جده الكبير كان على علاقة طيبة بالحوريات.

كلود الثاني وصل للرابعة عشر من عمره، وتابعته عائلته وهو مثلما ينكب على الكتب ويقرأ فيها بشغف، أيضًا تابعوه وهو يستغرق في المزاح ويغوص في الطعام. يجوع بسرعة ويلتهم الطعام بشهوة. يحب الكلاب حبًا جمًا فزاد من عددها. ومبكرًا تجرَّع النبيذ، ومبكرًا أيضًا زاغت عيناه على الفتيات المراهقات ثم تلاحم مع السيدات المجرّبات، وصار زير نساء مشهودًا. كلود الثاني كلما شَبَّ زاد إفراطًا في عشق ملذات الدنيا.

ساح في أرجاء مرسيليا على ظهر حصانه. يمر على جانب سور المدينة القوي الذي يحميها من الغزوات. توقَّف عند أبراج السور الجنوبية وبوابتيها. خرج من بوابة الغرب وسار على حصانه فوق الجسر المبنيّ على بواكٍ حجرية عابرًا فوق النهر الذي يتفرع

لثلاثة أفرع ويروي مرسيليا. شاهد المزارع الخضراء وأشجار الفواكه. وبالطبع اندهش من مزارع العنب التابعة لعائلته. مساحات شاسعة يعمل فيها المئات، ودخل بنايات عديدة بها مراحل تحويل العنب لأنواع فاخرة من النبيذ، ولاحظ أن أغلب من يعملون في مزارع العائلة من العرب المغاربة. وفي عودته أصّر على المرور في شارع اليهود وحي العرب، وألقى التحية على من صادفهم، وهم أجابوه بدهشة واحترام، وفرحوا أن شخصًا مهمًا من عائلات مرسيليا الكبيرة دخل شارعهما، وألقى عليهما التحيات، حتى لو كان هذا الشخص لم يدخل طور الرجال الراشدين بعد!

شمال المدينة حيث البحر، على ظهر مركب صغيرة زار كلود الثاني القلعتين وسراديب الموتى. أخذ مركبًا صغيرة مع صديقين ونزل في جزر فريول الأربع، وصعد جزيرة منها حيث قلعة ديف.

تسلم كلود الثاني مسئولية أعمال آل فيكتور. شهران وفهم كيف تدار الأعمال. قسّم وقته بين العمل وبين قراءاته وملذاته. جدّته برجيت منعته من أخذ مذكرات جده كلود الأول. تواجهه بأنها ستسمح له بقراءة مذكرات جدّه حين يهجر ملذاته التي هي عار عليه وعلى العائلة. ما خفف من قلق جدته والعائلة عليه، أنه من أطيب أهل مرسيليا، وأكثرهم حبًا للخير وقربًا من الشغالين في أعمال

عائلته وفي القصر. ولم يبخل بالأموال المقررة كل عام لصيانة سور المدينة وبواباتها وقلاعها، فقد تعرّضت مرسيليا لغزوات عديدة من قبل. كلود مع كل هذه اللفتات الإنسانية التي تأخذ من وقته، نبغ في فنون التجارة وزاد من أرباحه، يبقى بالساعات في مقر العمل المطل على الخليج، والمكون من طابقين والمبنيّ على علوٍ صخري. مكتبه في الطابق الثاني حيث شرفة عريضة أنيقة. ثم سافر عدّة سفريات على مراكب العائلة، أثبت لهم أنه على كفاءة رغم شهواته التي تضايقهم. أخيرًا سمحت له جدته بأن يأخذ منها مذكرات جده كلود الأول ويقرأها، سمحت له بعد أن أثبت كفاءته، وأيضًا لأنها بلغت من العمر عتيًا وصارت قريبة من حافة القبر. ولما أكمل قراءة المذكرات بعمق، تأثر كلود الثاني كثيرًا بتلك المذكرات، وجعلته أكثر شعورًا بالإنسان عامة، مهما كان أصله وفصله وعقيدته، يكفيه أنه إنسان. وبدأ يفكر كيف له أن يعمل على تحقيق رسالة جده كلود الأول، لكن المذكرات لم تخفف من غلوائه في عشق الملذات.

كلود، وقد شبّ وتجرأ أكثر. فعل شيئًا غريبًا.. تكلم مع جدّته برجيت الصارمة، صارحها أنه يرغب في دعوة يهودي وعربي من أصدقائه للقصر. فوجئ بموافقتها. فبدأ دخول اليهود والعرب في قصر من أهم قصور مرسيليا، قصر آل فيكتور! ولم يمر ما يحدث ببساطة في المدينة. عدد من العائلات الكبيرة أظهرت

رفضها هذا في أكثر من مناسبة، ورُفضت الحجّة بأن هذا التلاقي بين الفرنسيين الأصليين والغرباء سيؤدي إلى فائدة مرسيليا. وفي الكنيسة رفض كاهن هذا واعتبره غير مقبول مسيحيًا، كان ردّ كلود الثاني على الرافضين صاعقًا، فقد أفحمهم بسيرة فرنسيس الأسيزي الذي تمّ رفعه لمرتبة قديس لدوره في خدمة المسيح والمسيحيين، والذي أحب غير المسيحيين واختلط بهم. قال كلود الثاني إنه يحاول الاقتداء بسيرة القديس فرنسيس الأسيزي، فهل يعترض الكاهن المعترض على سيرة القديس فرنسيس الأسيزي؟

برجيت، جدة كلود الثاني هي أهم من أيّدته في أفكاره وفي أفعاله الخيّرة، وفي حبه لغير المسيحيين. خاصة بعدما تلى عليها آيات قرآنية تتحدث عن مريم سيدة نساء العالمين (إِذْ قَالَتْ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ) فذرفت برجيت أدمعًا حبًا في مريم، وتأثرًا بالكلمات الطيبات عنها. استمد كلود منها مددًا عظيمًا، لكنها توفيت فحزن عليها كلود الثاني كثيرًا.

كلود الثاني من ناحية الفروسية اكتفى بركوب الخيل، وكره اللعب بالسيف والحراب ورمي السهام، يكره القتال. ورغم طوله وعرض أكتافه، فهو ليس بالرشيق، ومع توالي سنوات عمره صار سمين البطن واضح المؤخرة، ولم يغضب حين أطلقوا عليه

ساخرين نعت كلود السمين! بل يربت على كرشه راضيا ضاحكًا حين يناديه أحد بهذا النعت.

السمين اتبع نصيحة جده الكبير، والتي سمعها من جدته برجيت لأكثر من مرّة، اختار زوجة تجمع ما بين الجمال وقوة الجسد، وبين العقل المبهر والضمير المبصر. كانت كارين التي تحب القراءة مثله، وبها طيبة عميقة مثله، وتعامل كل إنسي حسب خُلقه لا حسب ديانته أو غنى عائلته. كارين ابنة عائلة "شلنت" ذات الأصل الألماني، وهي العائلة الغنية القوية التي تعمل في صناعة المراكب الكبيرة والأسلحة. لذلك كان من الواجب أن يحضر حاكم المدينة هذا الزواج المهم. فأتي وكان من مظاهر الأبّهة والفخار، لكن مظهر الأبهة الأكثر إبهارا كانت العربة الفخمة الأنيقة ذات النوافذ الزجاجية والتي تجرها أربعة خيول وركبها العروسان متجهين للكنيسة، ومن الكنيسة لقصر آل فيكتور. كانت فكرة مبدعة من كلود السمين سعدت بها كارين.

كارين لم تهمها سمنة كلود الثاني الواضحة. وجدت فيه الطيبة وعشق الجمال مثلها. تزوجها فكانت نعم الزوجة له، لكن لم يكن كلود الزوج المثالي، فرغم أنه أحبها واحترمها حتى الممات، فعشْقه للنساء لم يهمد حتى مات. كلود الثاني في مسيرة حياته عشق الفرنسيات والإسبانيات والمغربيات وتوصّى بالإسكندرانيات.

فهمته، وتأكدت أن مزايـــاه تفوق عيوبه بكثير، وأنه بالفعل أحبها، فتحملته، وأنجبت له ولدا وبنتًا. وقيل وقتها إن كارين تعد من أفضل النساء اللاتي سكنَّ قصر عائلة فيكتور.

أبحر كلود الثاني على مراكب العائلة التجارية. فوصل بمركب إلى برشلونة واختلط بالإسبان وأحبهم وأحبوه، واندهشوا وهو يسلم لعجوز يهودية خطابًا من أختها المقيمة في مرسيليا! ثم وهو يتكلم جملًا بالعبرية ويغني مقطعًا من أغانيهم التراثية! وعشق لأيام فتاة منهم، وتعلم بعض كلماتهم ورقصاتهم وأغانيهم، ولما عاد حمل معه كتبًا من إسبانيا، خاصة كتابين عن الفيلسوف العربي الإسباني ابن عربي. ثم ذهب إلى الضفة الجنوبية للبحر حيث المسلمين، فهبط في ميناء سبتة المغربي. في سبتة اختلط بأهلها واندهشوا وهو يسلم عجوزًا منهم خطابًا من حفيدها الذي يعمل في مزارع آل فيكتور! واندهشوا وهو يلقي بكلمات عربية تعلمها، ويغني مقطعًا من أغنية تراثية! أحبهم وأحبوه. واستمع لهم وتداخل مع لغتهم العربية، وأتى بكتب منها، وعشق لأيام فتاة منهم. وهناك بدأ يدخن النارجيلة. وعاد كلود الثاني لمرسيليا وهو أكثر إنسانية، وفي نفس الوقت أكثر فرنسية وأكثر اعتزازًا بمرسيليًا!

زياراته للكنيسة لا تنقطع. مع الكهنة عرف احتياجات الكنيسة ووعد بتلبية كل طلباتهم. الكنيسة الآن تعظ ولا تحكم، وعلى أنصار

يسوع أن يلبوا كل احتياجاتها. قال كلود الثاني كلمة تقبَّلها رجال الكنيسة، ضايقت واحدًا فقط منهم. قال:

– من وقت أن تفرغت الكنيسة لشئونها وتركت شئون الدنيا للناس، ومرسيليا تتقدم وتتطور، وأهلها يسعدون بمدينتهم وبكنيستهم.

كلود زاد من تداخله مع اليهود، وزار معبدهم وقرأ عددا من كتبهم وفلسفاتهم، وتعامل معهم إنسانيًا وتجاريًا أكثر وأكثر. وهكذا مع العرب، فجالس العاملين في مزارعه ومعاصِره. أصر على تعلم اللغة العربية ليقرأ الكتب التي كُتِبَتْ بالعربية، وازداد شغفًا بموسيقاهم وغنائهم ورقصاتهم. يقول لمن حوله:

– مع معرفتك للغتك الأساسية، اعرف لغة أخرى، تعرَّف لغتك أكثر. اعرف شعوب الضفة الجنوبية للبحر، تعرف ضفتك الشمالية أعمق. اعرف أديان غيرك، تعرف مسيحيتك أعمق. حبّ موسى ومحمد، تحب وتفهم عيسى أكثر وأكثر.

وفعل كلود السمين أمرًا جديدًا، وكالعادة انقسم المرسيليون تجاهه وقتًا، ثم كانت الأغلبية معه. دعا كبار القوم إلى حفل في قصر عائلة فيكتور. وكان من بين المغنين أشهر مطربة في مرسيليا، وهي شابة واسمها إديث. وأشهر مطرب بالمدينة وهو هانان. هانان تربى في بلاد العرب، وهو اليهودي، فجمع بين النفسيتين في حاله! فكان هذا حدثًا غريبًا رائعًا. ثم قلده الغير بعد ما استساغ الجميع فنون الجميع.

وهل مر ما فعله كلود السمين مرور الكرام؟ مطلقًا. فكاهن شهير، عارض وقدح فيما يفعله كلود السمين. وصاح بملء فِيه: إن هذه الفعلات لا تعتبر من المسيحية في شيء. وأيَّد هذا الكاهن المتزمِّت عدد كبير من الناس خاصة بعض التجار المنافسين لعائلة فيكتور، أي أن أغلب المؤيدين لهذا الكاهن كان تأييدهم ليس اقتناعًا، بل هي غيرة من عائلة فيكتور ونجاحاتها وثروتها، وبالطبع أعداد ممن في قلوبهم كره، ويجب أن يوجهوا هذا الكره على الناس. ومقابل هذا الكاهن المتزمت ومن يتبعونه، وقف بجانب كلود كاهن ممتلئ بالمسيحية، وروحه تلامست مع روح يسوع المسيح. فكان من ضمن حضور حفل كلود الثاني ومن ضمن المهنئين له بفكره وسماحته، وضمن من صافحوا إديث وهانان، وشجعوهما معًا دون تفرقة. وكان أغلب أهل مرسيليا مؤيدين لهذا الكاهن ولكلود، فالمحبة والسماحة هي الأساس، ثم إن آل فيكتور من أكثر العائلات تبرعًا للكنيسة وللفقراء، ومن أكثر المحبين لمرسيليا ولفرنسا عمومًا.

عمومًا، كلود الثاني وهو يغوص في الكتب الدينية والعلمية. ركز كثيرًا على تاريخ العرب المسلمين وعلمائهم الذين ترجموا فلسفة اليونان. ثم وكأنه قرر التخصص في كل ما يخص مصر التي زارها القديس فرنسيس الأسيزي، قضى كلود ثلاث سنوات كاملة يقرأ عن مصر، وعن الإسكندرية التي وقع في غرامها. قرأ عن الإسكندر المقدوني ذي القرنين وبنائه للإسكندرية. قرأ عن

الملوك البطالسة ومكتبة الإسكندرية، التي كانت أعظم المكتبات وظهر فيها فلاسفة لا حصر لهم. تابع عظمة البطالسة السكندريين وما حدث بين كليوباترا وبين يوليوس قيصر، ثم مارك أنتوني. تابع دخول المسيحية للإسكندرية بتبشير مرقص الرسول. وفوجئ بالفليسوفة الفاتنة هيباثيا التي قتلها المتطرفون المسيحيون، فكانت هيباثيا أقرب لقلبه وعقله من الإسكندر. عشق الإسكندرية وفكر في ضرورة إقامة تجارة عميقة بين مرسيليا والإسكندرية.

أبحر كلود على ظهر مركب كبيرة من مراكبه المتجهة غربًا. أخذ معه تاجرين من كبار التجار في مرسيليا. مركبه أولًا بقيت يومين في ميناء طولون ليأتي معه أيضًا تاجران من كبار تجارها. غرض كلود الثاني أن ينشئ قوة تجارية فرنسية تتاجر مع الإسكندرية وسبتة، وتنافس قوى إيطاليا التي استفادت من الحملات الصليبية أكثر من غيرها فاغتنت كثيرًا. وصل لميناء البندقية ثم جنوة وتبين له عظمتهما. تيقن أن عليه أن يتاجر معهما ويعرف نقاط قواهما، ومنها أبحرت مركبه الكبيرة جنوبًا إلى ميناء دمياط المصري. في دمياط يتابع كلود العاملين. أكثرهم على رؤوسهم غطاء رأس أبيض بحافة دائرة. والأغلب يرتدون سراويل فضفاضة سوداء بحِجر، ونصفهم العلوي قميص أبيض أو ملون. بينهم بعض من يرتدون جلاليب فضفاضة. ما استرعى انتباهه سريعًا، أن الوجوه مبتسمة في أغلبها، والمجاميع وهي تعمل معًا، يكون الغناء الجماعي مرافقًا

لهم. إن دمياط ليست في غِنَى مرسيليا، لكنها تبتسم وتغني أكثر.

في أول فرصة ترك مرافقيه من التجار ينهمكون في الاتفاقات والبيع والشراء، أما هو فقد أخذ معه صبيًا عربيًا ودخل في المدينة. بائعو الخضروات والفاكهة يعلنون عن بضاعتهم بالأغاني! التحيات بين الناس بالابتسامات الواسعة. النسوة ملابسهن سوداء تكشف عن الوجه والأعناق وأعلى الأثداء. بياضهن يقارب بياض نساء مرسيليا. مشيهن دلال وصوتهن نغمات. شاهد بعض البيوت المهدَّمة من وقت حملة الملك لويس التاسع، والتي كان جده الكبير كلود الأول أحد فرسانها. الصبي أخذه لمسجد كان الصليبيون قد حوَّلوه لكنيسة ثم عاد ليكون جامعًا! ما زال الناس يتحاكون عن حملة لويس التاسع والدماء التي سُفِكَتْ. ذهب إلى أماكن صيادي السمك حتى وقف في مكان تتعالى فيه أشجار النخيل. أخذ يتطلع في وجوه الصيادين ليجد شبه ذاك الصياد الإنسان الذي أنقذ جده الكبير كلود الأول. أخرج من جيبه قطعة قماش حريرية أنيقة مرسومًا عليها بالخيوط الملونة قصر العائلة الكبير ذا البرجين المطلين على البحر. سأل عن عائلة ربما تحتفظ بقطعة قماش مثل هذه؟ لم يعرف أحد من الصيّادين شيئًا عما يقوله لهم. حاول وحاول لكن دون جدوى. لم يعرف كلود الثاني أنه واقف في نفس المكان الذي كاد جده الأول أن يغرق فيه، وأنقذه الصيّاد الذي شاهد وجهه كثيرًا وكثيرًا جدًا مرسومًا على لوحته الآن بجوار لوحة جده في القصر!

من دمياط رحل إلى الإسكندرية. من بعيد وقبل أن تصل المركب إلى الإسكندرية، كلود الثاني غاية في الشوق ليرى تلك المدينة الأعجوبة. المركب تقترب سابحة في هدوء. ظهرت أولًا شبه جزيرة فاروس التي تقسم ميناء الإسكندرية لميناءين، على يمينها الميناء الشرقي وعلى يسارها الميناء الغربي. ثم ظهرت أطلال القلعة المملوكية التي بُنيت مكان منارة الإسكندرية العظيمة التي كانت من عجائب الدنيا السبع. ثم أطلال مكتبة الإسكندرية المحترقة بنيران الأسطول الروماني حين هاجم المدينة. حول أطلال المكتبة بيوت واسعة كل منها حوله حديقة غناء. تلك البيوت بينت مكان قصور الملكة الشهيرة كليوباترا وغيرها من الأباطرة البطلميين. هبط كلود الثاني على رصيف الميناء. لا يصدق أنه أخيرًا في الإسكندرية. العاملون في نفس ملابس أهالي دمياط وأيضًا يغنون خلال العمل بإيقاعات تناسب سرعة حركتهم. الخيول والحمير يستغلونها لنقل البضائع من مكان لآخر. استقبله عدد من كبار تجار الإسكندرية. في يومين هو ومن معه اتفقوا مع تجار الإسكندرية على أسس المعاملات التي ستكون. التجار الكبار أغلبهم سكندريون مصريون، لكن من ضمنهم مغاربة وشوام ويهود ويونانيون وأتراك وأرمن، وكل منهم يتكلم لغته الأصلية ومعها العامية المصرية بلكنته الخاصة. والكل في تشبُّع سكندري يفخرون به. وكما تلقى هدايا من كبار التجار، أهداهم كلود العديد

من قوارير النبيذ الفرنسي الرائع. من ضمن أصحاب المراكب والتجار من هم على خلق راقٍ، والبعض مع خلقه الراقي يمتلك حضورًا تناغم من أجل حضور كلود السمين، ومن صاروا أقرب مزاجًا من كلود كان بيانكي، بيانكي البطلمي الأصل، صاحب أكبر وأشهر مزارع العنب والتين الممتدة في غرب المدينة، ومنتج أحلى نبيذ في إسكندرية وعموم مصر. وإن كان أغلب تجار الإسكندرية تغلب عليهم الصراحة والصدق، فإن ثلاثة منهم لا يهمهم سوى جمْع المال، أحدهم أصلًا شيخ تسلل إلى ملاعيب التجارة تحت عباءة الدين! هذا الشيخ لم يعجبه ما قاله كلود السمين بأن يبتعد الشيوخ عن شئون الدنيا حتى تزدهر الإسكندرية، كما أبعد الفرنجة رجال الدين المسيحيين من شئون الدنيا، فصارت حياتهم تتحسن وتتجمل. وكان أثقل التجار ظلًا تاجرًا متخصصًا في العطور، متوسط العمر. أثقل كثيرًا على كلود وبقية تجار فرنسا ليتعاونوا معه في تجارة العطور. لكن العينات التي عرضها ليست بالجودة المطلوبة. مع هؤلاء وغيرهم وجد كلود السمين راحته. تأكد أن دوره في التقارب مع غير المسيحيين لن يكون مع سلاطينهم ولا مع الولاة، بل مع الناس بكل مستوياتهم.

كلود ظن أنه سيبقى في الإسكندرية أسبوعين أو شهرًا على أكثره. لكنه قضى فيها ثلاثة أشهر! الإسكندرية ساحرة. إسكندرية وإن كان تاريخها مهمًا، فأهلها المحبون للحياة أهم. خاصة النساء

المنطلقات بأصواتهن المصهللة وضحكاتهن المجلجلة. الإسكندرية تتطور سريعًا ولن تقل عن مرسيليا، وربما تتفوق لتنوع أجناسها. الإسكندرية لا تكفيه منها أيام قليلة، خاصة أنه سيقع في قصة حب لا على البال ولا على الخاطر.

دلّه بيانكي على أجمل وأفضل بيت يمكن أن يسكنه. البيت أعجب كلود فاستأجره رغم فداحة المبلغ. المبنى رحب وحديقته واسعة على جانب منها حجرات ملاصقة للسور. والسور عالٍ بجانب باب خشبي. درجات سبع للمبنى الرئيسي فباب ثانٍ يقود للداخل. والداخل بهو واسع جدرانه ما زالت تحمل آثار رسومات قديمة ورسمًا للبحر الوسيط يركز على الإسكندرية ومنارتها وأهم قصر بها. وفي وسط البهو أربعة أسرَّة رخامية كانت توضع عليها الحشيات والوسائد الطرية، وتتوسطها بركة صغيرة من المفترض أن تملأ بالمياه. ومن البهو تتفرع الحجرات والممرات، وباب خلفي. البيت يحتل ناصية شارعين من أهم شوارع الإسكندرية. شارعان ما زالا على نفس تخطيطهما الذي تمّ يوم خطط الإسكندر لبناء تلك المدينة التليدة. شارع كانوبي، وهو الأطول يتجه من الغرب للشرق، وشارع من الجنوب للشمال اسمه شارع النبي دانيال، يتقاطع مع كانوبي عند هذا البيت. الشارع في جنوبه جامع من أكبر جوامع الإسكندرية وفي شماله المعبد اليهودي الكبير، وأمام

المعبد في الشارع الموازي له، مبنى الكنيسة المرقصية، وهي من أهم كنائس المسيحيين في الدنيا.

بمعاونة بيانكي ذهب إلى حارة اليهود، حيث يعيش فقراؤهم. أوصل خطابًا إلى عائلة يهودية لها فرع في مرسيليا. وتناول غداءه معهم. فيهم متوسطو الحال، يعملون في تشكيل المصاغ الذهبية والفضية. أغلبهم فقراء. منهم بائعون جائلون، كل صباح يخرجون لشوارع المدينة محمَّلين بكميات من الأقمشة والملابس لبيعها للمارة والجالسين على المقاهي والخمارات.

أيام عشرة وعادت المركب التي أتى بها. عاد عليها جميع التجار الذين رافقوا كلود الثاني وبقيَ هو. وبدأ في التعمق في تلك المدينة التي عشقها. لم يترك فئة ما في الإسكندرية إلا زارها وتفاهم معها على تبادل المنافع التجارية، وأكل من أكلهم وشرب من شربهم وتفكَّه معهم وأحبهم وأحبوه. في شوارع الإسكندرية الرئيسية، أغلب الدكاكين التجارية الكبرى يمتلكها المسيحيون. أما الأشهر والأنجح من تلك الدكاكين فيمتلكها اليهود، والعاملون في هذه المحلات أغلبهم من المسلمين. بعدها رافقه بيانكي في زيارة للجامع الكبير، فكان استقبالهما طيبًا. ثم زيارة للكنيسة المرقصية. رحبوا بهما، وقبل انتهاء الزيارة ألمحوا لكلود أن المحبة السكندرية تتراجع والأمور ساءت عما قبل، حديث متشائم مثل ملابسهم التي

لاحظ كلود أنها سـوداء. ثم زارا المعبد اليهـودي الكبير، فرُحِّب بهما وكان الحوار مترَعًا بالشجن، أعلموا كلود أن الأمور معهم لم تعد طيبة مثلما كانت، السـماحة تقل، وعليه يهاجر من الإسكندرية الكثير من اليهود، فأغلقت بعض المعابد.

بعدها قرر كلود أن يرسم كل الأماكن التي يزورها. تخلف عنه بيانكي ليتابع مزارعه ومعاصِره، وترك كلود يخرج صباحًا على حمار ومعه خادمان، وأوراق وأقلام وألوان ليرسم كل ما يشاهده. فكانت رسوماته بديعة. لم يترك أنقاض المنارة ولا أطلال القصور والمكتبة المحترقة إلا ورسمها. على حماره ذهب لجوانب المدينة. مر من بين ربوتين تطلان على شارع كانوبي الذي يسكن فيه، التي على اليسار كان بها حصن روماني قديم. صعد التي على يمينه. ربوة عالية علم أن بأسفل مسرحًا رومانيًا هائلًا، كانت تشخص فيه مسرحيات سكندرية ويونانية. ومن أعلى هذه الربوة شاهد معالم الإسكندرية بنظرة الطائر. ذهب لبوّابات الإسكندرية القديمة ورسمها. وتوغل في أحيائها ورسم مدافن البطالسة بفتحاتها الغريبة تحت الأرض، وأعلاها عامود روماني أنيق وبجانبه تمثال لأبي الهول. وفي كل جولاته يتعمَّد الكلام مع الناس ليشعر بهم ويشعرون به. يؤكد لهم أنه مسيحي، ويبين لهم حبه لهم أيًّا كان دينهم. ولما عاد له بيانكي، اصطحبه لمكان أعجبه غاية الإعجاب. صحبه إلى حي العوالِم. من هم العوالِم؟ الراقصات والراقصون والمغنيات والمغنون

والعازفات والعازفون الشعبيون. العوالِم هي الفرق التي تحيي أفراح الناس وحفلاتهم ويشبعونهم بهجة وفرحًا ومرحًا، ويضج المكان بموسيقاهم وغنائهم ورقصهم وضحكاتهم.

الوسعاية الشهيرة بوسعاية العوالِم هي صرّة حي العوالم. يتوسطها تمثال رخامي قديم. ومن الوسعاية تنطلق أربعة شوارع أهمها الشارع الذي يصل إلى العامود الروماني. الوسعاية والشوارع الأربعة وما حولها ناسها في انطلاق ومرح وضحك أكثر من كل المناطق التي زارها، أصوات الدفوف وصدح الآلات الوترية والغناء لا يتوقف، وبعض التجمعات التي تعزف وتغني، تجد فتاة أو أكثر منهمكات في الرقص. ولهذا الميدان وبداية الشارع حكاية خاصة سنعود إليها.

تجار الإسكندرية وأغنياؤها وجدوا في كلود الثاني حبًا للموسيقى والرقص. دعوه للسهر معهم في سهراتهم وقالوا إن العوالِم سيحيين السهرات. سعد كلود بتلك السهرات. وفي كل مرة يتشجع بكميات النبيذ والعرقي التي تجرَّعها، فيقوم ويحاول تقليدهن في الرقص فتكون محاولاته جالبة للضحك. كلود رسم الكثير من اللوحات للعوالِم، وركز بالطبع على الراقصات والمغنيات.

كلود حزين أن قصور البطالمة مهدمة. يتعجب من الشوارع العريضة الطويلة. يسير مبهورا حين يكتشف أطلالًا ما زالت مهابتها باقية، وبعض جدرانها في رسوخ ومساحات منها تحتفظ برسوماتها

الملونة. أعمدة قليلة قائمة والكثير تهالك. مسلة ساقطة وقد تحطمت شزرًا مزرًا! بقايا الحمامات العامة الراقية برخامها الأبيض المبهر للأبصار. إن عادت الإسكندرية لزهوتها فستكون خيرًا لكل بلدان البحر الوسيط، كما أثينا اليونانية التي إن عادت فستكون خيرًا أيضًا لكل بلدان البحر.

الأحياء الشعبية ضيقة شوارعها، وبيوتها من طابق واحد والنادر من طابقين. المدينة لا تقل جمالًا وغِنَى عن مرسيليا، لكن أهلها أكثر ابتساما وضحكا وغناءً ورقصًا! بسطاء مسالمون فرحون دائمًا، تقبّلوه وأحبوه في كل مكان ذهب إليه وسمعوا ما يقوله عن مسيحيته وعن المسيح المحب للبشر والمضحي لهم جميعًا. ليلة من ليالي سهراته دخل مع بيانكي خمارة شعبية. شرب البوظة الرخيصة معهم في الأقداح الفخارية. وعرف أنها من القمح والشعير. روّاد الخمارة سألوا كلود عن اسمه وعن بلده. ضحكوا وشربوا معه. طلبوا لهما قدحين بوظة على حسابهم، ثم قدحين. كلود سكر مع هؤلاء البسطاء وغنى معهم ثم رقص.

كلود زار والي الإسكندرية، وأهداه زجاجات نبيذ فاخرة وأقمشة دمقس وحريرًا وبعض الحلي الحريمية. أعجب به الوالي. دعاه لنزهة على ظهر الخيول. سرب من الخيول يتقدمهم الوالي وكلود الثاني.

اتجهوا إلى باب المدينة الشرقي حيث مزارع شاسعة وضريح لا يبعد عن طريق الوالي أكثر من مائة خطوة. الضريح لشيخ شهير اسمه سيدي الزهري. تجمُّعات من بعض المتبرِّكين به والفقراء والمشعوذين والشحاذين حوله. شاهدوا كثرة الخيول فعرفوا أن هذا سرب خيول الوالي. الخائفون انحشروا في بعضهم والتصقوا بسور الضريح يتوقعون من الوالي محنة. والباقي لوَّحوا له مرحبين متعشِّمين في منحة. أمر الوالي بالاتجاه ناحية الضريح. توقفوا والوالي يتمعن في الزحام الغلبان المترقب في توجس. وضع الوالي يده في حزامه وأخرج كيسين، كيسًا فضة وكيسًا ذهبًا. أعاد كيس الذهب. فتح كيس الفضة وأمسكه من قعره وطوَّح بما فيه على الزحام. فانطلقت قطع الفضة تلمع عاليًا ثم تسقط أرضًا أمام المساكين فتكالبوا عليها ليخطفوها من الأرض. من تدافعهم سقط بعضهم على بعض، ولعنوا بعضهم وفرح من التقط قطعة وبكى من فاتته الفرصة. الوالي ضحك بشدّة.

عادت الخيول للطريق وخرجت بركابها من باب شرقي. مزارع رائعة حتى وصلوا في العصاري إلى منطقة أبي قير. رمال صفراء ومستنقعات. جبل متوسط الارتفاع وتعلوه قلعة كوسا. أمام الجبل يمتد خليج أبي قير. عادوا ليلًا واستراحوا في القصر ثم اجتمعوا للعشاء. كلود أحس أنه لا فائدة من التقرب الوجداني والعقلي مع الوالي. الوالي خشن الحس غليظ القلب.

انتقلوا لفسحة أرضيتها بالقيشاني الملون وجدرانها بقيشاني ألوانه مناسبة، وبها نوافذ عالية والسقف عالٍ مزخرف. على جوانب الفسحة اضطجع الوالي ومن معه على وسائد لينة أمامهم أطباق الفاكهة المنوعة. وفي تلك الليلة وفي هذا المكان الرحب، كانت واقعة هزت قلب كلود هزًّا، وحاصرت فؤاده وعصرته عصرًا، فنز عشقًا وولَهًا. ابتدأت السهرة فدخلت راقصة شابة لم تلفت نظره أولًا. لكنها وهي تتجه لتتوسط المكان، وكلما وضُحَتْ أكثر كلما شدّته من أوتار قلبه أكثر. وكأن فتنة شتّى النساء كلهن تركزت فيها. وجهها وعنقها وذراعاها المكشوفان بلون النحاس ولمعته. ولمعان اللؤلؤ في ثغرها المبتسم وليل الدنيا في شعرها المنثور ضفائر رفيعة طويلة وبؤبؤ عينيها الذي يرسل شعاعات مذبذبات ترج القلب وتعصر الأكباد. وقفت وانحنت للوالي الذي ابتسم لها وأعطاها بهز رأسه موافقته أن تبدأ. يتمعَّن فيها كلود الثاني. ترقص ببدايات هادئة على أنغام عود ودفقات دفٍّ واحد صغير. الفتاة ترقص بانسجام بالغ وفتنة سابغة وتشرق على الناظرين. ويشع ومن وجهها الرضا وهي تستعرض فنها. جسدها يغني ويرقص ويبتسم ويشجع بعضه بعضًا، وهي تبتسم راضية برضا الناظرين مستمتعة بتدفق الانسجام منهم. تهتز أوتار المتابعين حين تشرق فخذيها من بين ستائر ملبسها الحريري الذي يستر ولا يستر. تميل هنا وهناك وثدياها متعتان غنجاوتان. تتلاعب مؤخرتها في رقة وبطنها يتماوج في لطف. ربطت الراقصة أعين

وأنفس الناظرين بها، فيتمايلون مع ميلها ويتأوهون حين تفاجئهم بهزّة حُسْنٍ من حسناتها البدنية. تلاعبهم وهي تعطي ولا تعطي، ثم تعطي ناثرة عطايا جمال فيسعدون بها. تبتسم حقًا وقد تملكتهم وتملكوها فصارت هي والجمع المشاهد واحدًا وإن تعددوا.

كلود السمين وقد شرب الكثير من الخمور وملأ بطنه بفاخر الطعام الشرقي السمين، وتلاقت نظراته مع نظرات عيني الراقصة أكثر من مرّة، وهي ترقص رقصها الهائم، فكاد يقوم ليرقص معها، نظر للحاكم ليطالبه بأن يقربه من تلك الفتنة الشابة التي ترقص، فوجد الوالي نفسه وقد سُحِرَ بها! نظر لمن حوله من حاشية الوالي، نفس الشيء! حتى الحراس الممسكين برماحهم مالت أذرعهم بالحراب للأمام والخلف!

– يا ربنا. كم هي قدرتك على خلق كل هذا الجمال؟

هكذا صاح كلود بصوت مرتفع بفرنسيته الرقيقة فانتبه له الوالي وغيره وابتسموا. كلود حين انتبه له الوالي، عاد عقله لرأسه. خشي إن هو تهور في شيء فربما يغضب الوالي. كتم كلود في صدره العشق الذي انفجر في قلبه تجاه هذه الراقصة الشابة المتفجرة. صفق لها بحماس مثله مثل غيره وتابعها وهي تنسحب خلف صاحب العود وصاحب الدف الصغير. ولم ينم كلود ليلتها. يا لها من فتاة غريبة؟ الفتاة النحاسية إن حاول وضعها في قالب جمال معين في ذهنه أو

كل ما في ذهن الناس، لما تطابقت مع أي قالب من القوالب الجمالية النسائية. إن حاول تفصيص ملامح وجهها ملمحًا ملمحًا، لما وجد في ملمح واحد ما يقال عنه رائع الجمال. ففمها أوسع من المعتاد وأنفها أكبر من المعتاد، وعيناها أصغر من المعتاد! بل إن رقبتها أعرض من المعتاد وثدياها أثقل مما ينبغي! شعرها أميل للخشونة. فما تلك الطاقة الأنثوية التي تنطلق منها وتصيب الذكور في قلبهم وذكورتهم؟! ما هي؟

حين حكي لمن صادقوه أنه يريد معرفة تلك الفتاة ومجالستها ومشاهدة رقصها مرة أخرى، يقابله كل منهم بجملة استهجان من كلمتين بهما مسحتان من الخوف والريبة:

– من؟ بسبوسة؟

ثم يتهربون منه. عندما يكثر من السؤال.. لماذا؟ لا يقولون لماذا؟ من كل استفساراته لم يعلم شيئًا سوى أن اسم الراقصة المبهجة هو بسبوسة. بيانكي قال إنه لا يعلم عنها شيئًا. طلب حضور تاجر العطور اللحوح، فأتاه مسرعًا. وعده بشراء مجموعة عطور منه، فرح اللحوح وأخذ كلود بالأحضان. وعندما طلب منه كلود أن يجد عنوان الراقصة التي اسمها بسبوسة. فزع اللحوح. سأله كلود لماذا هذا الفزع، ولماذا يتهرب منه كل من يسأله عن بسبوسة؟ نظر اللحوح هنا وهناك واطمأن ألا أحد حولهما. مال

على أذن كلود وهمس له:

– إنها عشيقة الوالي.

بهت كلود. فترة هو صامت واللحوح ينظر إليه متعجبًا. ثم عاد كلود مصرًا على أن يحاول اللحوح أن يجد طريقة يقابل بها بسبوسة. هز اللحوح رأسه يمنة ويسرة رافضًا وقبل أن يتركه ويبتعد قال:

– انس يا كلود.

ليالٍ وصباحات تمر عليه وكلود لا ينسى بسبوسة. يعرف أن بسبوسة اسم حلوى شرقية ذاقها من قبل. لكنه من هذا اليوم صار يأكل البسبوسة ليل نهار. يواصل عمله، يواصل زيارة أماكن الإسكندرية يرسمها. وفي الليل قبل أن ينام يرسم بسبوسة وهي ترقص، وهي تنظر إليه بعينيها السوداوين اللتين ألهبتاه تمامًا. عشقها! عشقها! نعم عشقها! يسائل نفسه:

– أهذا هو العشق؟! حقًا. أهذا هو العشق؟ أيها العشق، يا لك من أخرق غبي حاد لين متعدٍ مسالم طيب شقي ملعون مبارك!

لن يغادر الإسكندرية إلا بعد أن ينال سهرات معها، وإن أمكن اكتشاف أغوارها سيكون من المحظوظين. لم يسأل عنها التجار مرة أخرى. سأل الخدم. منهم من لم يسمع عنها، ومنهم من سمع بعض الشائعات عنها وعن الوالي فامتنع عن الرد.

صباح يوم. كلود مضطجع على حاشية لينة يشرب قهوته قبل الخروج. طارق على الباب. أدخلوه. شاب أسود مبتسم. قال:

– أنت كلود الأشقر؟

– نعم.

– وعينك "زرقة؟".

– شوف كويس في عيني تشوفها أزرق والّا أحمر.

– أحمر تكون شيطانًا. أنت مش شيطان. أنت أشقر ولون عينك أزرق.

اقترب الأسود من كلود ومال برأسه حتى صار وجهه مواجهًا لرأس كلود، قال:

– اليوم في المغرب. تيجي وسعاية العوالِم. أنا هناك. أروح بيك عند بسبوسة.

فزّ كلود من جلسته.

– إيه؟ عند بسبوسة؟

– أي نعم عند بسبوسة. غريبة يا أشقر؟

– مفاجأة!

– مفاجأة؟ أنا عندها كل يوم. غريبة دي كمان؟

– لكن، وحدي لا أستطيع الوصول إلى وسعاية العوالِم؟

– نهايته. آجي لك أنا. شوف، عندك حمار؟

– عندي.

– آجي بحماري وأخدك بحمارك. اتفقنا؟

– اتفقنا يا وجه الفرح.

– إيه؟ وعرفت كيف إن اسمي فرح؟

كلود في فرح من وقت أن جاءه فرح. يشرب فناجيل من القهوة ويتناول قطعتين من البسبوسة وهذا كل مأكله، ثم كؤوسًا من الينسون ليهدأ. تَجَهّز بأحلى ملابسه من الظهيرة. ينتظر فرح. وفي بداية العصر جاء فرح. ذهب معه. اقتربا من الوسعاية. أصوات الموسيقى والغناء تملؤ الجو. على حماريهما يمران بجوار المنصة الواطئة التي ينتصب في منتصفها التمثال الذي شاهده من قبل ولم يهتم به. توقف فرح، وطلب من كلود أن ينتظره هنا ولا يهبط من ظهر حماره. أسرع فرح على حماره تاركًا كلود في حيرة وتشوق. حول الوسعاية بيوت لا هي واسعة ولا هي ضيقة. أمام كل بيت دكك يجلس عليها مجموعة من الرجال والنساء. الرجال أغلبهم بنفس ملابس الصيادين، سروال تحتي واسع أسود أو أبيض اللون

والأحزمة ملونة، وأعلاه قميص بأكمام مشمّرة، والطواقي البيضاء ذات الحواف الدائرية. النساء بملابس ملونة خفيفة عارية الذراعين والشعر منطلق. منهم ومنهن من يدخنون النارجيلة. كل مجموعة تعزف وتغني وتعيد وتزيد في كلمات معينة وكأنهم يتدربون. بعض التجمعات الغنائية وسطها فتاة ترقص الرقص الشرقي الناعم وتتلاعب بوسطها فتحدث تموجات من مؤخرتها واضطرابات من ثدييها. يبتسم كلود السمين وهو يتابع راقصة جميلة ويقول بصوت خفيض مخاطبًا المجاميع التي تعزف وتغني وترقص:

– أنتم شعب مُحب للحياة، كيف ولستم أغنى الشعوب؟

أبعد كلود نظره عنهم. يتمعَّن كلود في التمثال. رخامي بطلمي قديم لشابة عارية مخروطية الجسد، تلف فخذًا على فخذ، وتداري موضعها بكف يد، واليد الأخرى مكسورة من الكوع. أطفال حفاة بجلاليب أتوا للعب في الوسعاية، وبعضهم التف حول التمثال. شاهدوه فاقتربوا منه ينظرون إليه مبتسمين. ابتسم لهم. وقبل أن يحاوروه أتى فرح على حماره من بعيد، وأشار إليه. أسرع إليه كلود. على حماريهما سارا ودخلا شارعًا من شارع ثم وصلا بيتًا أوسع من غيره. ترجلا. دخل فرح وخلفه كلود. بسبوسة أمامه تستقبله مبتسمة. آآآه يا لون القمح الجميل. يا لجمال عينين سوداوين مزججتين مكحلتين. يا لجدائل شعرك وضفائره الرفيعة اللامعة.

ضحكت بسبوسة وهي ترى عينيه تجولان في وجهها حتى أنفها القوي وفمها الذي كاد يتسع. ثم هبطتا إلى عنقها ثم لربوتي ثدييها. ضحكت وهي تراه هائمًا. فَرّجَّتْهُ ابتسامتها. قال:

– بسبوسة؟

– أَيْوَة بسبوسة.

– Tres jolly.

– يعني؟

– جميلة جدًا.

– صحيح؟

– جدًا.

– وأنت برضه جدًا.

– جدًا إيه؟

– جدًا جميل.

سهر ليلته معها. عرف أنها خلال رقصتها في قصر الوالي، لفت نظرها بلونه الأشقر خاصة. وأنها بحثت عنه وعرفت أين يقيم فأرسلت له. أكدت له أنها عشيقة جسد من ضمن عشيقات الوالي، ينال جسدها كل شهرين أو ثلاثة، ولا يهتم بغير متعة الجسد. ورغم

كرهها له وقرفها من مضاجعته، فإنها لا تستطيع أن ترفضه. فالوالي يستطيع أذية أي من المقيمين في الإسكندرية مهما كان شأنه. ولا تستطيع أن تكون على علاقة مستمرة علنية مع غيره. تتكلم ببساطة دون لف ودوران. كلود سَكِر من جاذبيتها، وبسبوسة تخدَّرت من سحره. لم تهمها سمنته الزائدة. وحين أعدت النارجيلة لتدخن، شاركها التدخين. ولم يمانع حين وضعت بسبوسة قطعة من الحشيش فوق النار، فدخَّنها معها وانسطلا معًا وضحك ليلتها ضحكًا لم يضحكه في حياته.

اتفقت معه أن مقابلتهما بعد ذلك ستكون في بيتها المتطرف خلف سوق الصيادين، بيت يطل على شاطئ صخري والبحر مفتوح أمامه، المكان هادئ ليس فيه سوى عدد بسيط من البيوت المتباعدة عن بعضها، فتكون الخصوصية مضمونة في كل بيت، ولا يتطفل عليه متطفل. تشرح بسبوسة، رغم أن المدينة متسامحة منطلقة، فإن بعض الشيوخ المتزمتين يلوثون العقول ويخنقون الضمائر، ولهم بعض الأشياع. هؤلاء الشيوخ لا يقبلون صداقة مسلمة لمسلم! فما يكون فعلهم إن علموا بعشق مسلمة لنصراني؟ سيؤلبون الناس ضدهما وسيضرونهما ضررًا بليغًا. قال كلود.. لولا المتزمتون فينا، لكانت حياتنا جميعًا سعيدة مبهجة.

كلود عليه ألا يتوقع رؤية بسبوسة كل ليلة، بل حين تجد الفرصة

سترسل له فرح ليبلغه. فهي ترقص في بعض أفراح وحفلات عليّة القوم، وبما تتقاضاه تعيش. وعلى كلود ألا يبلغ أي أحد بعلاقته بها ولا بالمكان الذي يلتقيان فيه، فهذا هو سرهما الخاص.

ليلتان ولم يأته فرح. وفي الثالثة جاءه فرح ففرح كلود. الحماران ينطلقان بهما. فرح يتقدم على ظهر حماره، فهو الأهم من وجهة نظره. ومهما يتحدث معه كلود ليعرف بعض المعلومات، فلا يجد سوى المراوغة وقلة الحديث مع الاعتزاز بالنفس بطريقة مبالغ فيها. يضحك كلود ولا يملك سوى حب هذا الخادم المترفع.

مرًّا وسط عدد بسيط من دكاكين بيع السمك. الدكاكين مغلقة، تعمل نهارًا فقط. البيت وسط بيوت متناثرة على لسان عريض متوغل في البحر. مشهور باسم الطابية، فقد كان معسكرًا لجنود القلعة. من نافذتين يمكنهما رؤية البحر بجماله وسحره وعمقه وغموضه. على يمين اللسان أطلال قليلة من منارة الإسكندرية التي انهارت في زلزال فظيع. وعلى يساره بمسافة بعيدة لسان ثانٍ مقيم عليه معسكر جنود. المكان هنا هادئ وكل البيوت ليست بيوت سكن عائلي لشاغليها. بل بيوت للترويح عن النفس بناها من هم على غنى زائد.

تلك كانت الليلة الأولى التي يدخلها وتدخله. يراها من حشاها وتراه من حشاه. ليلة ليلاء مخملية صهباء. عطاءات متبادلة ونشوات عارمة وحكيّ بالجسد واستمتاع بالخلايا. عدّة ليالٍ متنوعات في

ألوان العشق والفهم. تدخين النارجيلة والحشيش. مرات ذهبا ليلًا وسبحا معا عرايا في بحر الإسكندرية. قبل وصول الضوء تمامًا، جلسا على صخرة. جذعها في حضنه شعرها الكثيف تحت ذقنه. البحر أمامهما ممتد في غبش غامض. يلاحظان أن الدرافيل تقترب وتبتعد. يلاحظ هو دوّامات غريبة لم تفهمها بسبوسة، أما هو فيعلم أنها حوريات البحر اللاتي أتين لتعلمنه أنهن متابعات له ولحبه.

ليالٍ مرت وهو يرسمها في أكثر من موضع وأكثر من وضع. طلبت منه أن يرسم نفسه. فرسم بالقلم الفحمي رسمًا سريعًا لوجهه. وفي ليلة سألها عن غرامها بالرقص وكيف ترقص بكل هذه السلاسة؟ قالت:

– نَفْسي كلها في جسدي كله. تفرح نَفْسي، تعبر عن نفسها بالرقص. تحزن نفسي، تعبر عن حزنها رقصًا. تحتار نفسي فترقص حيرة. أنام في أحضان من أحب، حضني رقص. أفهم نفسي بالرقص. أشرح لنفسي بالرقص. أنا رَقص. يا كلود الأشقر.. هل أنا غلطانة؟

– أبدًا. أنتِ فِكْر الرقص وروْحه يا بسبوسة.

في أحضان بعضهما كلود يصغي بانتباه وبسبوسة تتكلم متعجبة: لماذا يا كلود لا يعشق الناس أجسادهم بما فيه الكفاية؟ لماذا لا يقدّرون مواضعهم الحميمية كما ينبغي؟ تعرف يا كلود، وأنت تقبّل

خدّي. شفتي. عنقي. بطني نهدي أذرعي فخذي وما بينهما. أتأكد أن كل هذه الأماكن منحة من اللـه وهبني إياها لأستمتع وأُمتِّع. لأفعل خيرًا ولا أؤذي بهم بشرًا. أليس كذلك يا كلود؟

لم تكن لياليه مع بسبوسة كلها سلسلة حلوة كما طعم حلوى البسبوسة. بسبوسة تغار على كلود السمين، فهو الأشقر ذو العينين الزرقاوين اللتين تسحران إناث الشرق. تحاكمه في ليالٍ، وتؤكد أنها تعلم أنه ضاجع غيرها! ينفي ويؤكد النفي، لكن بسبوسة تتمادى حتى يصاب كلود بالحزن والضيق، وهنا تصالحه بسبوسة برقصة أرق وأنعم من المعتاد، وتستكمل مصالحتها بمضاجعة عميقة. لم يفهم كلود السمين لماذا تفعل بسبوسة هذا كل بضع ليالٍ. حاول أن يفهم، ففهم أن بسبوسة نفسها لا تفهم لماذا تفعل ذلك. هذه متعة نسائية فيها.

ليالي أخذ يشرح لها ببساطة فترات من ماضي الإسكندرية وهي تستمع مبهورة، فهي لا تقرأ ولا تكتب. ليلة يحكي لها عن عصر الشهداء، وما فعله الإمبراطور الروماني الوثني بالمسيحيين في الإسكندرية، وكيف كان يعذبهم ويقتلهم والمسيحيون متمسكون بالمسيح. وليلة أخذت منهما حكاية كليوباترا أغلب وقتهما. تستمع بسبوسة لكلود وهو يحكي صبوات حب كليوباترا مع القائدين العظيمين يوليوس قيصر ومارك أنتوني. وليلة حكى لها حكاية هيباثيا، الفليسوفة الجميلة،

وكيف لم يفهمها العامة الذين أعطوا آذانهم للقسس المتطرفين فقتلوا هيباتيا شر قتلة. فما كان من بسبوسة إلا أنها انخرطت في البكاء.

ورغم خشية تصاعد موجة الشيوخ المتزمتين، خاصة مجموعة هزيلة من الشباب ترفع رايات سوداء، فالإسكندرية تعزف وترقص وتغني. أخذت بسبوسة كلود إلى حفل بالغ السخونة يسمى حفل الرانجو. حيث الفرقة التي تحييها كلها سود غطيس. أصولهم من الجنوب الأفريقي. ضربات طبولهم هادرة وقيثارتهم سريعة لاذعة. ورقصهم قوي عفيّ من قرار النفس والجسد، وغناؤهم يتنقل ما بين النسيم والهدير. وهمهمات عفية مع تأثير الخمر القوية الثقيلة، والعرق الذي انبعث من أجساد الراقصين أثقل. البخور المتنوع وبَخْر النفوس المُتْرَعّة بالتَعَب اللذيذ والمتخمة بنسغ الحياة والمُصِرّة على البهجة، اشتعل المكان الراقص المُغَنّي بالحيوية الجمعية. ومع توالي الرقص تفقد امرأة وعيها فيرفعونها جانبًا ويرشون المياه الباردة على وجهها وعنقها. ثم يفقد رجل وعيه ثم امرأة... إلخ. يتلاحم راقص وراقصة فيحتضنان بعضهما بعضًا بحميمية وشبق فيبلغان ذروة المضاجعة من دون أن يتضاجعا. رقص كلود مع بسبوسة ومع غيرها من النساء، وراقصته هي وراقصت غيره. كلود رقص رقصًا بشريًا هادرًا كما لم يرقص من قبل، ولما بلغ قمة فورته ولم تعد هناك قمة أعلى سوى الإغماء، صاح:

– يا لخلايا النفس المنتفضة. آآآآآ.

صيحة كلود بالفرنسية فلم يفهمه أحد، لكن الكل أحس به وفهمه فصاحوا يجاوبونه:

– آآآآآ.

وبعدما يطلق كل منهم الـ آآآآآ. ينطق بلغته ما يتفجر في نفسه. أو يدمدم كالطبول أو يترنم كالقيثارات أو يضحك ضحك القرود أو يطلق صيحات الضباع. أو يشهق أو يصمت، يبكي أو يمتلئ مهبل المرأة بمياه ذروتها فتسيح متراخية أو يقذف الرجل بمنيه وهو يتشنج. أو تعلو ويعلو فيغمَى عليهما. فهنا عين البركان الإنساني. هنا آلام وآمال البشر.

مر شهران لا يعلم بلقاءاتهما وعشقهما أحد غير فرح، خادم بسبوسة. أوحشته زوجته وولداه. أوحشته مرسيليا.. بحرها وخليجها ومراكبها وناسها وأسقف بيوتها القرميدية الحمراء. أتت مركب كلود مرة ثانية وذهبت دونه! كلود قرأ خطاب زوجته كارين المتشوّقة له والقلقة عليه، والتي ألمحت فيها أنها تعرف أمرًا لم يعد مخفيًا. احتضن الخطاب متأثرًا، يحب زوجته. يحب كارين ويعز عليه أن يتسبب في إيلامها، لكنه مُجْبَرٌ على البقاء في الإسكندرية. مُجْبَرٌ بأمر العشق ليس إلا. لن يطيق البعد عن بسبوسة. يحب كارين ويعشق بسبوسة. كارين تعطيه العائلة والأولاد وتعمل على راحته قدر

استطاعتها، وهي زوجته أمام اللـه. لكن ماذا يفعل في أمر العشق؟ وهل الوقوع في العشق ينتج من تفكير أو ينشأ من تدبير؟ أللعاشق ذنب في عشقه أو له في أمر نفسه شيئًا؟ ماذا يفعل الذي في العشق هَوَى في هَوَى ليس له دوا؟

الصيف يرحل والخريف يحل. وخريف الإسكندرية راضٍ مُرْضٍ لطيف المناخ لذيذ الفاكهة طيب خُضرته. وبدأ الرجال يرتدون الصديري فوق قمصانهم. كلود وبسبوسة أخذا فرصتهما تمامًا ليتوغلا معًا ويزدادان عشقًا لبعضهما، فلن ينسى أحدهما الآخر حتى آخر يوم في عمره. في لياليهما المبهجة كل منهما يحاول أن يتناسى أن كل بداية ولها نهاية، وأن الحلو لا يدوم وإن تمنيا ذلك. الليالي حلوة سُكرية مُسكرة تساعد على إسدال ستائر الغفلة، لكن وآهٍ من لكن، التي تأتي رغمًا عن أنف المغرمين. لكن كلود له عائلته وأعماله في مكان آخر. كلود له مرسيليا وهي أصله، وبسبوسة عائلتها وعملها هنا في الإسكندرية، فالفراق حتمي والألم مكتوب جبرًا عليهما. كلود يعرف ذلك ويتوقع الألم، لكن ألمه بسيط كأنه خيال بجوار آلام بسبوسة. فالعشق في النساء أعمق وأعرض وأحر. زلزال الفراق عندهن لا يقدره الرجال. في الليالي الأخيرة كانت بسبوسة تبكي بكاءً مرًا. لم تعرف رجلًا بمثل هذه الرقة وبمثل هذا الفهم ولا بمثل هذا العطاء. رجلًا أحس بها من دواخلها الطيبة، والتي تحتاج لمن يربت عليها برقة ويُلَمِّس على شعرها ويُقَبِّلْ شعورها. قبل أن يحس

بها من خارجها الفاتن ويلاحظ جدائل شعرها الغجري.

الليلة الأخيرة لهما، أمواج البحر القريبة عَلَتْ واشتد هديرها قليلًا. بكت بسبوسة بكاءً مرًا، وبكى هو معها وأكد لها صادقًا أنه سيعود لها، ولن يستغني عنها أبدًا. قضيا ليلة كانت حزنها أكثر وأعمق كثيرًا من متعة تلاقي جسديهما، بل إن بسبوسة وهي في قمة متعتها معه بكت بكاءً ثم أغشي عليها. وتركها كلود في الفجر. أمطار بسيطة تسقط وتبلله وتسيل على خديه مع دموعه. حماره يسرع به وهو يحثُه على الإسراع أكثر. لماذا؟ لا يعرف. ربما لا يريد أن ينظر خلفه فيجد بسبوسة على باب البيت تتابعه ببكائها المستمر، فلن يتحمَّل قلبه أكثر مما يتحمله.

عاد كلود إلى مرسيليا وهو لا يعلم أن بسبوسة حامل منه، لم ترد أن تبلغه فتربك حياته، وهو متزوج وله طفلان. كتمت حَبَلها ولهفتها أن تبلغه بأنه أبو الجنين الذي في رحمها. لم يعلم أنها هجرت الرقص رغمًا عنها، فلم تعد ترقص بمزاج واستغراق كما كانت. بقيت هكذا معتمدة على ما جمعته من مال، بقيت في مسكنها في حي العوالِم، وأجرَّت سكنها الذي عشقت فيه كلود السمين ليساعدها إيجار بيت العشق في تربية ابنتها التي أنجبتها من عشيقها كلود السمين. أنجبت فتاة شقراء زرقاء العينين. تسببت شقرة الفتاة وزرقة عينيها في الكثير من التقوُّلات. ربط البعض

بين الفتاة وبين كلود السمين! أكلّ ما كان يفعلانه من تخفٍّ لم يكن كافيًا؟ لكن بسبوسة سعيدة سعادة هائلة بأن ابنتها صورة أنثوية من أبيها. أطلقت عليها اسمًا لم يستمر، الاسم الذي اختاره سكان حي العوالم هو الذي رسخ واستمر. أطلقوا عليها اسم فَرَنْجَة، اسم مشتق من الإفرنج الذي منهم من أنجبها. فَرَنْجَة كلما كبرت كلما افتخرت بجمالها النادر وسط الأغلبية القمحية اللون. بسبوسة زاهدة في الدنيا من بعد عشقها الكبير العظيم العميق لكلود. عشقها تحول لابنتها فصبَّت فيها عشق الأم لابنتها مع عشق المرأة لحبيبها الغائب. وكلما اشتاق جسدها للرقص ترقص لنفسها على موسيقى تحسها من دواخلها، ولما كبرت وحيدتها كانت تشاركها في الرقص، ثم أبدعت فَرَنْجَة الرقص مع أمها التي تشيخ بسرعة ثم أتاها المرض. وكلما تعافت قليلا تصر على الرقص مع ابنتها. وكلما حاولت الابنة منع أمها من الرقص وهي المريضة، تقول بسبوسة:

– الجسم اللي ما يرقص، جسم ميت.

وفي ليلة وهي ترقص رقصة هادئة مع وحيدتها فَرَنْجَة، مالت على ابنتها وماتت على كتفها.

كان كلود على ظهر المركب التي تقترب من مرسيليا. يبكي. دمعات فرحات برؤيته لمعالم مدينته مرسيليا التي يقترب منها. ودمعات لوْعة واشتياق لمدينة عشقه حيث ترك بسبوسته. عاد

كلود السمين إلى مرسيليا، يطمئن قلبه ويؤكد له كما أكد لبسبوسة أنه سيعود بمجرد أن يرتب أعماله ويعطي عائلة فيكتور حقها. في مرسيليا صار ممزق القلب حائر النفس، فاعتل واختل ما بين هذه وتلك، وكلاهما غالٍ عليه مزلزل له. وفي ليلة وهو في فراشه وبجانبه كارين، عصره حنينه لبسبوسة فغلبته دموعه. كارين تربت على ظهره لتهدِّئه. تحس به وتعذره. نظر إليها نظره تحوي بحورًا من الحنان وأنهارًا من العرفان. قال لها صادقًا:

– أقول لك قولا يشابه ما قاله محب ليسوع وللإنسان: ماذا ينفع كلود إذا ربح استحسان العالم، وخسر استحسان كارين؟

عاد كلود الثاني فكان أكثر قربًا لمُسَمَّى كلود السمين. زاد وزنه كثيرًا خداه امتلآ وتهدلا. صار ثقيل المؤخرة وافر البطن. غرق أكثر في عشق الطعام والشراب وتدخين النارجيلة سواء دون حشيش أو بالحشيش في أمسيات الضجر، وفي نفس الوقت استغرق في كتابة مذكراته وتحليلاته الفكرية الإنسانية. وإن كان يترك لدموعه العنان حين يكون وحده. توقف كثيرًا أمام أردية الفرسان السبعة عشر المنتصبين بسيوفهم ورماحهم. وقف أمام لوحة الصياد والمكتوب تحتها "إنسان" كم يحب هذا الوجه المُسالم. أعدّ جلسات حوار مع أهم العقول بمرسيليا، وكان منهم يهودي وعربي، فكلهم مرسيليون. وفي إحدى الجلسات اقترح كلود السمين أن يبتكروا نواة لجماعة

تُسمى جماعة المعرفة والسلام. على أن ينضم لها أهم عقول فرنسا ثم أوربا. وبدأوا في كتابة أهم أسس تلك الجماعة والاتصال بمن اختاروهم. ومن أهم ما فكروا فيه كتابة كتاب موسوعي يبعد الجهل الجاثم على كل جانب من جانبي البحر الوسيط تجاه الجانب الآخر، وأن عليهم الفخر بالإسكندرية في عصرها الذهبي التنويري، وأن وجودها كان خيرًا لكل بلدان البحر الوسيط، مثلها مثل أثينا اليونانية، وأن عليهم تشجيع بزوغ مدن مثلهما في بقية أوربا، وأن يستعينوا بثلاثة فلاسفة كمرشدين لجماعتهم، ابن رشد نصير العقل، والراهب الكاتب رابيليه الذي قال إن الإيمان هو فطرة الإنسان المحبة للحرية والتسامح، وأن ملكوت اللـه ليس في السماء فقط، بل وفي صميم تكوين الإنسان. والفيلسوف الطبيب موسى بن ميمون، الذي عاش وسط المسلمين وتأثر بفكرهم. والفلاسفة الثلاثة نماذج لعصر الرشد الذي يعتمد على العقل ويحوي الحب والرحمة على جميع البشر أيا كان دينهم.

مر عام وفي العام الذي يليه رتب عودته لبسبوسة، لكن العمر لم يمهله. حتى مذكراته وأفكاره لم يستطع أن يستكملها، وإن كان قد ترك ما لا يقل عن مائتي صفحة بها من الفكر أكثر مما بها من الأحداث. ومن العناوين الفرعية لمذكراته.. يا لجمال المعرفة. ويا لجمال التنوع الإنساني. وأحلى صفحات كتبها كانت عن الإسكندرية وفلسفتها وفكرها وفنها وتجميعها الفذ للكتب، وكيف أن

من ضمن أفضالها تجميع التوراة وأعظم ملاحم البشر وهما الإلياذة والأوديسة. الإسكندرية وتألقها وتطلُّعها لتعود لعصرها الذهبي. وبين عشق أهلها للموسيقى والغناء والرقص والضحك والمتع كلها، وفي نفس الوقت عشقهم للعمل الجاد، ورصد بدايات التعصب التي تشتعل وتهدد كل ما في المدينة من جمال. وأنهى كتاباته عن الإسكندرية بتساؤل: لو تدرون كم نحتاج للإسكندرية؟ ولم يهمه أن تقرأ حبيبته زوجته عن عشيقته، فهي شاهدت اللوحات التي رسمها للإسكندرية، واستوصى كثيرًا برسم بسبوسة وهي ترقص وهي تضحك، وهي جادة وهي تدعي العبوس وهي مستلقية وهي بأخف الملابس وهي من دون ملابس... إلخ. والذي آلمها وطعن أنوثتها أكثر، جملة يقول فيها (أهناك ألذ من مضاجعة العاشقين؟) آلمتها هذه الجملة ألمًا عميقًا. طعنتها في أنوثتها وزلزلت كينونتها كزوجة شرعية لكلود وأم ولديه. لكن.. هذا ما حدث، وكل ما حدث كان بأمر قلبه وليس أمر عقله.

يتهالك كلود الثاني من ملء معدته بأطيب الطعام وتجرع أفخر أنواع النبيذ. يتهالك من آلام النفس الممزَّقة. متعته الأساسية وجوده مع كارين وابنيه ومداعبة كلب لطيف أهدته كارين له، ثم ساعات القراءة وذكرياته مع بسبوسة. يومًا وزوجته الحبيبة كارين تلومه على شراهته في الطعام والشراب، ابتسم لها ولم يجب على لومها. قال:

– يا كارين يا طيّبة، قرأت آلاف الكتب، وفاتني ألوف ألوف الكتب. عرفت ضروبًا من العلم وضروبًا من المعارف، وجهلت ألوف الألوف. يا كارين يا طيبة، لتَعْلمي وتُعْلِمي أبناءنا أن علمًا ومعارف بلا ضمير هما هلاك للروح. فالعلم والمعارف إن لم يضيئا أرواحنا من الداخل، إن لم يجعلانا أفضل مما كنا عليه سابقا فلا معنى لهما. إذا لم يجعلنا العلم والمعارف إنسانيين وأخلاقيين وطيبين أكثر ومحبين للخير فما نفعهما وما جدواهما؟ يا كارين يا طيبة. زوجك السمين عرف الكثير عن شعوبنا في أوربا، وعرف القليل عن شعوبنا في جنوب البحر، وأحب الإسكندرية وأحب أهلها ولم ينل فرصة التعمق في تاريخها وعجائبها. كلود الثاني لم يستكمل بناء جماعة المعرفة والسلام. يا إلهي. كم أحببت يسوع وعرفت الكثير من المسيحية. وعرفت يا كارين يا طيبة بعضًا من الإسلام والقليل من اليهودية. وحتى الآن لم أقرأ عن الصين والهند وما حولهما؟ لم أقترب من البوذية والهندوسية ولا أديان الشعوب السوداء.. آآآآه، يا لي من ناقص غير مكتمل.

تيَّقنت كارين أن زوجها قاربت أيامه على النهاية. قرأت من قبل ما كتبه عن بسبوسة، وتعرف حكايته معها. تألمت فعلًا لكن هي على يقين أن كلود الثاني يحبها هي الأخرى، ولا يستغني عنها ولا عن ولديهما، وإلا ما عاد من الإسكندرية.

كارين تعرف أن ما يكوي كلود أكثر من نقص المعرفة، هو شوْقه لمن عشقها في الجانب الآخر من البحر. ولم تلمه كارين على عشقه لامرأة الإسكندرية، فهي تحس وتفهم زوجها المحب للحياة وملذات الحياة، ويكره كل ما هو شر، كل ما هو قبيح. سألته مرة بمكر وغِيرة أنثوية، وقد تمعَّنت كثيرًا في الرسومات التي رسمها لعشيقته السكندرية:

– لكنها يا كلود ليست جميلة جمالًا هائلًا!

فقال لها:

– تنويعات الجمال ليست محدودة، هو والعشق ما نستحسنه، فيعشق القلب من كانت الأجمل أو الأوفر في مواضع الأنوثة. العشق سببه اختيار القلب. والقلب لا يُسأل عن سبب اختياره، لأنه لن يستطيع الإجابة. العشق يا كارين سر من أسرار الخالق.

وفي ليلة شتاء باردة، أصر على تناول طعامه على سطح القصر. أعدوا له منضده بين البرجين ومقعدًا وثيرًا يتحمَّل ضخامة كرشه ومؤخرته. ارتدى ملابس ثقيلة وعلى رأسه غطاء فرو. اقترب من سور السطح ونظر إلى البحر الأزرق وأمواجه المتوالية والخليج المزدحم بالمراكب. نظر لمدينته الحبيبة. الكنيسة على ربوتها العالية السامية، حصني سان جان وفورت سان. قلعة ديف. أسطح البيوت ذات القرميد الأحمر الناصع. ابتسم راضيًا. جلس فوضعوا أمامه

الطعام ووقف الخدم على مقربة منتظرين أي أمر منه. كلبه القصير رغم فروه الكثيف أحس بالبرد. وثب على بطن كلود واستقر عليه. كلود يربت عليه ليدفئه. انهمك كلود السمين في تناول طعامه. يأكل بشراهة ويتجرَّع النبيذ. ثم يناول الكلب قطعة صغيرة من اللحم. على يمينه وقفت خادمة تقرأ له بالفرنسية صفحات من فكر جاليليو، وتأكيده أن الأرض هي التي تدور حول الشمس. وعلى يساره خادم حين يقرأ بالعربية من كتاب مهم للفيلسوف ابن رشد يؤكد على أهمية العقل. الهواء شديد البرودة. كلود الثاني لا يأبه بالبرد. يقول لنفسه:

– كم سأشتاق للغوص في المعرفة. يا يسوع. كم أشتاق لبسبوسة، كم أشتاق لتلك الأنثى الإنسانة التي عشقتها عشقًا مهولًا، وعشقتني عشقًا مهولًا؟ إن سألتني يا رب ماذا أريد؟ سأقول المزيد من المحبة والمزيد من الغفران، المزيد من المعرفة من لدنك يا منبع العلم والحق والجمال.

مستمر في تناول الطعام والشراب والاستماع للخادمتين اللتين تقرآن في وقت واحد، وهو مستمتع بالسماع الغريب ولا يهمه عدم التركيز. يمسح أصابع يمناه في المنشفة التي على صدره. وأشار للخادمتين أن تتوقفا. ابتسم وقال هامسًا:

– آآه. اقتربت ساعتي، يا رب اغفر لي ولجدي الكبير كلود

الأول، فقد ندم على سنوات الكراهية والقتل، وعاش بعدها سنوات المحبة والندم. آآه. دَنَتْ ساعتي، ولا نجاة لي إلا برحمتك يا اللـه.. إلهي ها أنذا سأدخل مقام أشواقي وأتأمل فيك عجائب الأسرار.

لم يلاحظ أحد أنه مات. كلبه يزوم ويلحس وجهه. وعندما مال كأس النبيذ وسُكب ما به على الفخذ، ثم تدحرج وسقط أرضًا ليتهشَّم وينثر بقية نبيذه، هنا علم من حوله أن كلود الثاني، كلود السمين مات.

في البهو. التابوت قبل أن يغلق على محتواه. كارين مالت على رأس كلود وقبَّلته وقالت له:

– إلى اللقاء أيها الحبيب. إنك بالفعل كلود الثاني. وسيكون من ذريتك من يستكمل رسالتك ورسالة جدك كلود الأول.

مات كلود الثاني ولم يصل لعمر الأربعين، عاش حياته بالطول والعـرض والعمق، فصارت حياته القصيـرة عدديًا، بالغة الطول كيفيًـا. عاش داعيًـا للمعرفة باعثًا للمحبة دافئًـا في التواصل بين تنويعات البشر. ترك في قصره زوجة طيبة وابنًا وابنة ومذكرات وكتبًا كثيرة عن الشـرق وعن الإسكندرية. ولوحات عديدة رسمها في مدينته مرسـيليا، وبعضها في إشبيلية وجنوة والبندقية وسبتة، وأكثرها عن الإسـكندرية ومعالمهـا وراقصاتهـا، وتبرز بينها

الراقصة التي فتن بها وفتنت به وكتب اسمها بجرأة العشق المدوي.. بسبوسة.

الجنازة سارت كما أوصى زوجته كارين، أن تكون جنازته جنازة فرح واستبشار لا جنازة حزن وكآبة. وفعلت كارين كما وصّاها زوجها. ارتدت هي وابناها أحلى ما عندهم من ثياب، وهكذا أمرت بقية العائلة. هي وابناها صعدوا للعربة التي تم زفافها لكلود السمين عليها. الخيول الأربعة تسير الهوينا. على الجانبين كل من تلتقي عيناها بعينيه، يبتسم لها محييًا مواسيًا وهي تجيبهم بابتسامتها الوضّاءة. وسارت الجنازة بتابوته وخلفه وأمامه الجماهير من كل لون وصنف. كبار العائلات الغنية والعاديون والفقراء. الجميع اختلطوا ببعضهم فوجد الغني بجوار الفقير، والحاكم تفرق من حوله الحرس وصار كل منهم بين الناس هنا وهناك، والحاكم نفسه انحشر رغمًا عنه وسط عدد من خادمات قصره واللاتي لم يعرنه أي اهتمام. كارين وولداها على جانبيها في حيرة بين الحزن والفرح، كارين لو كانت ملابس ليلة زفافها من كلود، تناسبها الآن لارتدتها. بقيت مبتسمة وأحيانا تضحك، لكن الدموع لا تتوقف. الدموع تسيل مدرارًا على خديها حتى بللت عنقها. تقول لمن يحاول مواساتها:

– افرح، فقد ملأ كلود حياتنا حبًا وفرحًا.

الجموع تغني وترقص مع الطبل والزمر. الناس يضحكون ويدعون له بالمغفرة وارتقاء الجنّة. تراتيل من الإنجيل والتوراة والقرآن وأجراس الكنائس تصدح. لكن، قسيسًا وشيخًا وكاهنًا رفضوا تجمُّع تراتيل الأديان الثلاثة سويًا، كما رفضوا أسلوب حياة كلود السمين، ولم يحضروا تلك الجنازة المتفردة. لم يهتم بغيابهم أحد. فالجنازة كانت كثيفة العدد متخمة بالرضاء وبالمحبة. بعد مراسم الدفن تفرقت الجموع وهي في حالة نشوة وسلام داخلي.

وفي تلك الليلة توافد على الساحة الكبرى بمرسيليا حفل كبير على شرف كلود الثاني، كلود السمين. وغنى فيها كل من إديث وهانان. وردد الغناء الكل، لا فرق بين جماعة وأخرى. وكان الكثير من القسس وشيوخ وكهنة موجودين محتفلين مع الجموع. وكلما أتت سيرة جنازته المبهجة ابتسم الجميع وشاع الفرح في الوجوه.

وكما مات كلود بن فيكتور، كلود الأول، مات أيضًا كلود الثاني، كلود السمين. وسيأتي كلود الثالث.

* * *

كلود الثالث (كلود الفرنسيسي)

سايمن هو الحفيد الأكبر لكلود الثاني وكارين، وله أخ يصغره. سايمن فعل مثلما يفعل شباب عائلة فيكتور. اختار وأحسن الاختيار فتزوج من صوفي، وهي فتاة قوية الجسد جميلة الوجه عاقلة. تحمَّلت صوفي وكلود صدمة وفاة أول إنجاب لهما وكانت طفلة. ثم عوَّضهما الله وأسعدهما بإنجاب طفل. الطفل يشبه تمامًا جدَّيه كلود الأول وكلود الثاني. فأطلقوا عليه كلود الثالث. ومن عجائب خالق الخلق، أن الطفل كلود الثالث أيضًا أتى للدنيا وعلى خده الأيمن نفس الشامة التي ميَّزت الكلودين الأول والثاني. الشامة على الخد الأيمن في آل فيكتور أصبحت إشارة أن حاملها له دور في حمل رسالة كلود الأول. كلود الثالث مفتون بالقراءة، نهم من صغره بالمعرفة. يومًا وقف الطفل أمام لوحتين كبيرتين وبينهما

لوحة أصغر، سأل عنها قالوا إن اللوحتين الكبيرتين هو لجدَّيه المهمين في آل فيكتور واللذين حملا الوحمة على الخد الأيمن.. كلود الأول وكلود الثاني، وحكوا له عن اللوحة الصغرى التي هي صورة الصياد المسلم "إنسان" الذي أنقذ جده. وكيف أن عليهم الدعاء لهم بالرحمة. أحب الطفل اللوحات الثلاث.

سايمن وصوفي يضعان في قلب وعقل ابنهما كلود الصغير رسالة المحبة والسلام التي صارت رسالة عائلة فيكتور. كلود وهو ما زال طفلا شاهد من أعلى القصر مع أبيه وأمه جمال مباني مرسيليا بأسقفها القرميد الحمراء. وشاهد القلعتين وسور المدينة وكنيستها الكبرى. ثم أبحر وأبوه على مركب صغيرة وأطلعه أبوه على كل ما يخص الميناء، ومر بالمركب بين أرخبيل فريول وما حوله. سار معه في شوارع المدينة المبلطة بالأحجار المصقولة. لم يترك سايمن جانبًا من الجوانب إلا وصحب ابنه إليه، ولم ينس حي العرب وشارع اليهود. ولا منطقة الصيّادين متوسطي الحال أصحاب مراكب الصيد الكبيرة وتجار السمك بالجملة. كما لم ينس بيوت الصيادين الفقراء. انبهر كلود الطفل بمدينته وعشقها وأحب الطفل البحر كثيرًا، وصار يصادق أمواجه وتياراته.

في سن السادسة، الراهب الكاهن فرنسيس صديق لعائلة فيكتور ومحب للمعارف وللعلوم مثلهم. تولى تعليم كلود الصغير، فحبّبه

في جوهر رسالة يسوع المسيح وبشارته للناس بالمحبة والمغفرة. وتركيز الراهب الكاهن في أحاديثه لكلود أن المسيحيين مدينون بالاحترام والمحبة لجميع البشر. فأحب كلود الإنجيل المقدس بقلبه، وأحس به بفطرته النقية قبل أن يحبه بعقله. ثم قرأ كلود الصغير الكتاب المقدس كاملًا. بعدها طلب كتبًا عن الإسلام واليهودية، فأتى له الراهب فرنسيس بأبسط الكتب. بعدها بسنتين قرأ كلود كتابًا عن الفراعين الذين علّموا اليونان التي أضاءت نور العقل والفكر، ثم الشرق بمترجميهم مسلمين ومسيحيين ويهود الذين نقلوا فكر اليونان لأوربا في الضفة الشمالية للبحر الوسيط.

كل من حول كلود تأكد أن هذا الطفل سيكون له دور عظيم، وأنه سيكون نبراسًا في رسالة عائلة فيكتور عميقة المسيحية، عميقة المحبة للناس كلهم. قالوا ذلك علانية ولم يأبهوا بمعارضة الكاهن جونز الكاره لكل معارف البشر، والذي يلتف حوله من المنغلقين فكرًا والمتشددين دينًا ومنهم عدد من العائلات الكبيرة، بل عدد من عائلة فيكتور نفسها. فمثلما رفض المنغلقون المتشددون ما يفكر فيه كلود الأول والثاني، وعارضوا رسالتهما في ترسيخ المحبة والسلام مع الجميع، رأى هؤلاء أن المحبة والسلام للمسيحيين فقط! والكراهية حق على أتباع الديانات الأخرى. الكاهن جونز لم يهمه قوة وغنى آل فيكتور، ولم يهمه عددها الكبير ولا استحسان الكثير

من أهل مرسيليا لرسالتهم في المحبة والسلام. الكاهن يشعل الكراهية ضد المسلمين واليهود المقيمين في مرسيليا. وقام علنًا وسط حشد من الكارهين بحرق عدد من المصاحف الإسلامية المقدسة. بعض التجار المنافسين لعائلة فيكتور بدأت تقف مع الكاهن جونز الذي صار مشهورًا باسم كاهن الكراهية. أما الراهب الكاهن فرنسيس فقد اشتهر بكاهن المحبة. فاشتعلت معركة بين أتباع فرنسيس وأتباع جونز.

كلود عشق البحر. تذهب معه أمه ومعهما من يعلمه السباحة. صوفي تبقى على الشاطئ تجلس على مقعد مريح ومعها خادمة. ظُهر يوم وأمه تجفف جسده بعد مشوار السباحة، احتضنها من وسطها ورفع رأسه ناظرًا لوجه أمه بوجهه الباسم المتشوّق الواثق وقال لها:

– سأذهب حيث ذهب جدّاي. سأذهب يومًا إلى مصر، إلى الإسكندرية.

خلال المنافسات الشرسة بين العائلات المرسيلية الكبيرة، بعض العاملين عند عائلة فيكتور تعدوْا على مساحة مخصصة للصيّادين الفقراء، مكان يجلسون فيه شتاءً تحت الشمس الحنون يرتّقون شباكهم ويصلحون مراكبهم الصغيرة، وفي شمس الصيف الحارة أو شهور الأمطار والبرد الشديد، يعملون داخل أكواخ بسيطة.

عائلة فيكتور التي منها كلود، احتلت المكان لبناء مراكبهم الجديدة. لم يستطع الصيّادون فعل شيء للعائلة التي افترت عليهم.

الراهب الكاهن فرنسيس يغيب عن مرسيليا لانشغاله في رحلة من رحلاته. كلود الثالث يتخطى عمر الرابعة عشر. لم يعد طفلًا ولم يصل للشباب والرجولة بعد. في حيرة بينهما. بدأ ينفلت ومعلمه بعيد عنه. ينسى الرسالة التي لقنها له والداه. ينسى ما قاله وأحسه ناحية الإسكندرية. استغرق في فتوة الجسد الصاعد ودماء مطلع الشباب الحارة. يتعلم الفروسية مع غيره من شباب جيله أبناء العائلات الكبيرة الغنية. مع معلميهم يتبارزون بالسيوف على الأقدام وعلى ظهور الخيل. يتضاربون بالبلط والحراب وكلها من الخشب المتين. أحب كلود شتّى أنواع التدريبات واستغرق فيها مصرًا أن يكون مثل جده الكبير كلود الأول، فارسًا كبيرًا له وزنه بين كبار فرسان فرنسا كلها. معه في هذه التدريبات ابن عمه الشقيق واسمه فيلدرز. كلود في ثقة ودلال بجسده اليافع ووسامته اللافتة للأنظار. فخور بنفسه مباهٍ بعائلته الأهم في الميناء. مفتون بأن الفتيات يتابعنه هو أكثر من بقية شباب مرسيليا. يأخذه الغرور. تجرأ على مشاكسة الفتيات وملامستهن واحتضانهن في كل فرصة ممكنة. أخذ يتقاتل مع بقية الشباب على صغائر الأمور، ويتعالى على الناس ناسيًا كل ما قرأه من معارف وما تلقاه من علوم الدين ومن سيرة وأحاديث يسوع المسيح.

يدخل عامه السادس عشر، تطور التدريب على الفروسية. يتدرب مع جيله من أبناء كبار العائلات على المبارزات بالأسلحة الحقيقية الخطرة، وهم داخل الأردية الحديدية الثقيلة، وحتى رؤوسهم تحيطها البيضات الحديدية التي لا تترك مكانًا غير مغطى سوى فتحة للعينين. تدريبات قاسية وعليهم تحملها، فهم يمثلون فرسان طبقة النبلاء، مفخرة جيوش فرنسا.

كلود في حالة عَجَب بنفسه ودلال. حالة "عنطزة" صبيانية واستعلاء الشباب الغر. يزيد من كِبَره خاصة حين يكون في الحفلات الباذخة للعائلات الكبيرة، حيث القصور الشامخة وقاعاتها الواسعة المضاءة جيدًا، والجميع في أغلى الملابس القشيبة والمجوهرات تبرق خاصة على النساء. وبقدر ما تتسع أرديتهم من أسفل، بقدر ما هي ضيقة من أعلى فتبرز ضيق الخصر. أما العنق ونصف الثديين العلوي فمكشوف ينير بالمفاتن. شعرهن في أشكال معقدة لافتة للنظر. الرجال في أناقة مبالغ فيها، وسيوفهم في أغمادها تتدلى من أحزمة الوسط المحلاة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة. ألذ ما يؤكل وما يُشرب على موائد طويلة عريضة. الموسيقيون يعزفون في جانب وأغلب الحضور يرقصون في أبهة وخيلاء خاصة الشباب، والكبار رجالًا ونساء على الآرائك الجانبية يتابعون ويتبادلون المكر والشائعات.

كلود الثالث هو شمس الحفلات والفتيات الجميلات هن الأقمار. والأقمار كلها تنظر إلى الشمس ليستمدوا نورها منها. فيلدرز لا يجد إلا بقايا الإعجاب بابن عمه كلود. فيلدرز ليس طيبًا ولا قنوعًا بأنه من عائلة آل فيكتور، وأنه أيضًا يعتبر من الأغنياء الكبار في مرسيليا، فيلدرز يتحسر على وجود كلود الثالث، فإن لم يولد كلود الثالث أو وُلِد فتاة، لكان فيلدرز الوريث لقصر آل فيكتور وأغلب أموالهم، ولكان هو محط الأنظار. كلود الثالث لا يشغله ابن عمه فيلدرز، ولم يشعر طوال شبابه الأولى بأحقاده، لكن شيئًا ما داخل كلود لم يحب فيلدرز، ولم يك فيلدرز مقربًا منه أبدًا. كلود الثالث مستمر في دلاله وتَقته الزائدتين. يراقص أحلى الفتيات ولا ينجذب لواحدة بالذات. عدد من النساء يشتهينه بقوة، يقلن إن شفتيه تدعوانهن لتقبيله ولو عنوة. إن ابتسامته وخلفها لؤلؤ أسنانه تغريانهن بالانطراح على ظهورهن له.

رغم قلق سايمن، فهو يفتخر بابنه كلود، وتحذِّره أمه صوفي. يخشيان عليه أن يدفعه شبابه وأصدقاء السوء فيقع تحت إغواء النساء المتهتِّكات. تخشى أمه أن يميل لسيرة جده كلود الثاني، فيميل ميلًا زائدًا للنساء وللخمور. مثلها مثل زوجها سايمن لا يستريحان لفيلدرز. قالا لابنهما أن يحترس منه فهو حاسد، لكن كلود لم يتوقع منه خطورة. سايمون وصوفي ما يطمئنهما قليلًا أن مع كلود صديقه النبيل المتوازن العاقل كونراد شلنت. من عائلة

كارين شلنت جدّة كلود. كونراد مشهور بالجدية والرزانة.

صوفي في كل فرصة تعرض على ابنها بعض أسماء الفتيات اللاتي راقصهن كثيرًا، تريده أن يختار منهن واحدة، كلود يرفض. وعندما نبّهته بأن صديقه كونراد له أخت رائعة، قال لها بالفعل أخت كونراد جميلة تصلح زوجة عظيمة، لكنه ينتظر فتاة مختلفة تمامًا عن اللاتي من حوله. تسأله أمه عن أوصاف تلك الفتاة وعن عائلتها. كلود لا يحير جوابًا، فقط متأكد أن فتاة ما ينتظرها وتنتظره.

صخرة عالية متوغلة في البحر. يجلس عليها كلود ناظرًا إلى الضفة الأخرى من البحر. يُمعن النظر وكأنه بهذا سيرى الضفة الجنوبية، وسيرى الأمر الخفي الغامض الذي ينتظره هناك. قلبه يخفق وعقله هائم. ماذا هناك؟ أفتاة أم حدثٌ ما؟ يقول لنفسه.. إنها فتاة. حضن لطيف عفيف طيب ينتظرني. يبتسم فتبتسم حوريات البحر اللاتي يهُمْن تحته في مياه البحر، وتنساب أجسادهن المرنة مع الأمواج الخفيفة. يشعرن به عاشقًا ويشعرن به إنسانًا سيكون له دور إنساني.

فصل الشتاء بسحبه وأمطاره الغزيرة. ويقع كلود فيما كانت تخشاه أمه. يبدأ السهر في الحانات ويسكر ويتشاجر ويصرف الأموال بإسراف. يرافقه كونراد بتشجيع من أم كلود، تطالبه بحق

الصداقة ألا يترك كلود، ويحاول قدر استطاعته أن يكبح من تهوره. وفي ليلة شتوية عاصفة يخرج من الحانة مع كونراد. كونراد لم يشرب الكثير، أما كلود فقد تجرع الكثير من أقداح الخمور المتنوعة. يمتطي كل منهما حصانه. وخلال سيرهما الهويْنى في الطرقات شبه المظلمة مخمورين يغنيان في لا مبالاة والأمطار تهطل عليهما وبللتهمًا تمامًا، وهما سعيدان بهذا البلل ولا يهمهما لا برق ولا رعد. وقع حوافر حصانيهما الثمانية ترن على الأحجار المبلولة التي تبطن الشارع. وإذا بعصابة تهاجمهما فجأة ويسقطانهما من ظهري حصانيهما. كونراد وهو مطروح على الأرض يصرخ ألمًا من ضربة خنجر أصابت ركبته اليسرى. نهض كلود وبعده بلحظة نهض كونراد رغم إصابته الشديدة. كلود وكونراد يطيحان باثنين من أفراد العصابة ضربًا بالقبضات. ثم سريعًا يشهران سيفيهما ويشتبكان مع العصابة التي تبينت أن الشابين فارسان لا يضاهيان. يهرب أفراد العصابة مذعورين. كونراد يمسك بركبته المصابة. كلود يطارد العصابة رغم نداءات كونراد له بأن يتوقف ويتركهم يهربون. زعيم العصابة مع أحد أفراد عصابته يئسا من إفلاتهما من المطارِد فتوقفا يلوحان بسيفيهما استعدادًا لمقاتلة كلود. وقبل أن يصل كونراد الممسك بسيفه وعرجته تمنعه من العدو لمؤازرة كلود. كان كلود قد طعن زعيم العصابة وأسقطه أرضًا مخضَّبًا في دمه. يستسلم الثاني ملقيًا سيفه طالبًا الرحمة بفرنسية مشوبة بلكنة

غريبة. يصل كونراد ويمسك بكلود الذي أفاق سريعًا من سطوة غضبه وعمق سُكره. كلود ينظر في بلاهة إلى زعيم العصابة الملقَى على ظهره مفارقًا للحياة والدماء تسيل من صدره ومن فمه لتختلط بالأمطار التي لا تتوقف! كلود يتراجع للخلف وكونراد يمسكه من كف يده القابضة على السيف، خشية من أن يقتل الثاني الذي ما زال رافعًا يديه لأعلى مستسلمًا وهو يردد كلمات باللغة العربية، عرف بعدها كلود وغيره أنه كان يردد ما يقوله المسلمون قبل أن يفارقوا الحياة..

– أشهد أن لا إله إلا اللـه وأن محمدًا رسول اللـه.

يشير كونراد للمستسلم أن يبتعد، فيسرع هذا هاربًا. كلود ينظر للسماء وكأنه يطلب الرحمة مما فعله.

كلود مع صديقه كونراد في حزنه على ركبته اليسرى. الإصابة ستقعده بقية حياته في عرجة واضحة. كلود حبس نفسه أسبوعًا كاملًا في قصره. أتاه كونراد بعرجته مستعينًا بعكاز، حاول أن يخرجه من محبسه دون جدوى. كلود حمّل نفسه مسئولية ما حدث لكونراد ومسئولية قتله لزعيم العصابة. أمه وأبوه يؤكدان له أنه كان يدافع عن نفسه. وأنه فعل خيرًا بقتل زعيم عصابة من أخطر وأحقر العصابات السفاحة في مرسيليا، لكن كلود فاجأهما:

– كان يهرب مع بقية عصابته. وكان عليَّ أن أستمع لكونراد

ولا أطاردهم. كان من الخير أن أتركهم يهربون بدلا من مطاردتهم وقتل زعيمهم. لم أكن رحيمًا، كنت منتقمًا.

كلود يعاني من ألم نفسي رهيب. لم يعد يذهب للحانات. يسكر وحده على جانب صخري مهجور من الشاطئ. قبل الذهاب تضع عليه أمه ملابس ثقيلة وعلى كتفه وشاحًا من الجلد يقيه إن هطل المطر. رفيقه زجاجة خمره. يبقى على الشاطئ يلوم نفسه. كيف وهو قارئ الإنجيل الذي يدعو إلى الرحمة، كيف وهو تلميذ الراهب فرنسيس، كيف يقتل إنسيًا حتى لو كان زعيم عصابة حاولت سرقته هو وصديقه؟ تركته عائلته متأكدة أنها أيام وسيعبر مأساته ويتعلم منها.

ولما تمّ القبض على أفراد العصابة، وتبين أن اثنين من العصابة من المسلمين، أحدهما الذي استسلم لكلود وتكلم بلكنته العربية. هاجت جموع من أتباع الكاهن جونز، وقرروا أن يهاجموا حي العرب وينتقموا منهم. كلود اتصل بكبار رجال ونساء مرسيليا، وحشد الكثيرين ليدافعوا عن حي العرب، كان المحبون أتباع الراهب فرنسيس وهم أغلب أهالي مرسيليا! العربيان المشتركان في العصابة، كان دفاعهما عن أنفسهما أنهما لا يجدان من يعطيهما الفرصة للعمل، وأن العرب عمومًا في مرسيليا فرصتهم في العمل أقل من غيرهم، والفقر فيهم يسود. وأنهم يتعرضون للتعالي والمعاملات المهينة. تحت ضغط من آل فيكتور وغيرها، قرر حاكم مرسيليا أن معاقبة

العربيين تكون مثل معاقبة باقي أفراد العصابة. بهذا فشلت الهوجة التي كانت تبغي حرق حي العرب، وطردهم من المدينة.

كلود أزمته مستمرة ولم ينقطع عن مصاحبة قارورة خمره والوجود على شاطئ البحر الصخري وحده. ليلة من ليالي الشتاء وقد مرت أيام على ليلة قتله لزعيم العصابة. اكفهرَّ الجو والسحب تكاثفت، وأخذت في نثر رذاذ المطر الخفيف. مع سوء الجو تضاعف في نفس كلود الحزن وغرق فيه وأدمعت عيناه فأخذ جرعات سريعة من القارورة حتى فرغت، ثم أطاح بها جانبًا فتحطمت شظايا على الصخور. ألقى وشاح الجلد بعيدًا وخلع ملابسه وبقيَ عاريًا. لم يرتجف بردًا. أصلًا لم يحس بالبرد ولم يأبه أنه يلقي نفسه في مخاطرة موت. نزل إلى البحر، وأخذ يسبح فيه متوغِّلًا. لا يبالي لا بموج ولا بأمطار تزداد. لم يشعر بتيارات حوريات البحر وهن يحاولن تحذيره أنه سابح للغرق. بدأ يتعب ويفيق مما هو فيه. مع برودة المياه التي آلمته، انقشعت حالة الكآبة قليلًا. التف ونظر إلى الشاطئ. الظلام والأمطار التي ثقلت تكاد تمنع رؤية المدينة كلها. لا علامة لمرسيليا سوى مصباح الكنيسة التي تعتلي الربوة، وبعض المصابيح في الأدوار العلوية من القصور الكبيرة التي أفهمته أن الشاطئ بعيد بعيد بعيد. كلود يخاطب نفسه.. كيف سبح كل هذا المسافة وكيف سيعود للشاطئ البعيد البعيد البعيد؟ يأس وتحدٍّ. تحدٍّ يجعله يسبح عائدًا ببقية قواه، ويأس يقول له بل استسلم للغرق فأنت

متعب مخمور وبقية قواك لن تمكنك من بلوغ الشاطئ. تيارات حوريات البحر تشجعه على المقاومة، نداء مبهم يقول له.. عليك أن تستكمل ما بدأه جدَّاك كلود الأول والثاني. أنسيتَ رسالة العائلة، أن افشوا المحبة والسلام في شاطئي البحر؟ يسبح ويسبح ويسبح والإرهاق يزداد به والبرد يرعشه والإنهاك يخدِّر ذراعيه وساقيه، فكاد أن يستسلم رغم نداءات خفية من حوريات البحر. وهنا كان القدر به وبعائلته رحيمًا. مركب صيد عائدة. أحد الصيادين شيء ما يوجِّه نظره لناحية ما. رغم الظلام الحالك والمطر المنهمر، شاهد هذا الذي يسبح متعبًا يكاد يغرق، صاح الصياد:

– يا يسوع.

تتجه المركب نحو هذا المعتوه الذي يسبح في مثل هذه الليلة الباردة المطيرة. أياد تمتد إليه وتسحبه لأعلى ويمددونه على ظهر المركب ويغطونه بغطاء ثقيل. ولم يفق إلا بعد منتصف الليل. وجد نفسه في كوخ فقير، باهت الإنارة لكنه دافئ. امرأة في منتصف العمر تجلس بجانبه تبتسم له. يقول لها متعجبًا:

– من أنتِ؟

– إنسانة.

هذه الكلمة ضربت في عقل كلود الثالث. إنسانة! نظر حوله

فوجد رجلا وصبيًا صغيرًا يقفان على جانب ناظرين إليه في ابتسامة فرحة بنجاته. تذكر ما كان فيه وأدرك أنه تحت الأغطية عارٍ. ابتسم ابتسامة خجلا. قالت له المرأة الطيبة:

– بُنَي. أعددنا لك حساءً ساخنًا. يجب أن تعتدل قليلًا وسأساعدك على الشرب.

كانت ملاعق الحساء التي تناولها من هذه السيدة الطيبة، وفي هذه الكوخ الفقير، هي أحلى وأرق وأثمن ما تناوله في حياته.

قبل بزوغ الصباح، تأكدت أم كلود بأن أمرًا سيئًا حدث لابنها. تحت الأمطار المنهمرة عدد من الخيول أسرعت بركابها إلى الشاطئ الصخري، حيث المكان المعهود الذي يسهر فيه كلود وحده. وجدوا ملابسه المبللة ملقاة على الصخور. ثم وجدوا شظايا زجاجة الخمر المهشمة. ظنوا أنه غرق. صرخت أمه وانهارت وبكى أبوه. الأم أفاقت من إغمائها. وواصلت الصراخ وحاولت الإفلات من الأيادي التي تمسك بها لتسرع ناحية البحر لتلقي نفسها فيه.

عدد من عائلة فيكتور وغيرهم سمعوا بالحدث، فأتوا على صهوات الخيول، وبينهم فيلدرز ابن عم كلود. فيلدرز يكتم فرحته الغامرة، فها هي المصادفات تطيح بكلود ابن عمه غرقًا، وبهذا فمن حقه وراثة قصر آل فيكتور بعد موت عمه سايمن.

في صعوبة بالغة أخذوا صوفي وضعوها على ظهر حصان وعاد الجميع إلى قصر آل فيكتور. الأم مغمًى عليها في حجرتها. الحضور القلق تجمعوا في أكبر قاعة من قاعات القصر. أحضر لهم الخدم القهوة والمناشف ليجففوا ملابسهم.

بيوت الصيادين بعيدة عن المكان الذي تجمع فيه الزحام على الشاطئ. لذا لم يسمعوا صراخ الأم ولا الجلبة التي حدثت. في الصباح أسرع كلود إلى قصره. يعدو وقد تأكد أن غيابه للصباح سيرعب أمه وأباه. يندفع داخل القصر. صاح الحاضرون فرحًا برؤيتهم لكلود الشاب حيًا. أفاقت أمه من إغمائها عندما سمعت صوته وهو يدخل حجرتها ويناديها.. أمي. أمي. أنا بخير يا أمي. احتضنته أمه باكية بكاءً هائلًا. وأتى أبوه الذي لم يستطع وقف جريان دموعه. زلزلهما الرعب أن يكونا قد فقداه، رجّتهما الفرحة بأنه على قيد الحياة. كلود بقيَ ساعة زمن يهدّئ أمه وأباه. وفي القاعة بين كل الحضور حكى لهما عن الصيادين الذين أنقذوه وعن العائلة التي احتضنته واهتمت به. فيلدرز انحشر بين الفرحين بنجاة كلود، يدّعي الفرح مثلهم واحتضن كلود حضنًا عصبيًا ينعي فيه طموحاته، فها هو غريمه يعود من الغرق ليمنع عنه طمعه في الاستيلاء على قصر آل فيكتور.

بعد انصراف الأقارب والمهتمين بالحدث المرعب، استأذن كلود

والديه ليعود إلى بيت الصيادين الذين أنقذوه ليشكرهم ويهديهم هدية ما. والداه صمما على الذهاب معه. سايمن وصوفى مع ابنهما على ظهر خيول ثلاثة يتجهون لكوخ الصيادين رغم المطر المستمر. وفي كوخ الصيادين احتضنت صوفي المرأة الطيبة التي اعتنت بابنها. بكت أمه وهي تقول إن كلود هو ابنها الوحيد، وإن عليه آمالًا كبيرة. وفي جلستهما وهما يحتسيان القهوة معًا، كلود الثاني وأمه يتعجبان من كم الرضاء والسعادة التي عليها تلك العائلة الفقيرة! حاولت صوفي أن تضع عقدًا ذهبيا يحوي قطعة زمرد حول عنق السيدة التي أنقذت ابنها، لكن السيدة رفضت وهي تبتسم لصوفي وتقبّل رأسها. دموع صوفي لا تتوقف امتنانًا لتلك السيدة وعائلتها. زوج السيدة الطيبة اسمه بياف. والصبي الصغير أيضًا اسمه بياف. ولما وجدت السيدة الطيبة أن تساؤلًا اعترى وجه صوفي، ابتسمت لها ابتسامة سمحاء وقالت..

– من عمق حبي لزوجي الصياد بياف، أطلقت على ابننا الوحيد اسم بياف أيضًا.

بياف الأب أخذ يحكي لكلود وأمه عن الظلم الذي وقع على الصيادين. حاولت المرأة الطيبة أن تمنعه من الاسترسال حتى لا تضايق ضيوفها، لكن بياف الأب أصرَّ، لأن هذا واجب عليه ناحية الصيادين الفقراء. حكى بياف الأب عن الأرض التي انتزعتها

عائلة فيكتور من الصيادين. خجل كلود ووالداه. فهم لم يعرفوا كل هذا. أكد سايمن أنه لم يعلم أن هذه الأرض ملك للصيادين.

في اليوم التالي كان بعض العاملين عند عائلة فيكتور يعملون على استصلاح قطعة من الأرض مطلة على البحر، وأتوا بالرمال وكسوا المنطقة بها فصارت صالحة لأن يستغلها الصيادون بدلًا من مكانهم الذي أخذته عائلة فيكتور منهم. رضيَ الصيادون بهذا وعاد حبهم لعائلة فيكتور وصار كلود الثالث يزورهم كثيرًا، ونشأت صداقة متينة بينه وبين بياف الصغير.

حادثة قتل كلود لزعيم العصابة وواقعة تعرضه للغرق، جعلتا كلود يعود لرشده، وتعهد لنفسه أنه لن يقتل إنسانًا مرة أخرى. لم يعد يسكر ولم يعد يشارك في السهرات الماجنة. طرد بحر الغرور من نفسه وعاد لطبع التواضع. مع صديقه الصدوق كونراد في جلسات هادئة يحكيان عن أحلامهما. كونراد تخطّى أزمة عرجه. يحلم بإنشاء صناعات كبيرة. حلم كلود غامض، الذي هو متأكد منه، أن حلمه في الشاطئ الجنوبي من البحر. كثّف من زياراته لشارع اليهود وحي المسلمين. وهناك تعمق في العربية وصار يتحدث بها جيدًا، وإن كانت عربيته محمّلة بلكنة فرنسية تضيف له غرابة مُحبّبة. عاد كلود للقراءات العميقة عن الشرق وعن الإسلام. وعاد للسباحة وهو في إفاقة ليشعر بتيارات حوريات البحر اللاتي

احتفلن بجده الكبير كلود الأول، كما شجعنه على مقاومة اليأس في محنة تعرضه للغرق. عاد الشاب كلود الثالث لرشده، وقد مرت به سنة مزدحمة التجارب والفتن والمحن والمعارف.

السابعة عشر من عمره. هنا أتت اللحظة التي كانت أمه تتوقعها وتخشاها. اقترب منها كلود يرجوها أن تسمح له بأن يقوم برحلته المقدرة إلى الجانب الجنوبي من البحر. رحلة حيث المسلمين الذين طالب جده الكبير بأن يبنوا معهم جسور المحبة والسلام. تَعْلَم أمه من سنوات أن هذه اللحظة ستأتي يومًا ما. تعلم أن لابنها الوحيد هوى في الشرق وفي الإسكندرية خاصة، وأنه سيذهب حتمًا ولن يوقفه لا بحر شاسع ولا حب أمه وخشيتها عليه، ولا رجاءات أبيه أن يؤجل رحلته لعامين أو عام على الأقل.

تزود كلود الثالث بكل ما مدته أمه به، وبكل النصائح التي قالها له أبوه مع أكياس الذهب. كلود يطمئن والداه بأنه فارس قوي ويتكلم اللغة العربية فصحى وعامية، ومعه ما يكفيه من أموال والكثير من قطع الذهب المخبأة جيدًا في بعض المتعلقات التي معه. كان في وداعه الراهب الكاهن فرنسيس الذي نصحه بنصائح مسيحية طيبة فقال له:

– لا تبتعد عن مخلّصنا يسوع له المجد. صُنهُ يصُنك. ولا تنس. حب الناس من حب المسيح. اذهب والرب بوصلتك ومجدافك.

صديقه كونراد ألح عليه أن يحمل معه سيفه تحسبًا لظروف غير متوقعة. أخذ الكثير من الخطابات من العائلات اليهودية، إلى أقاربهم في الإسكندرية.

صباح يوم صيفي يبحر كلود الثالث على ظهر مركب كبيرة متوّجة بالأشرعة المتنوعة العالية. يشير لأمه ولأبيه وأصدقائه وعائلته وكلهم قلقون ألا يعود إليهم حبيبهم كلود، فيما عدا فيلدرز الفرح برحيل كلود والقلق أن يعود. المركب تمخر في بحر أزرق لين، وفوقها سماء زرقاء رحبة، تبتعد وتصغر والشاطئ يضمحل منكمشًا، ويختفي قصر العائلة ثم يبتعد الخليج عنه ثم القلعتان والكنيسة العالية. تستمر المركب في الابتعاد.

بعد أيام معدودة، المركب ذات الأشرعة العالية المفرودة بكامل طاقاتها، مندفعة تشق المياه الزرقاء وتقترب من البر، كلود الثالث ينظر للإسكندرية التي يقترب منها كما نظر إليها سابقًا جده كلود السمين. تتضح كبريات معالم المدينة. شبه جزيرة في مقدمتها قلعة قديمة مهدمة، ولم يبق منها سوى جوانب بالكاد تنتصب. وعلى يسار ويمين شبه الجزيرة خليجان كلاهما نصف دائرة واسعة. الإسكندرية تتضح له أكثر وأكثر. خياله يجسد له ما لم يعد موجودًا.. يتخيل مشاهدة مكتبتها الزاخرة التي ضمت ألوفًا ألوفًا ألوفًا من مخطوطات العلوم آداب العالم. يسرح بخياله أكثر ويتخيل قصور كليوباترا وملوك البطالسة.

المركب تقترب ولا يرى الجَمال الذي يتوقعه. الميناء ومراكب راسية متنوعة الأحجام. خلف الميناء مبانٍ قصيرة. عمال يرتدون العمائم الكالحة والجلاليب المتهالكة ويشمرونها لوسطهم، والكل حفاة. والبعض يرتدون الطواقي البيضاء ذات الحواف الدائرية، وقمصانهم المحبوكة والسراويل الفضفاضة ذات الحِجر المربوطة بأحزمة من القماش. يطلقون الأغاني التي تساعدهم على العمل الشاق، وهم يحملون الصناديق الخشبية والأجولة المكبوسة بالبضائع. المخازن واسعة لكنها كالحة مثلها مثل كل المباني الظاهرة. يجد ثلاثة من التجار الكبار يستقبلونه، يأخذونه بالأحضان مبتسمين له ضاحكين. المسئول عن مركب كلود يتابع عمله، وكلود وسط الثلاثة المستقبلين له بكل هذه الحفاوة، الاثنان متقدمان في العمر، ويمثلان أهم تاجرين يمارسان التجارة مع موانئ البحر الوسيط. من مال إليه أكثر، هو الرجل متوسط العمر، حفظ اسمه سريعًا.. بطرس. مال إليه ليس لأنه يعلق صليبًا خشبيًا صغيرًا على صدره، بل لأن ابتسامته أكثر إشعاعًا بالرضا.

امتطوا ظهور الحمير. ومتاع كلود على حمارين. يخرجون من الميناء والثلاثة ما زالوا يحيوُّنه ويهنئونه بسلامة الوصول. شوارع الإسكندرية متوسطة الاتساع. ليست بالجَمال الذي كتب عنه جدُّه كلود الثاني السمين. صحيح أن الأشجار كثيفة لكن الشوارع مُتربة والبيوت مُتعَبَة. النساء أغلبهن كاشفات الوجه والأقل يضعن برقعًا

يترك الجبهة والعينين والأنف، ويغطي الفم والذقن. ملابسهن ملاءة سوداء يحكمنها على أجسادهن. تغطي من الرأس حتى القدمين. جميلات، لكن ابتسامتهن ليست مبهجة كما كتب جده السمين. في الزحام سمع نداءات الباعة المنغَّمة، أيضًا ليست رائعة الموسيقى كما وصفها جده. الدكاكين ليست بالأبهة المعهودة التي قرأ عنها. دكاكين المسيحيين تكاد تنهار ودكاكين اليهود تم الاستيلاء على معظمها من الولاة. أكيد فقدت الإسكندرية الكثير من بهجتها.

على حميرهم الثلاثة يتجهون شرقًا. البحر الأزرق الهادئ على يسارهم. دخلوا منطقة الأغنياء من تجار وأصحاب الأراضي الزراعية، اختفت قصور البطالمة والرومان، واحتلت بيوت الأغنياء الجدد مكانها. البيوت متسعة والحدائق تحيط بها. أشاروا له على مبنى من أربعَة طوابق، طابقه الأرضي يحوي دكاكين تعرض الحليّ الذهبية والفضية والبضائع الثمينة من الثريات والتماثيل الدقيقة والأقمشة الناعمة الملونة. "سيسيل" اليهودي هو صاحب الخان. الخان يبيت فيه التجار الأجانب ويحفظون به بضائعهم ويعقدون فيه صفقاتهم.

لا زحام في حي الأغنياء. البعض على الخيول يتنقل هنا وهناك. أخذوه حسب طلبه إلى نفس البيت القديم الذي سكن فيه جده كلود السمين. يحتل ناصية الشارعين الأهم في الإسكندرية، شارع كانوبي وشارع النبي دانيال. البيت واسع أنيق بسور عالٍ وباب

خشبي وبحديقة واسعة. الثلاثة انتظروه في بهوٍ متوسط. خادم شاب ساعد كلود في ترتيب أغراضه. لكن كلود لم يُظهر للخادم سيفه الذي يخفيه ولا بالطبع ذهبه وفضته. وبعد أن اغتسل كلود ذهبوا معًا إلى بيت الوالي الذي ينتظره في اهتمام قلق.

بيت الوالي يطل على البحر، ضخم لكنه ليس جميلًا. آآه، أين جمال الإسكندرية الذي سمع وقرأ عنه؟ فما هو الآن ليس كما كان من زمن. حراس ضخام الأجسام يمسكون بالحراب الطويلة، وبعضهم يسير حولهم هنا وهناك وسيوفهم في غمدها. وجوههم ترسم شراسة طبيعية ومفتعلة.

قبل الجلوس سأل كلود إن كان في التجمع يهود؟ أخذه أحدهم للتاجرين العجوزين الموجودين. سلم عليهما وأعطاهما خطابات معه من عائلتين من يهود مرسيليا لأقاربهما اليهود في الإسكندرية. شكرا له ووعداه بتوصيل الرسائل لأصحابها.

البهو الكبير وفي الصدارة الحاكم بملابسه المزركشة وعمامته الضخمة الملونة. حوله بطانته وأغلبهم سمان الأجساد غير مريحي السحنات. شيخ متجهّم بملابس وعمامة ناصعتي البياض، يجلس متأففًا على يمين الوالي، هذا هو الشيخ الذئبي ذائع الصيت. وعلى يسار الوالي شهبندر التجار.

مقابلة الوالي ومن حوله أخذت وقتًا طويلًا. أسئلة واستفسارات

من الحاكم ومن الشيخ الذنبي. الذنبي له مئات من الأتباع المتأسلمين المتشددين. لذلك الشيخ مُقَرَّب من الوالي. الشيخ الذنبي ينظر لكلود نظرات رافضة، خاصة أنه رآه يتحدث مع التاجرين اليهوديين ويعطيهما لفافة رسائل. بقدر تحمس الوالي وغيره للتجارة مع مرسيليا، بقدر قلقهم من الفرنجة بكل أشكالهم. محتارين من هذا الشاب الذي في نظرهم صبي صغير رغم لسانه الذي ينطق العربية الفصحى والعامية بلهجة المغاربة المخلطة بفرنسيته! لكنه لم يفهم بعد العديد من الكلمات السكندرية العميقة.

قلق الحاكم والذنبي. هل هذا الشاب الصغير قادم للتجارة، أم ليعرف ثغرات الميناء السكندرية ليعود الفرنجة بحملة إضافية؟ كلود محتار من كل هذه الشكوك العميقة خاصة من الشيخ الذنبي. الذي لا يخص كلود فقط بنظرات الكراهية، بل يلقي نفس تلك النظرات على بطرس وتاجرين آخرين من المسيحيين والتاجرين اليهوديين العجوزين الصامتين اللذين لم يتكلما قط. اسمهما منشة وبنيامين.

ومثلما فعل كلود السمين، فعل كلود الثالث. زار في يومه الأول الكنيسة المرقصية الكبيرة فقابلوه بترحاب حذر. أما في المعبد اليهودي والجامع المسلم، فكادوا يطردونه. كلود الثالث في حيرة من الكراهية التي تسود بين أتباع الديانات. لم يكتب كلود السمين

عن كل هذه الكراهية المنتشرة كالنار في الهشيم. تساءل كلود مع نفسه.. هل العيب فينا نحن مسيحيي الضفة الشمالية من البحر، أم فيهم سكان الضفة الجنوبية؟ أم فينا كلنا؟

ثم كانت دعوات الغداء والعشاء والسهرات من التجار الذين يأملون في عقد صفقات معه. يعلمون أنه ابن أكبر عائلة تجارية في مرسيليا. دعوة غداء مهمة في بيت شهبندر التجار. بيته الأكبر والأفخم وسط بيوت الأغنياء. قاعة الطعام واسعة. مناضد طويلة واطئة مرصوصة في سبعة صفوف. والشهبندر على رأس صف المنضدة الأوسط. بين كبار التجار بعض رجال الدين بزيهم المعروف! الكل يجلس أرضًا على جانبي المناضد. خمسة تجار من المسيحيين السكندريين وتجار يهود منهم العجوزان منشة وبنيامين المحبان للصمت، وشامي وتركي وأرمني ويوناني. كل الموجودين من المقيمين بالإسكندرية. التجار في ملابس قشيبة ناعمة وعمائم فاخرة، والخواتم الذهبية بفصوص الجواهر في أصابعهم. إنه استعراض للثروة التي تشي بالمقام والسطوة. عبيد وجوارٍ يضعون أطباق اللحوم والطيور المتنوعة وبعض أطباق الخضروات المطبوخة. بعد الغداء، توجهوا جميعًا إلى قاعة لتناول القهوة والشاي. ولاحظ كلود أن التجار المسيحيين واليهود غير متداخلين بين التجار المسلمين، المسيحيون مع بعضهم واليهود مع بعضهم.

بين المدعوين الكبار كان عصمت كوسا. صاحب أكبر عدد من مراكب الصيد التي تجوب البحر حتى مياه المغرب، وفي سوق السمك دكانه أكبر دكان لبيع السمك. وهو التاجر الكبير الموزع للأسماك على ظهور الجمال لمختلف ضواحي الإسكندرية. عصمت كوسا واضح بين الجميع، فهو أكثرهم شقرة وزرقة عينيه واضحة مع جسده القوي. إن جلس بجوار كلود فسيعتقد من لا يعرفه أن عصمت كوسا والد كلود لتشابه لون البشرة والعينين وقوة الجسد. عصمت كوسا لا ينظر ويراقب كلود لأهمية كلود التجارية، فبلاد الفرنسيس لن تتعامل مع عصمت كوسا في شراء السمك، فعندها ما يكفيها، إذن، لماذا ينظر لكلود تلك النظرات الدقيقة والتي تحاول سبر أغواره؟ السبب ابنته لولي. وما بها ابنته لولي؟ جمال لولي من النوع النادر بين المصريين عامة. فقد أخذت من أبيها وأمها جمالهما. لولي شقراء جميلة دقيقة الملامح زرقاء العينين الواسعتين. شعرها ذهبي في نعومة الحرير ينسدل من قمة رأسها. جسدها ممتلئ قليلًا وبه كل معطيات الأنوثة، وفي نفس الوقت لا يشتكي قصر منها ولا طول. هي من أجمل فتيات الإسكندرية، وربما أجملهن. فما المشكلة إذن؟ المشكلة ليست في جسدها الأنثوي المغري، ولا في جمال وجهها، المشكلة مشكلتان. مشكلة بسبب غبائها. ومشكلة ثانية بسبب نفسيتها المضطربة، وهذه الثانية أصعب كثيرًا من مشكلة غبائها. لولي متوترة دومًا.

مندفعة دومًا. مغرورة لدرجة قاربت تأليه نفسها. لسانها سريع في إطلاق الشتائم. تتعالى على كل أبناء الإسكندرية وتقول عنهم لقب فلاحين. وما العيب في الفلاحين؟ العيب أنها تركية الأصل وموقنة أنها أشرف وأعلى وأنقى من أهل الإسكندرية وكل أهل مصر، الذين يتعالى عليهم الشراكسة والأتراك وينعتونهم بالفلاحين، وكأن الفلاح عار وشنار!

لولي الجميلة المضطربة، بلغت الثامنة عشر من عمرها ورفضت أن تتزوج من أبناء أكبر تجار وأصحاب الأراضي في الإسكندرية وما حولها. كلهم في نظرها فلاحون مهما كانت ثروتهم. وبمن تريد أن تتزوج لولي؟ تريد إما تركي أو شركسي أو إما من هم من نسل البطالسة والرومان! حتى أبناء الشوام لا. من يظن أو يدّعي أنه من سلالة الأتراك أو الشراكسة أو البطالسة أو الرومان، ولا تكون شقرته واضحة وعيناه ملونتين وشعره ذهبيًا.. أيضًا لا. رفضت ضغط أبوها، وصدّت توسلات أمها أن تتزوج من أي شاب غني وسيم من عائلة كبيرة. أمها اسمها كريمات، صارحتها لولي بأنها تحلم بشاب أشقر ذهبي حتى لو كان فقيرًا ولن تتنازل عن ذلك. كريمات في حسرة قالت لابنتها لولي:

– يا ابنتي.. أنت تعيشين في هلوسات. وإن لم تفيقي منها فستكون العاقبة كارثة.

لذلك يتمعن عصمت كوسا في كلود. إنه بالضبط كما تتخيله ابنته المهووسة لولي. فهل يكون من نصيبها ويستريح من هم ابنته الوحيدة؟ نعم لولي ابنته الوحيدة بعدما غرق ابنه نظمت في حادث غرق مركب من مراكبه.

وعصمت كوسا منصرف، ركب حمارته العالية ذات السرج الفاخر. وعلى ظهر الحمار الذي بجانبه، مساعده الشاب برهومة ذو اللحية الخفيفة. برهومة طويل عريض الكتفين ليس وسيما وليس قبيحًا، أهم ما به عينان غامضتان تحاولان إخفاء ظلامية دواخله. ما يجعل عصمت كوسا يتخذه مساعدا مهمًا له، أن برهومة به ذكاء ونظام. به مقدره على متابعة الأعمال وإبعاد الكثير من المشاكل من ذهن سيده عصمت كوسا. عصمت كوسا يعلم أن برهومة يعمل معه وفي نفس الوقت يراقبه، وعصمت كوسا أيضًا، يستغل برهومة في العمل، وأوصى بعض عماله بمراقبته! برهومة يبيت في البيت الصغير الملحق بحديقة بيت عصمت كوسا. وهو من عمر ابنه الغريق نظمت.

كلود ارتدى نفس ملابس المصريين، سروالًا أبيض متسعًا بحِجر. وقميصًا أسود ضيقًا نوعًا بأكمام وعلى رأسه طاقية بيضاء ذات حواف مستديرة. وفي قدميه حذاء بسيط بلا جورب. سعيد بهيئته وفي غاية الفرح كونه في الإسكندرية. مع بطرس يزور الأحياء

الشعبية. بطرس لا يهتم ببعض من ينظرون بعدم رضاء للصليب الصغير المعلق على صدره، تزايدت من سنوات دعوات مقاطعة المسيحيين ومحاصرة من يعلقون الصليب. كلود متشوّق لزيارة حي العوالم. جده السمين كان محبًا لهذا الحي، وعشق راقصة فيه. فوجئ كلود بأن شوارع حي العوالِم تناثرت فيها القمامة مثله مثل بقية أحياء الإسكندرية الفقيرة. أصوات الموسيقى والغناء ضعيفة سواء كانت دفوفًا أم قيثارات أو مزامير، ولا راقصات جميلات يرقصن أمام واجهات البيوت! وسعاية العوالِم ليست بالبهجة التي كان يتوقعها. تمثال الفتاة العارية لم يبق منه سوى قاعدته وبعض من بقاياه متناثرة حوله. لقد تحطم التمثال. معظم البيوت مغلقة ومن جلسوا خارج بيوتهم يجلسون في تدخين وكلام خفيض. الحي فقد حيويته وعنفوانه في المرح. شرح بطرس.. السبب جماعات شباب الرايات السوداء الذين هجموا أكثر من مرة على حي العوالم، واعتدوا بالضرب على الناس خاصة النساء، بحجة أن الحي يمارس الرذيلة بمزاميره وآلاته وغنائه ورقصاته. من أسابيع حطموا التمثال على أنه صنم! حدثت معارك بينهم وبين أهل الحي، أصحاب الرايات السوداء مسلحون بالسكاكين والسيوف والسواطير، وأهل الحي لا يملكون سوى أدواتهم الموسيقية وفنهم، لكنهم قرروا عدم الرضوخ لتلك العصابات الدموية، وبدأوا في تنظيم أنفسهم، بعد أن يئسوا من الوالي الذي ينافق الرايات السوداء لينتفع بهم في سيطرته على

الناس. الوالي لا يحاول تأييد لا العوالِم ولا حتى الشيخ الشاب مُوفَّق وأتباعه الذين يعارضون افتراء وجهل الشيخ الذئبي وأتباعه، ولا يوافقون على كراهية المصريين المسيحيين واليهود، بل لا يوافقون على محاصرة ونبذ الأجانب من المسيحيين واليهود، فهؤلاء الغرباء أفادوا الإسكندرية وجلبوا لها الخير، والخير عمّ على المصريين عامة. الشيخ مُوفَّق وأتباعه يرفضون الكثير من التفسيرات الدينية الإسلامية القديمة المليئة بالجهل والافتراء، ويحذرون بأن استمرار الحال على هذا المنوال سوف ينحدر بالمدينة وبأهلها، فالانقسامات بين السكندريين ستؤدي لتدهور المدينة، وسوف تسيل الدماء أنهارًا. ويطالب الشيخ مُوفَّق وأتباعه بسرعة محاصرة عصابات الرايات السوداء وبمحاكمتهم على إجرامهم.

الحماران يسيران الهوينا وعلى ظهريهما كلود وبطرس. حمار يأتي مسرعًا عليهما من جانب كلود. راكبة الحمار بكف يدها المغلَّفة بقفاز أسود ناعم، أمسكت بساعد كلود. التفت كلود. ظن أولًا أن أحدًا يهاجمه. لكنها امرأة منقبة لا يظهر من جسدها كله ولا من وجهها سوى حيز ضيق يبين عينيها الواسعتين الزرقاوتين. وسريعًا قالت المرأة:

ـ أنت مين؟

ـ أنا!

– بسبوسة.

– Pourquoi.

وقبل أن يفيق كلود ابتعدت المرأة بحمارها. أفاق كلود وفهم. بسبوسة. عشيقة جده كلود السمين. أسرع بحماره يطارد المرأة وبطرس خلفهما. كلود يوجه حماره خلف صوت حوافر الحمار الذي تركبه المرأة. اختلطت أصوات حوافر عدّة حمير ففقد كلود الأثر. اختفت المرأة في الأزقة. كلود يتحسر. أول إنسان يأتي له بعلامة من سيرة جده كلود السمين! كيف أفلتت منه؟ ويا ترى ما صلتها ببسبوسة؟ ولماذا عيناها زرقاوان واسعتان بخلاف أكثر السكندريين؟ سأل كثيرًا من ثاني يوم وصوله عن بسبوسة الراقصة القديمة، لا إجابة. لا أحد يعرفها. بقيت الحيرة في عقل وصدر كلود دون أن يصل لما يريد.

في دعوة غداء في بيت بطرس، كانت الجلسة بها من الحميمية واللطف الكثير. سميح أبو بطرس قليل الكلام لكنه بالغ الود، وكان أكثر أفراد العائلة ترحيبًا بتعبيرات وجهه وبريق عينيه المُحِبة. كلود قبّل ظاهر أيادي تريزا أم بطرس ودميانة أخته وفريدة ابنته. حول طبلية الطعام جلسوا. سميح قرأ كلمات شكر الرب:

– يا رب بارك هذا الطعام، كما باركت الخمس خبزات والسمكتين. وبارك فينا وفي ضيفنا آمين.

ثم معًا في حجرة بسيطة عائلية، يحتسون القهوة. دميانة تكبر بطرس في العمر وفريدة أصغر من كلود بقليل ولم تتزوجا. أحس كلود بأن الجو العام في القعدة هو التقارب بينه وبين فريدة. فكان حريصًا حذرًا، في الحديث معها ومع بقية عائلتها. يحكي بطرس عن حال العائلة. توقف عن الحديث حرجًا من أخته دميانة، هي التي حكت. أحبت شابًا مسلمًا، فكان ضعيف الشخصية، لم يتزوجها رغم أنه وعدها ووعد عائلتها بالزواج. ضَعف أمام شيخ متشدد وأم لم تفهم دينها الصحيح، واستنكفت أن يتزوج ابنها من مسيحية، ستبقى على مسيحيتها وهي في عصمة مسلم! وفي نفس الوقت كان بطرس معارضًا بشدّة من زواج أخته من مسلم، فزوجها سيجبر أبناءهما على الدخول في الإسلام من صغرهم، ولن يترك لهم حرية التفكر والاختيار.

عدد من تجار الإسكندرية طلبوا كلود في جلسة تشاورية يكون مقرها خان سيسيل. ذهب كلود وبطرس. وفي الداخل يوجد فناءان، أكبرهما سماوي واسع به مخازن لحفظ بضائع التجار المقيمين، وأصغرهما حديقة أشجار وأزهار. الطوابق العلوية مخصصة لمبيت التجار وبعضها يطل على بحر وبعضها على الفناءين. التجار جلسوا في قاعة واسعة تناولوا قطعًا من البسبوسة مع الشاي والقهوة. عددهم لم يتجاوز العشرة. كلود وزملاؤه الثلاثة، وبنيامين وثلاثة من التجار المسيحيين واثنان من التجار المسلمين. الجلسة جلسة قلق على أحوال

المدينة. السماحة تضيع منها واستفحال الكراهية الدينية يزداد، وهذا خطر وبيل على التجارة. الإسكندرية فقدت الكثير من التجار الكبار الذين هجروها بأموالهم وهناك عدد إضافي يفكر أيضًا في الهجرة، ومرسيليا من أماكن الهجرة المقترحة. السؤال لكلود ومن معه.. إن هاجرنا لمرسيليا، هل سيتقبّلنا المجتمع والتجار هناك، أم كأننا استجرنا من الرمضاء بالنار؟ زملاء قالوا إن مرسيليا سترحب بهم وإن كان البعض سيعترضون. كلود رغم ترحيبه بحضور من يريد لمرسيليا، وأن عائلته عائلة فيكتور سترحب بهم، أكد أنه في نفس الوقت، من الخطأ الهروب من الإسكندرية، وأن على الكل التشبث بالأمل والعمل في الإسكندرية ومقاومة الكراهية والتمسك بالسماحة. وانفض الجمع.

بطرس لم يستطع مرافقة كلود لانشغاله في دكانه المختص في تصنيع وبيع وشراء المصوغات الذهبية، تقدم بدلًا منه شاب في عمر السابعة عشر لم يتزوج بعد، تطوع ليكون رفيق كلود في تجواله. الشاب اسمه يَنّي البيانكي. هو حفيد بيانكي صاحب أجود مزارع العنب والتين على أطراف الإسكندرية الغربية، وينّي سمع نتفًا من الكلام عن كلود السمين، لذلك تحمس لمرافقة كلود، لكنه لم يحكِ كثيرًا لكلود عن جده السمين، فهو مثل القليلين مثله لم يصلهم من أخبار كلود السمين إلا لمحات بسيطة.

كلود ذهب مع ينّي البيانكي على ظهر حمارين إلى سوق السمك. تركا الحمارين في إسطبل قريب. جلسا على دكّة في مقهى خشبي بسيط أمام السوق يشربان الشاي وحولهم الصيادون الجالسون على الدكك، وعلى مقاعد من القش، وعدد جلس أرضًا. يشربون الشاي ويدخنون النارجيلة ومنهم من يتناول طعامه وهو في الغالب السمك أو الفول والفلافل. زحام من البشر يمرون، رجال نساء أطفال على الأقدام وفوق ظهور الحمير. قاما ودخلا السوق. من المفترض أن السوق بضعة دكاكين بسيطة كما قرأ عنه كلود في مذكرات جدّه كلود السمين، لكنه الآن سوق كبير. شوارع ضيقة على جانبيها عشرات من دكاكين بيع السمك منها الضيق والمتسع وبه أكثر من بائع. والكل جدرانه من الأحجار والسقف من الخشب المُعَرّش. كلود وينّي يمران في الشوارع الضيقة وعلى الجانبين مناضد عرض السمك المفروش على ألواح من الصاج. البائعون ينادون على سمكهم الطازج. النساء والفتيات هن أغلب الزبائن في زحام سوق السمك. ملاءاتهن السوداء تنزاح من رؤوسهن وتستقر أسفل أعناقهن كاشفة الشعر المموج والأعناق والأذرع البضّة. الوجه مكشوف في الغالب والأقل عليه برقع يكاد يغطي النصف الأسفل من الوجه. وحين يزداد الدلال وهن يفاصلن في أسعار السمك الذي يردن شراءه، تنزاح الملاءات أكثر حتى تصل لخصورهن فتظهر جذوعهن الممتلئة والثدي الريان والبطن ذو

البروز الخفيف، فامتلاء النساء هو المطلوب المحبوب هنا. كلود معجب بحالة السوق والناس وعرض الجمالي الأنثوي الذي لا يخفي كلية ولا يكشف عامة. هو ما بين بين. عرض يثير الدهشات ويدفع النفس الذكورية للتشوق لانكشافات أوسع وأعمق للأجساد الأنثوية ومحتوياتها. كلود يتابع باستغراب المفاوضات على الأسعار خاصة بين البائعين الذكور والمشترين من النساء والفتيات. بها الكثير من تثنيات الدلال والمماحكات الكلامية، والنظرات الموحية والابتسامات والضحكات، كلها في مظهرها عادية وفي فحواها جنسية لطيفة، ثم شراء أو لا شراء.

لفت نظر كلود دكان ضيق بسيط. لكن البائع ليس رجلًا، فتاة مائلة للقصر والنحافة ترتدي جلبابًا كأنه جلباب فتى وليس فتاة. مشمِّرة لذراعيها حتى أعلى الكوعين. طرْحتها منسدلة على قفاها. شعرها الأسود ما بين الناعم والخشن يهتز في جمال يبهر كلود. الفتاة تتمايل برأسها وهي تنادي بصوت قوي رغم رقته الأنثوية. يقف أمام الفتاة شاب يزيد في الملاغية معها فتهدِّده بمنشة خوص فيبتعد ضاحكًا وهي تطارده بألفاظ أكيد هي ألفاظ سباب خفيفة. كلود وكأن مغناطيسًا يجذبه فيتجه ناحية الفتاة. وقف أمامها ينظر إليها معجبًا وهو في حالة شرود عميق. الفتاة نظرت إليه مندهشة. شعره الأشقر خصلات منه تتلصص من تحت طاقيته على جبينه الناصع العريض. ضربها سحر عينيه الزرقاوين والشامة التي

على خدّه. وجدته طويل القامة ممشوق الجسد جميل الوجه. في ابتسامته رقّة طيبة. الشاب الجميل ينظر إليها نظرة غريبة. أفاقت وسألته:

– عجبك السمك بتاعنا يا جدع أنتَ؟

– هه!

– أنت بتبص لي ليه كده يا وَلَهْ؟ بقولك عجبك السمك؟

– آه. السمك.

– آه السمك! إيه رأيك في السمك يا خينا؟

– حلو.

– والنبي إيه؟ أنتَ جيْ تشتري والّا جَيْ تتمايص يا بتاع أنتَ؟

– نعم؟

– نعم اللـه عليك وعلى والديك. وكمان نعامة ترفسك. عايز تشتري والّا جاي تلقيح جتت؟

وهنا أتى ينّي في خطوات سريعة وألقى التحية على الفتاة، وأمسك بساعد كلود وأبعده. كلود وهو يبتعد يلتفت ناظرًا في بلاهة إلى الفتاة التي تنظر إليه في تعجب مُعلن وإعجاب تحاول إخفاءه، ثم صاحت فيه وهي تحرك أصابع يسراها باستدارة بجوار صدغها:

– والنبي أنت باين عليك مُخَّك ترلّلي.

لم ينقض وقت، إلا وعاد كلود متجهًا لدكان الفتاة. كانت تجمع بعض السمكات وتضعها في وعاء امرأة. المرأة أخذت سمكها وابتعدت. رأته مقبلًا فقالت:

– دا إحنا يومنا مش فايت النهاردة.

وقف أمامها كلود وقال:

– أنا عايز سمك.

– ماشي. نقّي اللي أنت عايزة.

– دول. دول حلوة يعني كتير.

– أنت يا وله مُش من هنا؟

أجابها ينّي الذي جاء مسرعًا:

– من بلاد الفرنسيس. تاجر كبير ابن تجار كبار.

– طب وأنا ما لي. تاجر كبير والّا ابن تاجر أي كلام. أنت بتحلّله أنت راخر؟

– لا أبدًا يا كَدِيسة، هوّه أنا بتاع كدّه برضه.

– آه. بَحْسِبْ.

ابتسم كلود فبانت أسنانه اللولية فأطاحت ببقية عقل الفتاة ورجّت قلبها أكثر.

– اسمك إيه يا ست؟

– ست إيه بقى يا بتاع الفرنسيس. ماشي. اسمي كَدِيسة.

– كَدِيسة! معناها إيه؟

– قطة.

– أنتِ قطة بجد؟

– دخلنا في المألسة. لأ يا شاطر. أنا قطة بهزار. أقولك؟ أنا عفريتة.

– عفريتة! ها ها. بتضحكي؟

– لأ. بعيط. هئ هئ هئ.

– هاها.

– اسمع لما أقولك، والّا أقولك. مش حقولك أنت. اسمع يا شاب يا اللي معاه أنتِ يا اللي اسمك ينّي. خد الفرنسيسي ده وامشوا من هنا، وإلّا وديني وأيماني حَعْمِلُكُمْ خَروجة النهاردة.

– لا. لا. إحنا ضيوف عند عمك بَرَكَة.

– طيب. حنسكت عشان خاطر عمنا بَرَكَة.

تدخَّل كلود:

– هاتي نص السمك اللي عندِكْ.

– نص السمك اللي عندي؟

– صح.

– صحتين وعافية. حاضر. أنتِ باين عليك غني حبّتين وحِتَّة. آه ما ما أنت ابن تاجر كبير. ماشي. وعشان خاطرك، حنديك "غلق" خوص هدية مني يا فرنسيسي يا "غلق".

أخرج كلود من جيبه عددًا من قطع النقود الفضيّة وفرد كفّه أمام كَدِيسة لتأخذ حقها بنفسها. لم يفاصل ولا يلاوعها في ثمن السمك! نظرت إليه متعجبة. أخذت قطعتين. تناول ينّي بيمناه الغلق الخوص الممتلئ بالسمك، وبيسراه أمسك بساعد كلود وسحبه بعيدًا. فسمعا الفتاة وهي تغني:

– فرنسيسي النيسي كَوَنِيسي. لالالا. اللالا. كوالالا.

ضحك ينّي وكلود واستمرا في السير حتى دكان بَرَكَة الذي يعرفه كل من يجيء إلى سوق السمك. الدكان في ساحة متسعة من السوق، والدكاكين فيها أوسع وبائعوها وزبائنها أكثر. أما دكان بَرَكَة فهو متوسط. تميزه تكعيبة العنب التي تحيط بجدرانه،

والمقعد الخشبي الواسع المتين لكي يتحمل ثقل جسد بَرَكَة الذي يجلس عليه طوال النهار. دكَّة على يمين بَرَكَة ودكَّة على يساره مخصصتان لأصدقائه الذين يحبون الحكي معه. بَرَكَة سمين جدًا. يرتدي جلبابًا فضفاضًا ليريح جسده المترهل. على رأسه الطاقية الشهيرة في الإسكندرية. قماشية بيضاء ذات حافة تحيط بقمتها. كرشه شاسع عرضًا وبروزًا، عيناه وكأنها ستنعسان لينام لكنه لا ينام. ذقنه غير حليق دومًا وأسنانه صفراء وإن كانت ابتسامته مضيئة وضحكته مشرقة. مظهره عجوز عجوز، لكنه لم يكبر في السن لهذه الدرجة، هي حسرة في داخله رغم وجهه الذي لا يفارقه المرح. تغضنات وكرمشات محفورة في كل وجهه وعنقه وكفي يديه، تلك التغضنات والكرمشات تشير أن الساعة من عمره محسوبة عليه ساعتين. واليوم يومين، بَرَكَة يحمل ثقل عمره وثقل مأساته المكبوتة في نفسه، والتي لا يحكي عنها ولا يحب أن يلمّح لها أحد. أقرب صديق لبَرَكَة هو عصمت كوسا! نعم.. رغم فقر بَرَكَة وغنى عصمت كوسا، فهما من صغرهما أقرب صديقين لبعضهما، وإن كان عصمت كوسا لم يعد يزور بَرَكَة كثيرًا. بَرَكَة أصلًا ليس اسمه بَرَكَة. لأنه بالغ الطيبة ولا يحمل كرهًا لأحد مهما فعل هذا الأحد، ولأنه من طفولته محظوظ مبروك في الصيد، صار اسمه بَرَكَة. ومن وقت أن صار صبيًا، كل مركب ستتوغل في البحر للصيد الكبير، تتنافس لأخذ بَرَكَة معها. فوجود بَرَكَة في

المركب معناه الأمان لها مع وفرة الصيد. بَرَكَة كان يفضل مراكب عصمت كوسا. مأساته بدأت من وقت أن أحب البنت سونة الجميلة التي كان الكثيرون يتمنون الزواج منها، لكن سونة فضلت بَرَكَة على غيره. عصمت كوسا فرح، لأن صديقة بركة فاز بسونة، فمنح بركة بيتًا وسط بيوت الصيادين في حي الطابية، ودكانًا في وسعاية السوق على أن يسدد له بركة حسب رزقه. أنجبت سونة طفلًا أطلق عليه اسم حميدو. وحميدو من أشهر أسماء صيادي الإسكندرية. ثم كانت فاجعة بركة. ماتت سونة بحمَّى النفاس، وتركت حميدو يتيم الأم. الفجيعة زلزلت بركة وحطمته، كان يحب سونة حبًا هائلًا. ساعده عصمت كوسا وآزره ليمر من محنته كما ينبغي للصديق أن يفعل. عصمت أحب الرضيع حميدو واعتبره ابنه مثل ابنه نظمت الذي أنجبه بعد عام من مولد حميدو. كثيرًا ما يأتي كوسا ليحمل الطفل حميدو ويشتري له ما يحتاجه من ملبس وحلويات، وتكفل بعلاجه سريعًا حين أصيب بمرض في عينيه، يقول بَرَكَة مؤيدًا عصمت كوسا: إن أجمل ما في حميدو هو عيناه، فعيناه صورة من عينيّ أمه. لم يعد بَرَكَة صيّادًا، صار مجرد بَرَكَة يأخذونه في مراكب الصيد ليحميها ويزيد من رزقها. عصمت كوسا يصمم على وجود بَرَكَة في مراكبه هو، خاصة بعدما كبر ابنه نظمت وصار يصعد على المراكب التي تبحر في أعماق البحر. وفي يوم غرقت المركب التي عليها نظمت كان بَرَكَة مريضًا ولم يستطع

الذهاب في هذه الرحلة. تأكد للصيادين أن بَرَكَة فعلًا بَرَكَة. غرق نظمت هي مأساة عصمت كوسا المعروفة، وغير المعروفة هي مأساة ابنته الجميلة الغبية المحتاسة. أما غير ذلك من مآسٍ فالله أعلم بمخلوقاته. عصمت كوسا قاوم فجيعة فقد ابنه بالاستغراق في العمل، لكن بَرَكَة بعد موت نظمت لم يعد يخرج في رحلات الصيد. بقي جالسًا أمام دكانه طوال النهار. تكفل عصمت كوسا بكل ما يحتاجه بَرَكَة هو وابنه حميدو الذي صار فتيًا، وساعد حميدو حتى يتزوج من فطّومة. فطومة أنجبت طفلة اسمها عنبة. وعنبة اسم أُخِذَ من تكعيبة عنب جدها بَرَكَة. حميدو بن بَرَكَة مظهره فِتُوّة بطوله البائن وعرض أكتافه وقوة أطرافه وتعمُّده خشونة صوته. وفي نفس الوقت سرعة حركته وسطوته وقت الشجار الإسكندراني، الذي يُستخدم فيه دائمًا الضرب بالرأس، ويقال عنها روسية، والضرب بالركبة في الخصيتين ويقال عنها نص ركبة، وعرقلة الغريم بوضع ساق خلف ساقه ودفعه فجأة، ويقال عنها مقلب حرامية. حميدو أبرع من يتشاجر بالإسكندراني، ويضاف إليها وبراعته إن تطور الشجار وأشهرت الأسلحة البيضاء. فهو الأمهر في استخدام خنجره الذي لا يفارق حزامه. رغم كل هذه القوى التي له، فملامح حميدو محايدة عادية لا تخيف، بل هي تريح الناس وتقربهم منه. وما يعجب النساء فيه ليس فقط قوته الظاهرة، بل عيناه الواسعتان الآسرتان وملامحه الانسيابية مثل ملامح أمه،

مع مهارته ورشاقته وانسيابيته في الرقص، ويقول حميدو مفاخرًا: من لا يستطيع الرقص بجمال، لا يستطيع المبارزة بمهارة. حميدو من بداية صباه في حزن ما. بينه وبين أبيه بَرَكَة حب عميق وحيرة ما، يحسها حميدو ولا يفهمها. حميدو يحس بأن أباه بَرَكَة في حزن مكتوم لا يريد أن يفضي به لأي إنسي، يداري مأساته حتى عن ابنه الوحيد حميدو.

أغرق حميدو نفسه في السكر حتى صار هو سكير سوق السمك وحي الطابية المجاور. يعشق البوظة وكل أنواع الخمور. كل ليلة هو في سُكْرِ بَيِّن وفي النهار نائم حتى العصاري. ولما انحدر حميدو ليكون مخمورًا في أغلب يومه، ولم يعد يصطاد لا في البر ولا في البحر، طلبه عصمت كوسا ليعمل في دكانته الكبيرة التي بالساحة. له أن يذهب للدكان في أي وقت ويترك الدكان في أي وقت، ويعطيه عصمت أجرًا أعلى من الجميع، رغم عدم رضاء برهومة ولا الملتحيْين اللذين يديران الدكان. عصمت كوسا راضٍ بهذا من أجل بَرَكَة ومن أجل حميدو نفسه. لولي تعترض على كل هذا الحب العميق الذي يجمع بين أبيها وبَرَكَة ثم بين أبيها وحميدو. ترفض أي علاقة ودّ بين عائلتها الغنية وبين الفقراء. وكانت تؤنب أخاها نظمت لصداقته بحميدو، لذا لا بَرَكَة ولا حميدو يزوران عصمت كوسا في بيته.

نعود لأحداث كلود. بَرَكَة يضحك متعجبًا من كثرة السمك الذي أتى به كلود! إنه مع ينّي البيانكي معزومان على الغداء مع بَرَكَة وعائلته، فلماذا يأتي كلود بسمك وبَرَكَة عنده دكان يبيع السمك؟ نادى بَرَكَة على فطّومة فأتت وأنّبتهما على إحضارهما كل هذا السمك. كلود لاحظ أن بَرَكَة غاية في الطيبة، وأيضًا غاية في السذاجة، كثرة التجاعيد المحفورة على وجهه وعنقه تمنحه وقارًا. الطفلة عنبة في الثالثة من عمرها. حافية تجري هنا وهناك وتعود لتثب في حِجر جدها. عنبة ذهبت لينّي ثم كلود الذي مال إليها كثيرًا. كلود وهو يلاعب عنبة سأل بَرَكَة عن كَدِيسة بائعة السمك. ابتسم بَرَكَة ابتسامة إعجاب ورضاء وقال إنها فتاة جدعة. من صغرها وهي في السوق تبيع وتشتري السمك. تساعد أباها العجوز حليمو الذي لم يعد له في الدنيا غير تدخين "الجوزة" والشجار مع زوجته سعدية. وكيف أن اسمها كَدِيسة؟ القطط في سوق السمك كثيرة، طعامها من السمك الذي يُلقى أرضًا لعيْب فيه. عندما كانت طفلة تحبو، تعلقت بساق امرأة نوبية سمراء تشتري السمك. أولًا ظنت المرأة أن قطة تتعلق بها لتنال سمكة. لكنها وجدت طفلة تتعلق بها! فضحكت المرأة وقالت ما هذه الكَدِيسة الجميلة؟ سألوها عن معنى كَدِيسة، قالت قطة. ومن هنا كان اسم كَدِيسة. كَدِيسة لها أخ أكبر منها اسمه هِنّس، وأخت أكبر منهما اسمها عِزّو، هِنّس يعمل في مركب صيد تابعة لعصمت كوسا. لم يدر بخاطر

بَرَكَة لماذا يسأل كلود المسيحي الإفرنجي عن فتاة مسلمة! لكن ينّي سارع لإبعاد هذا الخاطر. قال إن كلود معجب بطريقتها في البيع والشجار، حتى إن كَدِيسة أطلقت اسم الفرنسيسي على كلود. ضحك بَرَكَة فاهتز كرشه مرحًا، وأكد أن كَدِيسة فتاة عندها الجرأة والمقدرة أن تتشاجر وتتضارب مع عشرين من الحريم وعشرة من الذكور. ولا ننسى كلنا أنها حاولت وهي طفلة أن تخرج مع مراكب الصيد وكأنها رجل من الرجال، فوافقوها مرتين لمجرد الضحك، ثم ضربها أخوها ومنعها.

الخاطر المقلق الذي جال في فكر يَنّي حدث بالفعل. كلود الفرنسيسي لم يعجب فقط بطريقة بيع كَدِيسة، لكنه سقط في شباك كَدِيسة، وكَدِيسة لم تنصب له الشباك قصدًا. وكلود أيضًا لم ينصب الشباك لتقع كَدِيسة في حبه، لكن هذا ما حصل. الاثنان وقعا في غرام بعضهما.

كلود يداعب الطفلة عنبة وقلبه يناجيه.

– لقد رفضتُ الارتباط بكل جميلات مرسيليا من أجل فتاة أنتظرها، فهل كَدِيسة تلك الفتاة؟ وكيف؟ هي جميلة فعلًا رغم أنها ليست طويلة عريضة الأكتاف مليئة القوام كنساء آل فيكتور. وليست متعلمة، وليست من عائلة غنية قوية مثلهن، فكيف وقعت هكذا في غرامها وأنسى نصيحة جدي كلود الأول؟

وكَدِيسة نفسها وقعت في بحر زرقة عيون كلود وشقرة لونه وذهبية شعره، وأيضًا الشامة التي على خدّه. أحبته. لقد عشقته في دقائق. كلود حين ابتعد عنها وغنت له.. فرنسيسي النيسي كَوَنِيسي. لالالالا. اللالا. كوالالا. كانت تحاول أن تلهي نفسها عن اضطراب قلبها وسرعة خفقانه. كانت في حالة غريبة وجسدها القصير يتمنى أن ينط على كلود ويحتضنه وتتعلق برقبته. وشفتاها تتمنى تقبيل شفتي كلود اللتين بلون الفراولة! لطشها كلود بجماله النادر. تتساءل: ماذا جرى لي؟ هذا ما تقوله لنفسها وهي تنادي على السمك بطريقة فاترة غير معهودة منها. كَدِيسة أبعدت الكثير من الشباب الذين تمنوا أن ينالوها زوجة، الآن هي تتمنَّى أن تقترب من هذا الشاب الأشقر الفرنسيسي. ماذا حدث؟ ما حدث، أن الشابين كلود وكَدِيسة غرقا في عشق بعضهما، وكلاهما لا يدري كيف ستكون نهاية تلك القفزة العشقيَّة الذاهبة إلى المجهول؟

سوق السمك صار مزارًا يوميًا لكلود. ينّي البيانكي ابتعد بعدما صارحه كلود بأنه وقع في عشق كَدِيسة! أبلغه ينّي بأن ما يقوله خطير، ولن ينتهي إلا بكارثة. كلود الحجّة الظاهرة في وجوده بالسوق، هي حبه للطفلة عنبة واهتمامه بحكايات العجوز بَرَكَة. يأتيهم كل ظهيرة ويبقى للغداء ثم شرب الشاي. لم يعد كلود اسمه كلود. صار اسمه الفرنسيسي. بَرَكَة يحكي عن ماضيه في الإسكندرية وكيف كانت، وكيف أن الدرافيل كانت تأتي لشواطئها

حتى انزعجت من كثرة البشر والضوضاء فابتعدت. وكيف كان السمك أكثر وأطول وأسمن بكثير من الآن. والناس أكثر طيبة وحبًا وعشقًا للغناء والرقص. عن الخير بتاع زمان وكيف كانت النسوان زمان أرق وقويات منطلقات قادرات على العشق.

في الجهة المقابلة من الوسعاية يوجد أكبر دكان لبيع السمك في السوق كله، مساحته واسعة عرضًا وعمقًا. الدكان تابع للمعلم الكبير عصمت كوسا. يعمل به ما لا يقل عن عشرة من الرجال، شابان ملتحيان متشددان هما من يديران هذا الدكان الكبير، أحد الشابين ظاهر القوة ظاهر الغلظة، مشهور في السوق باسم المتعافي. لا يبيعان السمك لأي فتاة أو امرأة تكشف عن وجهها أو تكشف عن عنقها وأعلى صدرها. الشابان تابعان لبرهومة أكثر من تبعيتهما لعصمت كوسا نفسه. وهما بموافقة برهومة من اقتطعا جانبًا من الدكان وجعلاه مصلى رغم وجود جامع أمام السوق. وقت الصلاة يؤذن زميل المتعافي والمتعافي يؤم الصلاة وخلفه زميله ومن يأتي من البائعين والمشترين. الملتحيان يقبلان حضور حميدو بعد كل عصر رغمًا عن أنفهما، يكرهانه ويكرههما. المتعافي ذهب لبَرَكَة وأعلن قلقه من حضور الفرنسيسي كل يوم، وأن الفرنسيسي ليس فقط مسيحيًا، بل فوق ذلك هو من الإفرنج. ابتسم بَرَكَة وقال إن الفرنسيسي طيب. فعاد الملتحي المتعافي أكثر كرهًا للفرنسيسي. بَرَكَة لم يفكر ولم يفطن للسبب الأساسي الذي يأتي له الفرنسيسي. ولم يفكر في أن

الفرنسيسي يشتري السمك من الفتاة كَدِيسة ثم يوزعه على الأطفال الفقراء بحيث صار مشهورًا عند هؤلاء الأطفال وصاروا ينتظرونه. فطّومة هي التي فطنت. وهي التي أبلغت زوجها حميدو بَرَكَة.

وافقت كَدِيسة على مقابلة الفرنسيسي في مكان هادئ. ذهبا بجوار القلعة القديمة التي تطل على ميناء الإسكندرية الشرقي. كَدِيسة سعيدة بأن الاسم الذي أطلقته على كلود صار هو المشهور به، الفرنسيسي. أكد لها الفرنسيسي أنه يحبها. كَدِيسة أجابته بدمعات غزيرات تبين مدى حبها له. لم تمانع وهو يحتضنها فكان رأسها مرتاحًا على صدره وقمة رأسها تحت ذقنه الحليقة. لم يحاول أن يتجاوز الحد ولم تحاول. لكنهما تأكدا في هذا الحضن، أنهما لبعضهما ولن تفرقهما لا منغصات الدنيا ولا الشروحات المُلْغِزَة لرجال الدين. وتكررت المقابلات سواء عند القلعة أو في شبه الجزيرة النحيفة المسماة بالسلسلة، ومكانها أمام أطلال مكتبة الإسكندرية.

السلسلة لسان حجري يتوغل في البحر مسافة ليستكمل نصف دائرة الميناء الشرقي. يستفردان بنفسيهما في جانب من اللسان المحاط بالصخور والبحر الممتد. فلا يراهما أحد، وهما يتبادلان القبلات المهتاجة التي لا تتوقف. كَدِيسة في لهيب القبل والأحضان دموعها لا تتوقف إلا لتعود فتبلل خديها وعنقها. قلقة تتساءل.. ماذا

سيكون مصيرها ومصير حبها؟ هي مسلمة وهو مسيحي، فكيف سيتزوجها ويبر بقسمه لها مرارًا أنه قطعًا سيتزوجها مهما كانت العقبات؟ إن كانت هي المسيحية وهو المسلم لهان الأمر، لكن الشيوخ يقولون إن دينها الذي يوافق على زواج المسلم من مسيحية، يمنع زواج المسيحي من مسلمة؟ كلود يكرر عليها أن لا خلاف كبير بين الإسلام والمسيحية، فكلاهما طريقان إلى اللـه. يؤكد أنه قرأ الكثير عن الإسلام وفهم الكثير وقرأ أمامها وهي متعجبة بعض الآيات القرآنية التي يحفظها. لكن، وما أقسى كلمة لكن. لكن عددًا من الشيوخ صاروا يؤكدون للناس أن المسيحيين كفرة!

رغمًا عنه لن يذهب الفرنسيسي هذا اليوم إلى سوق السمك. صباحًا زاره شخصيًا كبير من كبار تجار السمك. عزمه على الغداء. وافق الفرنسيسي محرجًا من إلحاح عصمت كوسا. عصمت من كبار تجار الإسكندرية له مهابة. في الظهيرة أتاه برهومة على حمار. كلود على ظهر حماره رافق برهومة. لم يسترح أبدًا مع برهومة. شعر لأول وهلة أن هذا الشاب بعينيه الغامضتين الماكرتين رافض له بإصرار رغم ابتسامته اللزجة.

بيت عصمت كوسا في منطقة كبار القوم، واسع أنيق ذو حديقة واسعة، على جانب منها مبنى صغير للخدم. بعدما دخل من الباب الكبير للبيت، اتجه برهومة إلى مبنى الخدم. تقدم الفرنسيسي وحده،

دخل البهو الواسع المؤسس برياش ثمين. في الوسط نافورة أنيقة. ومشربيات عالية على الجوانب تدخل الهواء والنور بلطف. استقبله عصمت كوسا. جاء عصير الليمون. يتحادثان معا في ابتسامات ومجاملات. الفرنسيسي لم ينتبه أن في الدور العلوي مكان نساء البيت. وخلف مشربية ما تجلس لولي ابنة عصمت كوسا وبجانبها أمها كريمات، تتمعنان في الفرنسيسي. لولي تكاد الفرحة تقفز من ملامحها، وتكاد هي تقفز من أعلى لتسقط في حضن الفرنسيسي. الفرنسيسي بالتمام والكمال هو الشاب الذي تحلم به وتصر على الزواج منه، وأن تنجب منه خمسة من الأولاد يكونون جميعا شقرًا ذوي عيون زرق. من قبل حضور كلود كانت لولي قد سمعت عنه عن طريق خادمتها الخاصة حسنات. نظرت لولي لأمها فرحة وأمها تنظر إليها راضية وهي تدعو اللـه أن يكون الفرنسيسي من نصيب ابنتها، ولا يهمها كونه مسيحيًا، هذه مشكلة سيفكرون في تخطيها وقتها. بعد أن تناول الفرنسيسي الغداء مع عصمت كوسا. صعدا إلى الدور العلوي وجلسا في حجرة فخمة. دخلت عليهما كريمات وخلفها ابنتها لولي. عصمت عرّف الفرنسيسي بزوجته وبابنته. انحنى لهما الفرنسيسي وقبّل ظاهر يدي كريمات ولولي وسط دهشتهما ودهشة عصمت كوسا نفسه. كريمات تحادثت مع الفرنسيسي وسألت عن عائلته وبعض التفاصيل. الفرنسيسي يجيب ببراءة ولا يعلم أن لولي سقطت في حالة خاصة بها، حالة حلم

حَوَّلته لواقع لا مفر منه. واقع أن الفرنسيسي صار زوجها المقبل ولا جدال في هذا ولا ظل من الشك. الفرنسيسي أبو أبنائها الخمسة لا حيدة عن ذلك. ثلاثة صبيان وفتاتان وكلهم شقر وشعورهم ذهبية وأعينهم زرقاء. لم يهمها أن أباها وأمها ذهلا أن عائلة الفرنسيسي أغنى منهما كثيرًا وكثيرًا جدًا. لولي كلما حاول الفرنسيسي أن يحادثها وجدها هائمة لا تكاد تفهم سؤاله! تنظر إليه نظرات هيام ساذجة، لكن النظرات مع سذاجتها نظرات جادة! كيف؟ لا يعلم. كاد أن يبتسم الفرنسيسي ساخرًا، لكنه ابتسم محرجًا وقد وجد الحرج على وجه والدها ووالدتها. شرب الشاي ثم استأذن وقبّل ظاهر يدي كريمات ولولي مرة ثانية، أوصله عصمت كوسا للباب الخارجي وصافحه مودِّعًا بوقار. أسرع برهومة من مبنى الخدم ليقوم بتوصيل الفرنسيسي. برهومة في غلٍّ وحقدٍ على الفرنسيسي وقلق منه. متأكد أن لولي ستعجب بهذا الأشقر، فهي لا تحب ولا تحترم من هم في لون برهومة.

الفرنسيسي يبتسم لنفسه متعجّبًا من حالة لولي. إنها جميلة فعلًا وتشبه نساء عائلته في الجمال الظاهري وقوة الجسد، لكن بها هزّة داخلية غريبة! أكيد أنها غير طبيعية، وإلا ما نظرت إليه نظرات الاشتهاء الواضحة في وجود أبيها وأمها، ثم نسي الفرنسيسي الأمر، لكن الأمر لم تنسه لولي. بعد انصرافه لولي احتضنت أمها وأباها فرحة بما جرى، وبالفرنسيسي الذي جاء ليتزوجها! وعندما

صاح أبوها بأن الفرنسيسي لم يطلب الزواج منها، صرخت غاضبة متهمة أباها بأنه يتعمّد تخريب زواجها من حبيبها! وأن الفرنسيسي طلب الزواج منها بمجرد أن قبّل ظاهر يدها ويد أمها. ولا يمكن أن يتحلل من طلبه هذا. وبدأت مأساة من مآسي البشر المخبولين تتصاعد لهاوية ستسقط منها.

استيقظ حميدو مبكرًا، وحين جاء الفرنسيسي وجد حميدو جالسًا متجهمًا بجوار والده بَرَكَة الذي تضربه الحيرة والقلق. انفرد حميدو بالفرنسيسي. حادثه بحدّة، أكد له بأن كَدِيسة مثل أخته، وأنه لن يترك الفرنسيسي يؤذيها أو يلوث سمعتها، وأنه مستعد لاستخدام العنف في سبيل ذلك. وفي نفس الوقت أحس الفرنسيسي بحد خنجر ينغزه نغزًا محسوسًا في جانبه الأيسر. حميدو يهدده. الفرنسيسي لم يهتز. أكد أنه يحب كَدِيسة، وقبل أن يتهور حميدو قال له الفرنسيسي إنه يريد أن يتزوجها! حميدو في تعجب، يشرح للفرنسيسي في عصبية أن لا زواج لمسيحي من مسلمة، لكن الفرنسيسي لا يريد أن يفهم هذا. كيف يتزوج مسلم من مسيحية والعكس لا؟ انفعال حميدو زاد فأتاهما بَرَكَة. في رجاء طلب من الفرنسيسي أن يترك السوق بضعة أيام، فبعض الشباب يريدون إيذاءه.

ظهر اليوم التالي لم يستطع الفرنسيسي الانتظار، ذهب لسوق السمك فوجد أربعة من الشباب يتصدوْن له تحت قيادة الملتحي

المتعافي، وأصروا أن يمنعوه من دخول سوق السمك. الملتحي المتعافي يمسك بعصا غليظة. اتهموه بأنه يهين رجال سوق السمك بتعديه على فتاة من فتيات السوق. الملتحي المتعافي يتهمه بأنه مسيحي يريد إغواء مسلمة. وفجأة أتى شاب من بعيد وتوسط الأربعة وأخذ يكيل السباب للفرنسيسي ويدفعه من كتفه ليبعده عن السوق. الشاب هو هِنَّس أخو كَدِيسة. ابتعد الفرنسيسي بعد أن تدخل عدد من كبار السن طالبين ابتعاده حتى لا يتطور الأمر. النساء والفتيات يتابعن وهن يتمعنَّ في الفرنسيسي. خطف حشاهن بوسامته الشقراء وصباه ورقته وعدم محاولته ردّ العنف بالعنف رغم وضوح قوته.

خلف سوق السمك تقع منطقة الطابية. منطقة ليست شاسعة الاتساع. صفوف من البيوت الصغيرة ذات الطابق الواحد. بينها وبين البحر مسافة صغيرة من الرمال ثم صخور واطئة حادة، لا تحوي غير ثلاثة أمكنة يمكن الجلوس عليها. معظم السكان هم الصيادون. المكان كان هادئًا فيما مضَى، الآن صار مزدحمًا، كان مكانًا للاستجمام صار مكان سكن مترعًا بالناس. هنا كان بيت بسبوسة عشيقة كلود الثاني السمين.

كَدِيسة في بيتها تبكي. غاب عنها كلود يومًا فخافت أن يكون حدث له مكروه. بعد الغروب مباشرة أسرعت إلى بيت أختها عِزّو.

ارتمت في حضن أختها باكية. صارحتها بعشقها للغريب الإفرنجي وأنها لن تكون لغيره. لطمت عِزّو خديها وصوّتت بصوت مكتوم حتى لا تفضح فضيحة أختها. صفعت أختها صفعتين ثم أخذتها في حضنها، تبكيان معًا. هدآ قليلًا. يجب أن تنسي هذا العشق تمامًا، هكذا قالت عِزّو مهدِّدة. تهز كَدِيسة رأسها هنا وهناك معبرة أنها لن تنسى عشقها للفرنسيسي. شددّت عِزّو أنه حاليًا عليها الاحتراس وكتمان هذا العشق المستحيل. لكن كيف يمكن كتمان عشق مشتعل بين مسلمة وإفرنجي مسيحي؟

انفضح العشق وفاح هنا وهناك ثم طار لبعيد، تخطى حي الطابية وسوق السمك ليكون حديث النميمة في الأماكن المجاورة. تَزَيَّد البعض في تفاصيل العشق وأوصلوه أن العلاقة تطورت وفقدت كَدِيسة بكارتها! لكن هذا التَزيُّد لم يصل بعد لعائلة كَدِيسة. منعها أخوها من الذهاب للدكان لتبيع السمك. أمها سعدية تشاجرت مع زوجها حليمو والد كَدِيسة، تتهمه بأنه صار مثل الخصية، لا لزوم له. فليس له دور في فعل ما، هو شيء يتدلى، وفي نفس الوقت نقطة ضعف إن نال ضربة ما. تضغط عليه أن يترك تدخين الشيشة ويذهب للدكان يشتري ويبيع بدلًا من ابنته. ويمنعها تمامًا من بيع السمك. ابنته التي ستأتي لهم بالقيل والقال.

في الليل التفوا حول كَدِيسة ليهددوها. قالت بعفوية وصراحة

صادمة إنها تحب الفرنسيسي وهو يحبها وهو يريد الزواج منها وهي لن تتزوج غيره! صرخت سعدية ولطمت على خديها. وهجم هِنّس على كَدِيسة وضربها ضربًا مبرحًا. أما أبوها فصار يضرب كفًا بكف، فابنته الصغرى هذه من صغرها اتضحت جدعنتها وشطارتها في بيع السمك وتسهم في معيشة العائلة، من صغرها وهي تتصرف مثل الأولاد الذكور، وتلعب وتتضارب معهم متعالية على الفتيات. قصرها ونحافتها ساعدتاها على التصرف مثل الذكور.

كلود الفرنسيسي في غُلب. المصاعب تواجه حبه الذي كان يحلم به من سنوات. يأتيه عدد من كبار التجار فرادى وثنائيات لينصحوه. أتاه ينّي البيانكي يحذره. أتاه بطرس خائفًا عليه، صارحه.. المجتمع المنزلق للكراهية رفض زواج مسلم من أخته دميانة، فهل سيوافق هذا المجتمع على زواج مسيحي إفرنجي من مسلمة! إن تماديت سيقتلوك. كلود لا يلين. في هذا الخضم من المتاعب التي تتصاعد في سوق السمك ومنطقة الطابية وتنتشر خارجها، وصلت المتاعب واخترقت المنطقة الراقية التي يسكن فيها عصمت كوسا. الخادمة حسنات التي تسكن في منطقة الطابية، أوصلت الخبر بعد أن شاع تمامًا، إن كلود الذي اشتهر بالفرنسيسي، يحب الفتاة كَدِيسة، ويريد الزواج منها! خشيت أن تضربها لولي إن تأخرت في الإبلاغ. انطلقت الصرخات من داخل بيت عصمت كوسا. لولي تصرخ

وتمزّق شعرها وملابسها. ارتمت تتمرغ على سجاد بيتها. أمها كريمات لم تستطع أن تهدئها. أغمى على لولي. أتى والدها ليلًا. دخل عليها فوجدها في ثورة، ووجهها في حمرة الجزر الأحمر وعيناها كأسان من الدم. جلس بجوارها وقبل أن يحادثها أبعدته بغلظة واتهمته أنه تخلى عنها منذ البداية، فلم يعترف بأن كلود طلب الزواج منها، والآن لا يفعل أي شيء لاستعادة زوجها كلود! عصمت خرج من الحجرة يحاول أن يتماسك. وفي حجرته وكريمات تربت على ظهره لتهدئه صاح متألمًا ينعي ابنه المفقود:

– آآآه يا نظمت. غرقت من سنين وتركت أختك في بحر جنان يكوي قلبي. ياااارب. رحمتك يا رب.

يبكي وتبكي معه كريمات على فجيعتها في ابنهما الغريق وابنتهما المختلة، تبكي حسرة على زوجها الذي يكاد ينهار وعلى نفسها المتماسكة غصبًا، فإن انهارت كريمات، انهار البيت بمن فيه.

حميدو أقرب الشباب لعائلة كَدِيسة. قبل أن يذهب لعمله سمع الشجار والأصوات العالية. صوت كَدِيسة واضح تمامًا وهي تلعن شابًا ما. أسرع فكانت المشاجرة فعلًا بين كَدِيسة والفتى الملتحي المتعافي الذي يسانده زميله في الدكان وثلاثة من الشباب الملتحين من أبناء منطقة الطابية. المتعافي يقسم أنه لن يترك هذا العار. ما العار؟ العار أن فتاة وجهها مكشوف شعرها مكشوف صوتها مكشوف تبيع

السمك للذكور! هذا عار على المسلمين وعلى الإسلام. يجب أن تختفي كَدِيسة من السوق، خاصة أن الإفرنجي صار يتقرَّب منها، وهذه نكبة على مسلمي الحي. عار على كل رجل في السوق أن يترك هذه المسخرة تجري أحداثها أمام أعينهم، وإلا نكون كلنا قوادين. زحام وكَدِيسة تبعد من يمسكون بها لتصل للمتعافي وتضربه. ولما اتضح أن كَدِيسة انتصرت في الردح واستطاعت السخرية من المتعافي، لم يجد المتعافي منفذًا له إلا باتهام كَدِيسة بأنها غير مختونة وهذا هو السبب في سوء خلقها وهياجها وارتمائها على الشباب وعلى الإفرنجي الأشقر. المتعافي ضربه الذهول من جرأة كَدِيسة في الرد عليه بالسباب ونعت أمه وأبيه بكل أنواع الشتائم المقذعة. ثم أخافته بالفعل حين استلت سكينًا صغيرة لا يُعرف من أين، وأبعدت من حولها وهجمت عليه لتطعنه لولا أن أمسك بها شاب جريء. المتعافي يتقهقر هو ومن معه في هزيمة واضحة. حميدو أسرع وهو يسمع توالي وتعالي السباب المتبادل. صوت كَدِيسة وسبابها للملتحي أوضح وأقسى. وقف حميدو أمام كَدِيسة وأمسكها من كتفيها لتهدأ. كَدِيسة تصرخ وتحكي لحميدو كيف أن المتعافي أبا ذقن حقيرة طلب منها أكثر من مرة أن تترك العمل في بيع السمك، وتقبل الزواج منه كزوجة ثالثة، بحجة أنه من العيب أن تعمل ويراها كل ذكر. ولم تخجل أن تقول له إنه يعايرها بعدم ختانها. بقدوم حميدو أمام الملتحي توقف هذا عن الصوت العالي ونظر في خوف وتخويف

لحميدو. حميدو تقدم منه وقال له ببساطة وتوكيد:

– مالكش دعوة بكَدِيسة. كلمة زيادة في حقها حَنْتِف لك دقنك العيرة.

ببعض الاحتجاجات المظهرية انسحب الملتحي المتعافي ومن يؤازرونه. فحميدو فتوة قوي ولاعب بالخنجر ليس له مثيل، وأغلب الملتفين حولهم يكرهون المتعافي ويتضامنون مع حميدو وكَدِيسة. ابتعد المتعافي فالتفت حميدو وأخذ خطوات ناحية كَدِيسة وأمرها:

– وأنتِ. ارجعي لدكانتك.

الذين التفوا حول الشجار يعرفون أن حميدو توفيت أمه بعد أن ولدته بِأيام، والتي تولت تربيته ورعايته هي سعدية، لذلك حميدو يعتبر سعدية أمًا له وأبناءها إخوته، وواجب عليه أن يحميهم كلهم.

بعد الغروب بقليل، وبمجرد أن عادت كَدِيسة لبيتها، أتاهم حميدو غاضبًا. العائلة كلها؛ حليمو وسعدية والدا كَدِيسة، وأخوها هِنِّس وأختها عِزّو، كلهم معًا ما عدا كَدِيسة المنفردة بنفسها في حجرة صغيرة جانبية. يتكلمون جميعًا عن انفجار فضيحة الحب بين الفرنسيسي وكَدِيسة، عن الخزي الذي سببته وتسببه كَدِيسة بطيْشها واندفاعها في هذه العلاقة المُحرمة. ما العمل مع هذه الفتاة برأسها الصلدة؟ اقترح

حميدو إبعاد كَدِيسة عن السوق لفترة. وإن لم يبتعد الفرنسيسي عن السوق، فهو على استعداد لضربه. أخذ حميدو نفسًا عميقًا وتهور في الكلام وبيَّن وإن كانت هناك ضرورة لقتله سيقتله! صرخت سعدية لا. قتل لا يا بني. المفاجأة أن كَدِيسة التي تتابع الحوار، فتحت باب حجرتها واندفعت كاللبؤة ووثبت على حميدو وضربته روسية في أنفه ثم بأظافرها تمزق في وجهه. حميدو يحاول إبعادها عنه، فعضَّته في باطن ذراعه عضّة أتت بالدماء. بالكاد أمسكوا بها وأبعدوها عن حميدو وهي تصرخ إن قتلت الفرنسيسي يا حميدو سأقتلك أنا. سعدية في سرعة أجلست حميدو أرضا ورفعت ذيل جلبابها ولم يهمها انكشاف فخذيها، فهي التي ربَّت حميدو كابن لها. بطرف جلبابها تضغط على أنف حميدو النازف. أتوا بقطعة قماش لاستكمال كتم الدماء ولم ينسوا العضة التي في باطن ذراعه ولا جانب الخربشات التي تسببت هي الأخرى بشيء من الدماء.

عاد حميدو لخمَّارته المعتادة. آلام أنفه وذراعه ووجه لا يشعر بها، فلديه ما يؤلمه أكثر بكثير. آلام في نفسه. فكيف لكَدِيسة التي يحبها وعاملها منذ طفولتها كأنها أخته الصغيرة، كيف لكَدِيسة الذي من ساعات دافع عنها ضد الملتحي المتعافي، كيف لكَدِيسة أن تضربه بالروسية وتخربشه وتعضه بكل هذا الغل؟ وأيضًا تهدده بأنها ستقتله إن قتل الفرنسيسي؟ تحب هذا الإفرنجي أكثر مني أنا حميدو أخوها؟ في هذه الليلة سكر كما لم يسكر من قبل.

في قلب الليل سعدية أم كَدِيسة مستلقية بجوار زوجها حليمو النائم ويصدر شخيره المزعج. تتذكر أفاعيل ابنتها كَدِيسة من صغرها. إصرارها أن تكون مثل الأولاد. تفضيلها اللعب مع الأطفال الذكور وضربها لهم. محاولتها أن تخرج مع مراكب الصيد مثل الأولاد وخروجها بالفعل مرتين. ثم أعجب حوادثها حين حاولوا ختانها.

وهي طفلة معصعصة. كلما حاولوا إقناعها بالختان مثلها مثل مثيلاتها تثور عليهم. أجّلوا الختان حتى تتعقّل، فالطفلة عصبية التصرف، وربما أضرت بنفسها إن ختنوها رغمًا عنها. من قبل ختنوا أختها عِزُّو دون مشاكل. ولما بلغت كَدِيسة السادسة من عمرها، قالوا إن الوقت يسرع ولن يتحملوا بقاءها غير مختونة بعد الآن.

عصر يوم أحست كَدِيسة بأن أمرًا غريبًا يُعد ضدها! أمها تبتسم لها ابتسامة بها من المكر والخبث الكثير. أتت خالتها وسيدتان من الجيران. الكل ينظر لكَدِيسة في ابتسامات نفاق وترضية! كَدِيسة الطفلة تخاطب نفسها.. لا توجد مناسبة لهذا الازدحام النسوي. تُرى.. هل ينوين ختاني؟ أتت جارتان أخريتان. نادتها أمها لتجلس بجوارها وقد اتخذت بقية السيدات مكانهن حولها مقعيات في شبه دائرة. ثم.. ثم دخلت الداية الشهيرة أم عَلُّلَة. أم عَلُّلَة التي تساعد النساء على الولادة وتقوم بختان البنات! إذن ظنُّ كَدِيسة

صحيح. لقد أتين بالفعل لختانها. قالت بصوت مسموع.. يا لَهْوي يا لَهْوي. نظرت لأمها في غيظ وغضب وتَنَمُّر. وقبل أن تنهض كَدِيسة أمسكتها أمها من جلبابها وخالتها أمسكتها من ياقة الجلباب والاثنتان جذبتاها وألقيتاها بينهما على ظهرها. ثم كل منهما أمسكت ذراعيها. بقية النساء هجمن عليها وثبّتنها على الأرض حتى لا تفلت من أمها وخالتها. شلحنها ونزعن لباسها الداخلي وفشخن ساقيها كل ساق في اتجاه. كَدِيسة مشبوحة على ظهرها رأت الدادة أم عَلُّة وقد وقفت أمامها كأنها مارد ورأسها المهوش الشعر كأنه يضرب في سقف البيت. أم عَلُّة تضحك لها ضحكة الغولة آكلة الأطفال وشاربة دمائهم. كل هذا وكَدِيسة ذات الأعوام الستّة شبه مستسلمة في ذهول. لكن بمجرد أن جلست أم عَلُّة على ركبتيها وفي يمينها مبضع تنظر لأسفل كَدِيسة حيث المكان المقصود، حتى تحولت كَدِيسة من جسد لين هين ضعيف رهيف، تحولت إلى شيطانة شرسة مخيفة. نظرت في تحدٍ لعينيّ أم عَلُّة. صرخت صرخة بطولية معلنة الحرب على أمها وخالتها الخائنتين وعلى كل النساء الممسكات بها. لعناتها تتصاعد وهي تتلوىَّ وجسدها يفور من بين أيادي النساء المشدوهات من عنف مقاومة البنت الصغيرة. أم عَلُّة تنحني للأمام فوجدت بصقة عنيفة تضرب ما بين عينيها فارتبكت وهي التي صاحت هذه المرة يا لَهْوِي. وقبل أن تفيق أم عَلُّة كانت البنت كَدِيسة قد استخلصت يمناها من يدي أمها،

وفي سرعة البرق لطمت صدر خالتها فصرخت خالتها وتركت يسراها. بيديها تضرب كل من حولها. نطرت كَدِيسة جذعها للأمام وبقبضة يمناها الصغيرة ضربت أنف أم عَلُّة التي كانت مشغولة في مسح البصقة، فصرخت أم عَلُّة وهي تنطرح على ظهرها في وضع صعب خاصة وأنها عجوز. أم عَلُّة تصرخ وكَدِيسة البنت الصغيرة تنهال ضربًا على أمها وعلى خالتها وكل السيدات اللاتي يصرخن فزعًا، وأمها خلال صراخها تضحك ضحكًا عبيطًا مما تفعله ابنتها المفترية. وقبل أن تفيق السيدات كانت البنت كَدِيسة قد اختطفت لباسها الداخلي وتخطتهن وهربت من البيت. وفي الشارع تجري ناحية البحر وهي تلعن أم عَلُّة وتلعن أمها وخالتها وكل النساء. تجري تلوّح بلباسها عاليًا وكأن اللباس بيْرق انتصار. مستمرة في العدو وفي لعن النساء وتتوصى بأم عَلُّة بأقذع الشتائم. لماذا التقطت لباسها في هذا الموقف الخطير المثير؟ لا تعلم. هكذا فعلت وخلاص. رآها الكثير من أهل الشارع وغير الشارع، وبقي هذا المشهد في بالهم حتى كبرت كَدِيسة وصاروا يفكرونها به وهي تستمع منهم وتضحك معهم فخورة ببطولتها.

وأقسمت أم عَلُّة أنها لن تعاود محاولة ختان كَدِيسة مرة أخرى، وخاصمت أم كَدِيسة سنة وشهورًا، لأن أم كَدِيسة كانت تضحك وأم عَلُّة مُكوَّرة أرضًا من بصقة وضربة ابنتها كَدِيسة. وأفلتت كَدِيسة من الختان.

أليس لمشكلة الفرنسيسي وكَدِيسة حل؟ الحل من النوع البسيط المستحيل. ذهب بَرَكَة بنفسه إلى بيت الفرنسيسي ومعه حميدو. بَرَكَة أرهقه المشوار ويتنفس بصعوبة رغم أنه أتى على ظهر حمار. حميدو عيناه متعبتان من عدم النوم وبقايا الخمر وآثار الخربشات على وجهه واضحة. لم يتصورا أن البيت الذي استأجره الفرنسيسي في هذا المكان الرائع بكل هذه الأناقة واتساع المساحة، فعلًا الفرنسيسي غني كما يقال. جلسا في حجرة واسعة جميلة استقبلهما كلود بالود والاحترام، وأحضر لهما الخادم مشروب الليمون. حميدو وملامحه التي ما زالت تحمل خربشات كَدِيسة، ما زالت تشي بالغضب والعداوة. طلب من الفرنسيسي إشهار إسلامه إن كان يصر على الزواج من كَدِيسة! حميدو وبَرَكَة فوجئا أنه كان يتوقع هذا الطلب وأنه موافق عليه! ابتسم حميدو واحتضنه وهطلت دموع من بَرَكَة. اليوم التالي عملوا زفّة في سوق السمك وقد عاد الفرنسيسي من الجامع الكبير بعد أن نطق بالشهادتين اشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. وبهذا أشهر إسلامه وصار مسلمًا. الزغاريد في منطقة سوق السمك كلها. كَدِيسة ترقص في وسعاية السوق وسط مجموعة من البنات تقودهن أختها عِزّو. الكثيرون يشعرون بانتصار، لأن إفرنجيًا مسيحيًا دخل في الإسلام. لكن الملتحيْين في دكان عصمت كوسا لم يفرحا، يرفضان دخول الفرنسيسي في منطقتهما، الفرنسيسي سيصير قوة لحميدو ولكَدِيسة ومن يكرهون وجود الملتحين في

السوق. وجود الفرنسيسي سيعرقل تخطيطهما بالاستيلاء يوما ما على سوق السمك.

أمام دكان بَرَكَة كان الزحام حول الدكّة التي أجلسوا عليها الفرنسيسي وعلى يمينه حليمو والد كَدِيسة وعلى يساره بَرَكَة. ثم أغانٍ ورقصات سريعة بعدها ذهب بَرَكَة وحميدو مع الفرنسيسي لبيت كَدِيسة ليتناولوا العشاء مع العائلة. وهناك كَدِيسة ألقت بنفسها في أحضان الفرنسيسي رغم امتعاض أبيها وأخيها، وقهقهة بَرَكَة ورضاء وزغاريد أم كَدِيسة وخالة كَدِيسة وأختها، وابتسامة تجمع ما بين الحزن والفرح على وجه حميدو المشوّه بالخربشات. أتت كَدِيسة لحميدو وارتمت في حضنه وشبَّت على أطراف قدميها لتقبّله قبلتين على خديه، فاحتضنها حميدو بقوة وقبّل رأسها وسط رضاء العائلة. حميدو بحضن كَدِيسة له عالجت كرامته التي جرحتها من قبل.

ثم ذهبت السكرة وجاءت الخَطَرَة. يجب ختان الفرنسيسي! ختان شاب تخطى السابعة عشر من عمره ليس بالأمر الهين. الجرح سيكون مؤلمًا وربما خطرًا. الفرنسيسي في حيرة. كانت سعدية هي الحل. غابت وعادت حزينة. الحلاق الماكر أصر على قطعة ذهبية! ثمن غالٍ جدًا. وافق الفرنسيسي فالقطعة الذهبية بالنسبة له أمر ليس بالعظيم. الحلاق سيحدث جرحًا تافهًا ونقاط دم على منديل أبيض

يتم عرضه على الناس، وبهذا تم الختان الظاهري.

جامع متطرف على حدود بحيرة مريوط. تجمع عدد من الملتحين الشباب بعد صلاة العشاء وانصراف المصلين. رجل أربعيني مُعمم متجهّم بلحية شعثاء ضخم الجثة يرتدي جلبابًا أبيض قصيرًا مُزهرًا وغطاء رأس من نفس قماشة ونفس لون الجلباب متدليًا من رأسه على كتفيه. أمامه ما لا يقل عن عشرين شابًا ملتحيًا متجهمًا مثله يتصدرهم برهومة. موضوعهم كلود الإفرنجي النصراني، مصرون أنه كاذب في إسلامه، ويريد شرًا ببلاد المسلمين، لذا تجب مراقبته جيدًا والتأكد من مقصده. هذا الجامع المسلم الداعي للسلام تحتله جماعة ضد السلام. جماعة كراهية.

بعد الانصراف. الشيخ الأربعيني هو التاجر الكبير الذي يرافق كبار التجار ويتجسس عليهم ويستعين بالشيخ الذئبي المقرب من حاكم الإسكندرية وأتباعه ليسيطر على التجارة والزراعة وكل أمور المال في الإسكندرية ومصر، ثم تقع كل بلاد المسلمين تحت سيطرتهم، وبعدها حلمهم الأساسي.. أسلمة العالم.

الشيخ الأربعيني يسير وبجواره برهومة. يستفسر الشيخ الأربعيني عن التقدم الذي يحرزه برهومة. يلوم برهومة ويتعجله لأن كبيرهم الشيخ الذئبي يتعجل السيطرة على سوق السمك وغيره من الأسواق.

الأربعيني يدفع برهومة دفعًا ليتقدم فيتزوج لولي ابنة عصمت كوسا. ليسيطر على أموال عصمت.

الخريف لا برد ولا حر. أحلى مواسم الإسكندرية. ارتدى كلود صديريًا أبيض فوق قميصه مثلما فعل بقية رجال وشباب الإسكندرية. استأجر بيتًا في منطقة الطابية ليكون بجوار حبيبته كَدِيسة، لكنه لم يستغن عن بيته الأساسي.

كلود الفرنسيسي وقد أعلن إسلامه ويضمر مسيحيته مع إسلامه، يعلم أن مسيحيي المدينة لن يفهموا موقفه وربما أغلبهم سيرفضونه. ذهب إلى بيت بطرس. فتح سميح له الباب، وبمجرد أن شاهد كلود انقلبت ملامحه الهاشة الباشة بطبيعتها لتتحول لتجهُّم وتقزز. أغلق الباب في وجه كلود بقسوة واحتقار. فوجئ كلود. عاد خطوات للخلف ثم وقف مبهوتًا. انفتح الباب مرة أخرى وظهرت فيه تريزا أم بطرس. ذهبت خطوات لكلود والدموع في عينيها. احتضنته وبكت بكاءً مرًا على كتفه، وهي تطلب منه عدم الغضب مما فعله زوجها سميح، فالصدمة فيه كمسيحي فادحة. تشرح له مدى الحزن الذي يعتريهم أصلًا من تطرف الكثير من المسلمين ضدهم، وأن ما فعله من إعلانه إسلامه، يزيدهم حزنًا وقلقًا على أنفسهم. أمسكت بيده وأدخلته البيت. بطرس ليس موجودًا. جلسة حزينة حتى أتى بطرس. وبطرس مثل بقية العائلة، في حزن

وغضب من كلود. أهكذا يتخلى كلود عن يسوع؟ سمعوا شرح كلود، أوضح أنه مسيحي أساسا، وهو مثل جدَّيه كلود الأول وكلود السمين، يؤمن بأنه مثلما كل الطرق الدنيوية تؤدي إلى روما، فإن كل الطرق الدينية تؤدي إلى الله. قام وأخذ خطوات إلى الصليب الكبير المعلق في الحائط وقَبَّلَهُ. قال:

– لم ولن أنكر المسيح. فسأظل مسيحيا معمدًا حتى الممات. لكني لست ضد بقية الأديان، كلنا متجهون إلى الله.

وقبل أن يتناولوا معًا الغداء صلى سميح شاكرًا للرب على ما رزقهم. وأمنّوا بعده بمن فيهم كلود. وقبل أن يترك كلود البيت، تريزا أم بطرس ودموعها تنهمر، احتضنت كلود مرة ثانية وهي تخاطبه بابنها كلود وتدعو له بألا يضيع. وكأن كل قطرة من دموعها تمثل حقبة صعبة مرت على مسيحيي مصر.

بالقرب من باب مدينة الإسكندرية الشرقي، حديقة شاسعة بها العديد من المرتفعات والمنخفضات تكاد تلاصق سور الإسكندرية القديم، حيث بوابتها الشهيرة باب شرقي، وهي البوابة التي مر منها كلود السمين من قبل. في هذا المكان وفي مثل هذا الوقت من كل عام، يقام مولد سيدي الزهري لمدة ثلاث ليالٍ متواليات. الليالي المظلمة تنيرها الكلوبات والمشاعل. الأشجار كثيفة عالية تبدو من بعيد كأنها أشباح أسطورية. في نهاية الحديقة تل مُشجر أسفله سجن قديم هُدم

بابه فامتلأ السجن بالأتربة والقمامة، وصار مأوى شتويًا للكلاب الضالة. أما قمة التل فهي للقاء العشاق الشباب نهارًا، وليلًا للكبار، حيث الممارسات الجنسية التابعة لعصابة تدير المكان بمومساته. حول الضريح بشر بالمئات رجال نساء بنات أولاد. الخيام والعشش المؤقتة متناثرة دون نظام. دكك يجلس عليها الرواد يدخنون النارجيلة والحشيش ويتجرعون الخمور المتنوعة. أغنياء وفقراء وعشرات من المشعوذين والشحاذين والعايقين وشباب صغير يأمل في الاحتكاك بالنساء. معاكسات وضحكات ورضاء إلا من يزيد من غلاسته فيتلقى التهديدات والضرب بالشباشب والقباقيب. نساء وفتيات بالغات مع رجالهم، والكثيرات يأتين وحدهن. مومسات جالسات وواقفات على أبواب أعشاشهن وخيامهن ويحميهن قوادوهن. منصات للغوازي يرقصن بمصاحبة غناء نسائي أو رجالي. مراجيح وخيول مزيَّنة لركوب الأطفال. ألعاب قمار بسيطة مناضد خشبية عليها براويز زجاجية ذات رسومات واللاعبون يقذفون عليها النرد. لعبة الثلاث ورقات وغيرها. منصات للغوازي... إلخ. حلقة كبيرة يلعب فيها رجال وشباب الصعيد لعبة التحطيب، تمثيل قتال بالشوم الغليظة. وكل من المتقاتلين يجب أن يكون قويًا رشيقًا متعاجبًا بنفسه يستطيع المراوغة والملاعبة، ويكون الأكفأ هو الأدهى. وفي جانب وحدهم حلقات الرجال يمدحون الرسول ويصيحون وهم ثابتو الأرجل وجذوعهم تتجه شمالًا ويمينًا بقوة: حيّ حيّ حيّ.

أصحاب الذقون الشابة والواضح أنهم تابعون للرايات السوداء يجوسون وينظرون للناس في غيظ وتهديد، وتهديدهم للنساء أقسى. أصحاب الرايات السوداء، لا يجرؤون على الاعتداء على الناس ولا على الراقصات، يخشون ردّ فعل العاملين في المولد، والذين يتابعونهم بنظرات التحذير من محاولة إفشال المولد. يضطر أصحاب الرايات السوداء للابتعاد خائبين.

أتت كَدِيسة والفرنسيسي للمولد. الفرنسيسي مبهور بما يشاهده. يتعجب من كل هذا الحشد السعيد المبتهج سواء كانوا رجالًا أم نساءً أم أطفالًا. غوازي ومومسات وذاكرين للـه ومادحين للرسول في وقت واحد ومكان واحد؟ عند خيمة واسعة، تقف على بابها امرأة قوية الجسد عارية الذراعين والعنق وأعلى الصدر. كَدِيسة تمر أمام الخيمة في سرعة جاذبة بيد الفرنسيسي، لكن الفرنسيسي وقف رغمًا عنه. أمسكت المرأة القوية بذراعه وأوقفته تتمعن في وجهه وجسده. الفرنسيسي أطول منها. وقبل أن تعي كَدِيسة ما يجري قالت المرأة للفرنسيسي:

– يا شاب يا جميل يا أبو عيون زرقة. تجيلي بيتي وتعقد معايا ليلتين وببلاش.

صاحت فيها كَدِيسة غاضبة:

– أقولك إيه يا ست إنتِ. ابعدي عن خطيبي.

لم تجبها المرأة. واصلت الحديث للفرنسيسي:

– أنا مَرَة جميلة. وأنت شاب جميل. أنا عندي بنتين وولد. نفسي أخلف منك ولد والّا إن شا الله بنت. بس يكونوا حُمر زيك وبعيون زرق زيك. قلت إيه يا حلو أنت؟

كَدِيسة جذبت الفرنسيسي بعيدًا وهي تلعن المرأة والمرأة وكلود يضحكان من غضبة كَدِيسة. وبعد خطوات تشاجرت كَدِيسة مع الفرنسيسي.. كيف يقف كالصنم مستمعًا لغزل تلك المرأة المومس؟ وهل فكر حقيقة أن يستجيب لها ويذهب ليضاجعها ليلتين كاملتين؟ كلود وهو يتقبل منها ضربات على كتفيه أجابها:

– بالطبع لا. ليلة واحدة معها تكفي.

لعبا معًا بعض الألعاب وتناولا الترمس وشربا الخروب ولعنت كَدِيسة أكثر من رجل قرصها أو تحسس مؤخرتها. وتقبّل الفرنسيسي بعض القرصات من الفتيات، ولم يعلم أن بعض القرصات، كانت من الرجال الذين يعشقون مضاجعة الرجال، وقد استهوتهم شقرته وصفرة شعره وزرقه عينيه.

ظُهر يوم وسوق السمك مزدحم بالمشترين، الفرنسيسي على مقعد كالعادة بجوار دكانة كَدِيسة. لا يطيق البعد عنها ولا تطيق أن يبتعد هو عنها. بيوت الطابية لها طريقان. طريق يمر من خلال سوق

السمك، وطريق أبسط غير مزدحم يمر على حافة السوق. على هذا الطريق الأبسط كانت لولي على حمارتها المسرعة، وخادمتها حسنات تجري بجوار الحمار وهي تولول باكية من المصيبة التي ستحدث. حسنات في ورطة. أجبرتها لولي بالضرب والعض أن تكون معها في تهورها الفضيحة. وصلت لولي عند باب بيت الفرنسيسي فهبطت من ظهر الحمار، وأسرعت إلى باب البيت تدق عليه بقبضتيها وهي تنادي كلود. كلود. كلود. ثم أخذت تلعنه بالخائن الذي غدر بها بعد أن وعدها بالزواج! تصرخ منادية عليه وهي تضرب بقبضتيها وبقدميها على الباب. تدلى من رأسها غطاء الرأس فبان شعرها الذهبي الناعم. التف حولها الكثير خاصة السيدات والفتيات والأطفال. لولي لا ترى مَن حولها، مستمرة في الخبط على الباب ولعن كلود ولا تستمع لمن يؤكدون لها أن الفرنسيسي ليس بالداخل. عرفوها من هيئتها ومن خادمتها حسنات التي تقف جانبًا باكية. لولي مستمرة في السباب الصارخ حتى انتابتها نوبة تشنج فارتمت عند الباب مغمى عليها. حملنها لبيت قريب، والنساء والرجال يتحسرون على كل هذا الجمال الرائع الذي يبهدله عقل ضائع. بعد فترة أتت كريمات أم لولي مع خادمتين. أخذن لولي للبيت. وفي حجرتها بقيت لولي تخطرف حتى منتصف الليل، ثم نامت بمخدر قوي.

وفي تلك الليلة كان الحاقدون على الفرنسيسي ثلاثة، عصمت كوسا وزوجته كريمات المطعونان في سمعة ابنتهما. وبرهومة

المخبوط في طموحه. وإن كان كوسا وزوجته كريمات يعلمان أن الفرنسيسي لا ذنب له، فإن برهومة لم يغفر ظهور كلود الإفرنجي المسيحي، واستلابه قلب لولي.

حكاية الفرنسيسي وكَدِيسة كلما توالت الأيام كلما أخذت أبعادًا جديدة، فتتجدد وتتشعب أحاديث النميمة وتتصاعد ما بين ناقم على جرأة كَدِيسة وتصرفاتها التي تشبه تصرفات الفتيان، وما بين معارض حاسد والحسد أساسي في البشر، وما بين مساند مبسوط لأن حالات الحب ما زالت ممكنة بين الناس. ولم يسلم الأمر من فريق يؤكد أن سبب انفلات كَدِيسة عن المعتاد هو عدم ختانها!

الحب بين الفرنسيسي وكَدِيسة مستمر ويتعمَّق. هما في غرام وهيام مستدامين. فهذا يقترب من عمر الثامنة عشر، وتلك تدخل في عمر السادسة عشر. فتى وفتاة لا يكتمل أي منهما إلا بالآخر. ولا يمتلئ أي منهما سوى بالآخر. عاشقان ساخنان لا يهمهما القيل والقال، وأصلًا هما لم يستمعا لما قيل ولا يأبهان لما يقال، لا ينصتان إلا لحفيف رفرفات قلبيهما العاشقين. لا يهمهما كلام الناس. إذن ما الذي يهمهما؟ يهمهما أن يكونا معًا.

هِنّس طرده عصمت من العمل في مركبه تحت ضغط لولي، فصار يساعد كَدِيسة في بيع السمك. ومن أكثر المؤيدين لحبها للفرنسيسي. كَدِيسة وجدت رضاء أخيها فرصة، تركت له الدكان

أغلب الوقت لتبقى مع خطيبها الفرنسيسي. يتسللان ليبقيا وحدهما في لسان السلسة أحيانًا، وعند القلعة أحايين أخرى. وداخل القلعة والجدران التي لم تسقط تحميهما من الناظرين. والبحر الرائق أمامهما. مرة من المرات. رغم أن الجو ليس صيفًا، فإن الفرنسيسي خلع ملابسه وبقيَ بقطعة تحتية وحيدة. نزل البحر وسار خطوات ثم قفز في الماء يسبح. التفت لينظر للشاطئ حيث كَدِيسة. لم يجدها هناك. بل وجدها تسبح ناحيته بجلباب تحتي فقط! ضحك واقترب منها. سبحا معًا ثم خرجا للشاطئ. التصاق الجلباب الخفيف بجسد كَدِيسة أوضح أنها رغم قصرها وعدم سمنتها، فهي متناسقة الجسد، وفيها كل ما هو مطلوب من الأنوثة ومرغوب من الذكورة. احتضنها حبيبها وغرقا في قبلات. الجو به برودة خفيفة، لكن جسديهما صيفان تداخلا فصار جوهما الخاص ساخنًا، وفي كل ضمة تتصاعد سخونته، ومع كل قبلة ترتفع درجاته حتى قارب الغليان. ولما تسللت يده وتحسست صدرها وبقيت تداعبه، ثم أخذت تنخفض وتنخفض. أبعدته وصارت تلقي عليه كلمات سباب وهي ما بين ادعاء الغضب الظاهر وبين الرضاء الباطن. ولما زاد في التوغل عضته في كتفه فصرخ وتركها. وقف ينظر إليها في حيرة وغيظ محب، وهي تنظر له في ادعاء غضب. وقبل أن يتكلم هو وثبت هي عاليًا لتضربه ضربة روسية إسكندرانية، لكنه أبعد رأسه للخلف فأخفقت. قال ضاحكًا:

– كفاكِ عضّة. كمان ضرب بالرأس؟

ضحكت وهددته:

– تقل أدبك يا فرنسيسي أبحترك.

– يعني إيه أَبَحْتَرَكْ؟

– يعني أَفَشْفِشَكْ.

– أَفَشْفِشَكْ! برضة يعني إيه؟

– يعني أَفَصْفَصَكْ.

– هاها.

– هي هي.

جلسا على سور القلعة ينظران للبحر. الفرنسيسي يركز النظر في أعماق البحر. قال لها كلامًا لا تستوعبه جيدًا، إن حوريات البحر يأتين حوله خاصة وهو يسبح وحده! وأن بين عائلته وبين تلك الحوريات تاريخًا عميقًا ومستقبلًا ينتظر.

لا يوجد أحد في هذا المكان في هذا الوقت المقارب للبرودة. والقلعة تحميهما ممن يمكن أن يشاهدوهما من بعيد، لكن كانت عينا شاب صغير تتابعهما جيدًا. وقبل المغرب كان يسرع إلى بيت عصمت كوسا ويبلغ حسنات، وحسنات تبلغ لولي بكل ما يحدث

ما بين كلود الفرنسيسي وكَدِيسة. لولي تسمع وتزوم وتضرب بقبضتيها على فخذيها. لا تريد أن تصرخ حتى لا تعرف أمها أنها تتابع الفرنسيسي وكَدِيسة.

أتت الليلة الموعودة. ليلة الزفاف. ليلة جميلة فريدة. الفرح من المغرب بعد أن هدأ سوق السمك من المشترين. الفرنسيسي في ملابس سكندرية جديدة. والعروس كَدِيسة في ردائها الأبيض الواسع وطرْحتها البيضاء والحذاء الجديد الذي يضايقها. المدعوون حول بيت سعدية وحليمو والدي كَدِيسة، فوانيس إنارة أمام الدار وعلى الجدران. يكاد كل بائعي وصائدي السمك موجودين بعائلاتهم، فيما عدا أصحاب اللحى الكارهين لكل فرح الرافضين لكل مرح، الماقتين للموسيقى والغناء والرقص واختلاط الذكور بالإناث، فكل هذا في عُرفهم حرام، ما يؤلم الصيادين أن أربعة من شبابهم الصغير انضم لهؤلاء الكارهين.

أغلب الحضور وقوفٌ في أحاديث مرحة وكبار السن جلوس على الدكك المتراصة. أتى بطرس وسميح وانضما للرجال. تريزا ودميانة وفريدة وسط البنات والنساء يغنين ويصفقن ويزغردن ويرقصن معهن. وأيضًا حضر العجوز بنيامين متوكئًا على عصا، جاء معه حفيد شاب من أحفاده. بنيامين العجوز كان مفاجأة من مفاجآت الزفاف. سعدت به سعدية وأتت به ليتعرف إلى ابنتها

العروس كَدِيسة، التي لم تشاهده من قبل، وإن حكت أمها عنه كثيرًا. قبّل رأسها فقبّلته من خديه.

فرقة من العوالِم تحيي الفرح. تغنّي وترقص ويغني ويرقص معها العديد من الحضور، لكن عندما غنى مطرب شاب أغنية جديدة تقول "لسّه الأغاني مُمْكِنَة" غنّى معه الجميع وكأن الأغنية رفض لأصحاب الرايات السوداء واللحى الوحشية. ثم غنوا جميعًا أغنية قديمة شهيرة تؤكد أن الحياة حلوة. كَدِيسة رغم أنها هي العروس فهي شعلة نشاط. تغني وترقص وتصفق وتزغرد. عشقها للفرنسيسي وفرحتها بزفافها يشعان من عينيها ومن كل جسدها. أوسع الناس وأفسحوا لدائرة وسطهم. الرقص المنفرد والزوجي داخلها. حميدو في فاصل راقص مبهر يستعرض مهارته في أنواع من الرقص، وشاب يحاوره بالضرب على الطبلة. ودخل حميدو في رقصة الخنجر التي يجسد فيها معركة وهمية بينه وبين عدّة مبارزين وكيف يتغلب عليهم. بعده توسط الدائرة عجوز مع حفيده في نفس رقصة الخنجر الإسكندرانية. ثم كانت المفاجأة الأولى من العروس. كَدِيسة التي خلعت الحذاء الجديد الذي يضايقها وألقته بعيدًا، استعارت خنجرًا من شاب راقص ونزلت لدائرة الرقص ونادت حميدو متحدية له! وتعاركا رقصًا بالخنجرين وثالثهما الطبلة. الفنان هو حميدو والمعاندة الشرسة هي العروس والطبلة محتارة بينهما. الرقصة سخنت والفرنسيسي يتابع كَدِيسة فخورًا بها.

حميدو قد تثاقل قليلًا في سرعة حركاته تاركًا الفرصة لكَدِيسة. أبدعوا وانتهت الرقصة بفوز كَدِيسة، التي احتضنت حميدو وهي تعلم ويعلم المشاهدون أنه تركها تفوز. وتلتها رقصات ثم المفاجأة الثانية، رقصة هادئة يشارك فيها الكثير حتى كبار السن الذين تركوا الدكك التي كانوا جالسين عليها. تقدمت سعدية وأمسكت بذراع بنيامين. وأخذته برفق وهو يحاول الممانعة. ثم سار مستعينًا بالتوكؤ على كتفها والعصا. أدخلته سعدية حلقة الرقص وهو يبتسم خجلًا محاولًا الامتناع للمرة الأخيرة. تغلبت عليه بإلحاحها وتشجيع من حولهما. رقصت سعدية أمامه وهو رقص بقدر ما يسمح به عمره وعجز ساقه، والحضور يصفق لهما مبتسمين. ولضعف نور الفوانيس، لم يلاحظ أحد لمعة عيون بنيامين وسعدية وقد امتلأت بالدموع.

كَدِيسة أمسكت بخطيبها الفرنسيسي وجذبته عنوة ليشاركها ويشارك الباقين في الرقص، فرقص بقدر ما يستطيع والجميع يشجعونه. توقف وأوقف الرقص في إصرار. طلب من عازفي الناي والعود لحنًا ما، أدياه بقدر استطاعتهما، فرقص الفرنسيسي رقصة مرسيليّة وشاركته كَدِيسة في ضحكها وضحك الفرنسيسي الذي بيَّن للجميع قدرته الممتازة على الرقص الفرنسي.

الطعام والشراب ثم كانت الزفّة التي ذهبت مسيرتها إلى سوق

السمك، ومرت في شوارعه وعادت إلى حيّ الطابية. أخذ العريس الفرنسيسي عروسه متجهًا إلى بيته الكبير الواقع على ناصية شارعي كانوبي والنبي دانيال. الزغاريد تودعهما وهما على ظهر حمارين وخلفهما حميدو وهِنّس على حمارين ليحرسا العروسين حتى بيتهما.

لما انفرد العريس بعروسه، لم يقربها. بقيَ ساعة في حزن. تساءلت العروس.. لِمَ؟ قال تزوجنا بالإسلامي، كنت أتمنى أن نتزوج بالمسيحي، كنت أتمنى أن نتزوج في الكنيسة بحضور والدي وأهلي. احتضنته فاحتضنها في استسلام لحكم واقعهما.

مر شهر وزادت فرحتهما فرحة بحَبَل كَدِيسة. كَدِيسة امتنعت عن العدْو والتنطيط. معًا في فُسَح في أنحاء الإسكندرية، المشي بهدوء فالفرنسيسي يخشى على كَدِيسة وعلى ما في بطنها. يقضيان أكثر وقتهما في بيتهما في حي الطابية. يعلّمها الفرنسيسي كلمات فرنسية. ليلة أخذ يصف تدريبات الفروسية وبروزه فيها، ثم طيْشة وحادثة قتله لزعيم العصابة. وهنا نزلت دمعات من عينيه وقال لها إنه أخذ عهدًا على نفسه ألا يتسبب في مقتل إنسان مرة أخرى، ويدعو اللـه أن يسامحه. ثم حكى بعضًا من تاريخ مرسيليا وتاريخ عائلته.

الفرنسيسي يزور الكنيسة كل صباح أحد ليصلي فيها، ترافقه

كَدِيسة برغبتها وتسعد بمباركه القسس. وحادثها أسقف الكنيسة أكثر من مرة راضيًا وباركها. ذهابه وذهابهما لا يعرف به أحد. ثم بدأ ينشغل الفرنسيسي في كتابة مذكراته نهارًا. تتركه كَدِيسة للكتابة وتذهب إلى بيت والديها وللمرور أمام دكاكين بيع السمك تحيي البائعين، وعند الدكان الكبير، دكان عصمت كوسا الذي يديره الملتحيان تحب أن تزيد من ضيقهما، فتلقي عليهما تحية الصباح بالفرنسية.. "بونجور". لكن وجودها الأكثر مع أمها سعدية القلقة كثيرًا على صحة كَدِيسة وحبلها.

يشتاق الفرنسيسي لعائلته كثيرًا خاصة لأمه. يشتاق لمرسيليا ولأصدقائه وذكرياته، يذهب إلى البحر. على حافة القلعة ينظر لبعيد حيث فرنسا. حيث مرسيليا. وقبل أن يعود يمر في ممرات القلعة ويتخطّى الأحجار المتناثرة. حجرات القلعة المتعددة الاتساعات والكثير منها أسقفه منهارة. صار خبيرًا في كل أركان القلعة. من باب مخلوع يمر إلى البحر. ورغم البرد يخلع ملابسه فيما عدا سروال تحتيّ. ويهبط في المياه الباردة المالحة ليسبح هنا وهناك ويرافقه عدد من حوريات البحر العذراوات الراضيات بحبه لفتاة الضفة الجنوبية، وبحب فتاة الضفة الجنوبية له، فالبحر الوسيط يجب أن يكون بحر وصل لا فصل. بحر حب لا بحر كراهية.

في حفل زفاف فريدة ابنة بطرس، ذهب كلود إلى الكنيسة علنًا،

لكنه وقف جانبًا مع بعض المسلمين. عدد من المسلمين أصدقاء لطفي موجدون. منهم من شاهد كلود الشهير بالفرنسيسي فابتسم راضيًا ومنهم من ابتسم في خباثة. وبعد العرس طلب بطرس من كلود ألا ينصرف. ثلاثة على ظهور الحمير يسيرون في طرقات مظلمة باردة هادئة إلا من ضربات حوافر الحمير. بطرس في الوسط رغم زفاف أخته فهو حزين قلق. الثالث الذي معهم شيخ مُعَمَّم تخطى العشرين ببضع سنين. عمامته صغيرة وجلبابه أبيض بسيط وذقنه وشاربه خفيفان باهي الوجه ذكي النفس، له هيبة رغم بساطة ملبسه وبساطته الشخصية. دخلوا مقهى متسعًا مشهورًا بالسهر. أخذوا جانبًا هادئًا وجلسوا على مقاعد مريحة من القش. كلود الفرنسيسي مستريح مع هذا الشيخ الشاب. بريق الذكاء ونفحة السِلم تفوح من ملامحه. وصلتهم أقداح السحلب الدافئة. تكلم بطرس. يشكو أن أصحاب الرايات السوداء، يتزايدون ويطالبون بأن كل نصراني عليه أن يدفع الجزية صاغرًا! ولما سأله كلود ماذا ستفعلون؟ قال بطرس:

– كفى. لن ندفع. كفى ما أجبرنا على دفعه من سنوات بعيدة. لن ندفع ولن نصغر. مصر بلدنا. أعرف أن الإسلام لا يطالب المسلمين بما يقوله ويفعله هؤلاء المجرمون. نحن المسيحيين بفكرنا وعملنا نفيد الكل من مسلمين ومسيحيين. نحن لم نركع في عصر الشهداء، عصر الطاغية الروماني دقلديانوس حين كان يذبح فينا

ويكسر في أدمغتنا. طاغية حرق الأناجيل، وصادر أملاك الكنيسة وحَرَّم علينا الصلاة. ثم هدم كنائس وذبح قسسًا وقتل كل من يرفض تقديم القرابين للآلهة الوثنية. ونتيجة لهذه المذابح صار القساوسة يرتدون السواد. وذهب الطاغية وبقينا نحن وبقيت المسيحية. لم ننفصل عن مخلِّصنا يسوع وسنبقى معه.

حتى الآن لم يعرف كلود اسم الشيخ الشاب. عرَّفهما بطرس إلى بعضهما وقال إنه أتى بالشيخ مُوفَّق، حتى يعلم كلود أن أغلب المسلمين ليسوا كارهين للمسيحيين واليهود. وأن المسلمين يدركون أن جوهر الإسلام متفق مع جوهر المسيحية.

قال الشيخ مُوفَّق:

– سقطنا جميعًا نحن أتباع الأديان الثلاثة في أخطاء أساسية، أدت لما نحن فيه من كراهية وقتال لبعضنا. فأمر غريب خطير يحدث فينا، نحن ننفصل عن قيم ديننا السامية ونستخدم قيمًا همجية بحجة حماية قيم ديننا السامية! ثم أليست تعاليم موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام تتلخص في المحبة والسلام؟ ألا ترون أننا انقلبنا عليها ونذبح بعضنا بعضًا بحجة الإبقاء عليها؟ صرنا نطرد الغير ونحتل أماكنهم. صرنا ندبر حملات القتل على الناس باسم الصليب! صرنا نقطع رؤوس الغير بل ورؤوسنا ونحن نكبّر باسم اللـه! ثم إننا نتباعد وننحبس عن بعضنا. دعونا نتقابل ونتحاور ونتحاب ونتعاون

للخير. أتعرف يا كلود الفرنسيسي.. الحقيقة أن عدونا كلنا من داخلنا. عدونا هم المتشددون الجاهليون المنغلقون منا نحن أتباع الديانات الثلاث. مثلما ظهر في المسلمين أمثال الشيخ الذئبي، فمؤكد ظهر في المسيحيين الكاهن الذئبي، ومؤكد يوجد الحاخام الذئبي. نحمد الله أن أغلبيتنا في الثلاثة أديان ليسوا كارهين. المحبون فينا أكثر، لكن مصيبتهم أنهم سلبيون. يتركون الفعل والحركة بين الناس للكارهين والمجرمين والغوغاء. على المحبين العاقلين في أديانا الثلاثة، أن يتكتَّلوا معًا ويجابهوا المتطرفين الكارهين في الأديان الثلاثة، يجب أن نكون معًا ضد كل من يتعدَّى علينا بتحريفات إجرامية يختلقها زورًا ويؤكد أنها من مقدساتنا. أليس كذلك يا كلود الفرنسيسي؟

– نعم. وأنه بالمحبة نواجه التشدد الجاهل.

– يا كلود.. اعلم أن انتماء الإنسان إلى الله لا يتحقق إلا بالانتماء إلى الإنسانية ككل.

– نعم. وقال يسوع: طوبى للودعاء؛ فإنهم يرثون الأرض.

– يا كلود.. قال عيسى عليه السلام.. الله محبة.

– يا مُوَفَّق.. قال محمد عليه السلام.. أفشوا السلام بينكم.

– يا كلود.. قال عيسى عليه السلام.. أنا خبز الحياة.

– يا مُوَفَّق.. محمد نبي الرحمة.

– يا كلود وقال حكيم سكندري: مصيبة من مصائبنا، أننا في كل دين، نترك كتابنا المقدس الأول والمنزَّل من اللـه، ونتمسَّك بالكتاب الثاني المكتوب بأقلام بشر يخطئون ويصيبون، ونجعل من تلك الكتب البشرية غير المقدسة هي الأولى بالاتباع!

– يا مُوَفَّق هيا نستبدل السهام بالقمح، هيا نستخدم القلم بدلا من السيف، هيا نكره الكراهية ونحب المحبة.

– لنفعل ذلك يا كلود، فقد قال محمد صلى اللـه عليه وسلم: الأنبياء إخوة أمَّهاتهم شتّى ودينهم واحد.

تدخل بطرس في الحوار المثير:

– كلود يقول هذا الكلام الطيب عن النبي محمد. ومُوفَّق يقول هذا الكلام الطيب عن سيدنا المسيح! ولو كان معنا بنيامين لقال كل ما هو حسن طيب كما تقولان. إذن، لماذا يشعل البعض النار فينا وفي أنفسهم؟

اتفـق ثلاثتهم أن ما يعيشـونه الآن هو نتاج سـنوات بعيدة بدأ فيها الانهيار. الإسـكندرية لم تعد الإسكندرية الذهبية القديمة. ولم تحتفظ بما كانت عليه من حلاوة. المتشـددون المتأسـلمون كانوا في بداياتهم، الآن صاروا يستفحلون وينشرون التجهيل والكراهية. لم تعد الإسـكندرية مدينة الناس مـن كل مكان كما كانت. ولم تعد

المدينة المترعة بالذوق والسماحة. الحكام الطغاة أنبتوا الفساد، والفساد أفرخ الشيوخ المتشددين. وهذه الأيام ظهر الشيخ الذئبي السوداوي الموتور، واستطاع قلقلة المدينة بفتاوى الكراهية، ومن عمامة الذئبي تطاير شرر عصابات الرايات السوداء المتطرفة التي تفسر الدين بجهلها وأمراضها وصارت تنادي بالجهادية، دون علم. انضم لتلك الجماعات القاتلة الكثير من المتعطلين عن الشغل، والصيّع والمجرمون والمظلومون والطامحون للعلو السريع. صارت أعدادهم تفوق بكثير وبكثير جدًا على الشباب الواعي أتباع الشيخ الشاب مُوفَّق.

احتقار الرايات السوداء وعداوتهم للغناء والموسيقى ولكل تنويعات الجمال، أدّى لانتشار القبح وتنامي الأحقاد والتربص بين الناس. ضغوط ثقيلة على النساء حتى لا يخرجن من بيوتهن. كراهية المسيحيين تشتعل والكراهية الأكثر تنصب على اليهود، فهاجر أغلبهم واختفى تقريبا اليونانيون والإيطاليون والشوام والأرمن وغيرهم. هاجروا إلى موانئ اليونان وإيطاليا وغيرهما. بل من المسلمين أنفسهم هاجر الكثير منهم لتأكدهم أن التجارة المنطلقة سوف تضيق، وغزل ونسج الأقمشة وتشكيل المعادن وغيرها سوف تضمر. فقدت الإسكندرية العديد من كبار التجار والمتخصصين في الحرف الدقيقة مثل صقل الألماس وتصنيع الذهب والتجارة مع موانئ البحر الوسيط وغيرهم. الازدهار الذي كان يتصاعد

أخذ يخبو، والمرح الذي كان يسود يختفي، والمتبطّلون في ازدياد والحانقون يربون والغاضبون يتكاثرون. وصعود الإسكندرية الذي كان متوقعًا صارت نُذُره إلى هبوط. الفقر والكآبة يحتلان المدينة يومًا بعد يوم. لذا على كلود ألا يُخدع ويظُن أن الإسكندرية مدينة منطلقة كما تبدو في بعض من مظاهرها.

قبل انصرافهم، أوضح بطرس جانبًا يتفاءل به، أغلب أهل إسكندرية زهقوا من أصحاب الرايات السوداء، وسيتركون الجلوس على مصطبة السلبية ويجابهون الرايات السوداء، خاصة العوالم في حيّهم الشهير. فالعديد من الفتيات اللائي يعشن في حي العوالم، هجرن عائلاتهن بسبب تجبر آبائهن وإخوتهن الذكور عليهن، وإجبارهن غصبًا على ارتداء النقاب والتصرف وكأنهن جوارٍ حقيرات، ومنعهن حتى من الابتسام. الفتيات يجابهن الرايات السوداء بالإصرار على ارتداء ما يروق لهن من ملبس. أما شباب العوالم فقد حملوا العصي الغليظة والسكاكين للدفاع عن أنفسهم وعن حيّهم. أمّا شبابهم الصغير في عمر الرابعة والخامسة عشر فقد اتخذوا أسلوبًا غريبًا في مجابهة الرايات السود. أسلوب المجابهة بالرقص والغناء، ففي كل مناسبة جماعية الفتيان يخلعون ملابسهم الفوقية ويبقون عاريي الصدور. الفتيات منطلقات الشعر. الجميع يضعون أذرعتهم على أكتاف بعضهم، ويرقصون ويغنون أغاني

تناسب أعمارهم. ووسط الأغاني كلمات سخرية من غباء الرايات السوداء.

الثلاثة انفضوا كل إلى بيته. الحيرة مما يحدث وسيحدث لا تفارق عقولهم وقلوبهم. كلود أكثرهم حيرة ومُوفَّق أكثرهم حسرة، وبطرس أكثرهم حزنا.

الفرنسيسي في بيته بالطابية منكب في تدوين مذكراته. تدخل عليه كَدِيسة وخلفها امرأة منقَّبة طويلة قوية الجسد. وقفتا أمامه فوقف الفرنسيسي حائرًا لا يريد أن ينظر للمرأة المنقبة. لكنها وكَدِيسة تقفان صامتتين. نظر الفرنسيسي للمنقبة. العينان الواسعتان الزرقاوان! صاح.

– أنتِ قلتِ بسبوسة؟

– أيوه.

– تعرفين بسبوسة؟

اقتربت منه المنقبة وخلعت النقاب. شقراء جميلة ذهبية الشعر. قالت:

– أنا من حفيدات بسبوسة. حكاية بسبوسة موجودة بينا من سنين. نعرف أن حبيبها جدنا كلود كان سمينًا ويحب الأكل والشرب والغناء والرقص. صُدفة شفتك في وسعاية العالم، قلبي جري

ناحيتك. حسّيت إنك من دمي. أنت حفيد كلود الفرنسيسي مش كده؟ قول آه صحيح إنك حفيده عشان قلبي يستريح؟

– هوّه كلود الفرنساوي السمين، خلّف من بسبوسة؟

– آه. بس هو ما كانش يعرف. ما رضيتش بسبوسة تقول له عشان ما يقلقش، وكانت فاكرة إنه حيرجع ليها، يقوم لما يرجع يعرف ويشوف اللي حتخلفه. لكنه يا حسرة ما رجعش.

– مات بسرعة.

– يا عيني. أنتِ من خِلْفِتُه؟

– أنا حفيدة حفيده.

أخذت التي كانت منقّبة خطوتين سريعتين واحتضنت الفرنسيسي وأخذت في البكاء. جلسوا ثلاثتهم. اسمها فَرَنْجَة، على اسم جدتها ابنة بسبوسة. رجال العائلة في السنوات الأخيرة مع تصاعد التشدد وكراهية الغناء والرقص، لم يعودوا يفتخرون بأن جدتهم بسبوسة كانت راقصة شهيرة. لذلك تكاد تذوب سيرتها وتضيع. لكن في كل جيل توجد فتاة لا تنسى سيرة بسبوسة. وبعض حفيدات بسبوسة اسمهن فَرَنْجَة مثل اسمي، وعدد منّا اسمهن فرنسا، على اسم بلد جدّنا الآتي من بلاد الفرنسيس. نصفنا شقر مثل كلود السمين والنصف قمحيون مثل بسبوسة.

لا وقت للتفاصيل، عليها أن تعود للبيت فزوجها قاسٍ بشع. فتحت فَرَنْجَة فاهها وعرضت على كلود سِنة مخلوعة نتيجة لضربة عنيفة نالتها من زوجها لأنها سهت وتباطأت في وضع النقاب، فكاد أحد الذكور أن يلمح وجهها! يغار عليها غيرة مقيتة وفي نفس الوقت لا يعاملها بطيبة أبدًا. يحتقرها ويتعالى عليها ولا يتوقف عن اشتهاء جسدها لا هي ولا زوجاته الثلاث الأخر! زوجاته أقل قيمة من حماره، وفضلهن على الحمير أنهن يمتطيهن شهوة وينجبن له. يجب أن تعود للبيت، على وعد بأنها ستأتيه مرة أخرى. ارتدت النقاب وسألت:

– ماسألتنيش مين جوزي؟

– مين؟

– الشيخ الذئبي.

ثلاثة شهور عَسَلٌ وحَبَلٌ. مجريات الأمور في ظاهرها طيبة، وفي باطنها حبُلى بالأحداث، وبطن كَدِيسة حبلى بنتاج الحب الجامع بينها وبين الفرنسيسي. وحَبَلُ كَدِيسة لم يكن عاديًا، أمها سعدية ترجَّت الداية العجوز أم عَلُّة لتجس بطن كَدِيسة وتطمئنها على صحتها. عَلُّة رضيت بعد أن أغرتها سعدية بمبلغ أكبر من المعتاد، فعَلُّة لن تسنى ما فعلته بها كَدِيسة وهي طفلة حين حاولت

ختانها. بعد أن جسّت عَلُّة بطن كَدِيسة، بشرَّت سعدية بأن ابنتها حامل في توأم.

المخـــزن الكبير الذي يحوي حجرة يدير منها عصمت كوســـا أعماله، عصمت أمامه منضدة عليها دفاتر مرصود فيها حســـابات أعمالـــه. وقف أمامه برهومة وفي وجهه إصـــرار على ما ينويه. قال:

– سيدي. بنتك الوحيدة الغالية في مأزق. وصعب يتقدم للزواج منها أي شاب من عائلة كبيرة أو من عائلة غنيَّة. اللي جرى عليها يعرفه الجميع. أنا أقدّم نفسي بكل تواضع لأستر ابنة سيدي.

لم يجبه عصمت كوسا سريعًا بقيَ ينظر بعيدًا. ثم نظر إلى برهومة:

– متأكد يا برهومة مِن اللي أنت بتقوله؟

– طبعًا يا سيدي.

– عايز تتجوز لولي والّا عايز تورّثني يا برهومة.

– أنا! أنا.

– لكن، عندك حق يا برهومة، ماتعرفش مين اللي بقاله شهر كده، بيطلّع شائعات كتيرة عن بنتي لولي؟

– كلام الناس كتير يا سيدي.

– تاني عندك حق. خلاص يا برهومة. إن وافقتْ لولي، أنا موافق.

ابتسم برهومة ابتسامة واسعة وبرقت عيناه. ابتسم عصمت ابتسامة حزن وترقُّب.

كريمات أم لولي دخلت حجرة ابنتهما وأبلغت لولي بطلب برهومة. لم تجب لولي. بقيت ممدَّدة على سريرها في تجاهل وتعالٍ. أمرتها أمها أن تعتدل في جلستها وتضع عباءة على جسدها عاري الشعر والوجه والعنق والكتفين والذراعين. لولي بقيت ممدّدة في تكاسل وإهمال كما هي. خرجت كريمات ودخل عصمت كوسا وخلفه برهومة. عصمت لم يفاجأ بوضع ابنته، فهو يعلم عنادها الغبي. أعاد على ابنتهما ما قالته لها أمها. لولي لم تنظر لا إلى أبيها ولا إلى برهومة. اعتدلت في بطء وبهدوء، لكنها في سرعة التقطت خفَّها من الأرض وألقت به على وجه برهومة. ثم عادت تتمدد في هدوء على سريرها ووجهها ناحية الحائط ولا تأبه برؤية ردّ فعل برهومة على الإهانة، وعلى ردّ فعل أبيها على ما فعلته.

في الخارج عند بوابة البيت برهومة يحاول كتم غيظه، فترك العنان لدموعه لتجلب الشفقة من سيده عصمت كوسا. يبكي وهو يحكي عن صداقته خلال الصبا بنظمت بن عصمت كوسا، ويؤكد

أنه يعمل سنوات في خدمة عصمت كوسا بكل إخلاص، ويحافظ على أمواله، ولا يستحق كل هذه الإهانة. أوقفه عصمت كوسا ورد عليه في ضيق:

– أولا أنا عارف إن بنتي حتهينك وجبتك عشان تشرب الإهانة اللي أنت تستحقها يا واطي. وثانيًا أنت ما كنتش صاحب لابني نظمت، صديقه كان حميدو وبس. كان الاتنين يبعدوك عنهم. كانوا رافضينك يا برهومة. ماتكذبش عليّ. كانوا رافضينك عشان فيك حاجة وحشة.

– سيدي عصمت!

– حقدك.

– معلمي عصمت كوسا!

– ثم بتقول أنت حافظت على مالي يا برهومة؟ طب ومين اللي جاب الولاد أصحاب الدقون الحاقدة وخلاهم يشتغلوا عندي في كل مكان؟ بقيت أنت بالنسبة ليهم صاحب المال وصاحب الشغل مش أنا. لكن أنا كمان مش سهل. سيبتك عشان كنا بنراقب كل اللي أنت جبتهم. عشان نعرف مين وراكم.

– سيدي عصمت كوسا!

– أنت تابع للشيخ التاجر. والشيخ التاجر تابع للشيخ الذنبي.

والذنبي تابع للشيخ الكبير اللي في القاهرة. وأنتم اللي مشغَّلين الولاد بتوع الرايات السودة؟

– أنتم مين يا سيدي؟

– إحنا كبار البلد. إحنا تجار البلد. برضة حنسيبكم تتآمروا على ثرواتنا وإحنا نايمين؟ إحنا لينا بصَّاصينا زي ما الحاكم له بصَّاصينه. والأغرب بالنسبة للجهلة من أمثالك، إن بصاصين الحاكم شوية منهم تبعنا إحنا. وأنت بصَّاص من بصاصي الذنبي.

– أنا..

– صح والّا لأ؟

– أصل..

– برهومة. أنت وأسيادك فاكرين كبار التجار وأصحاب الأراضي عُبْطْا! برهومة.. حتروح الشغل الصبح حتلاقيني طردت كل أصحابك من شغلي. واللي أنا محضَّرهم مِسكوا الشغل مكانهم. وأنت نفسك مطرود يا برهومة وخلِّي شيوخك ينفعوك. وحالًا تروح المكان اللي أنا آويك فيه وتلم هدومك وتغور من بيتي.

كلود داخل القلعة بين جدرانها الباقية. مطمئن ألا أحد يراه. حجرة متوسطة. جمع قطعتي خشب متساويتين. وفعل مثلما يفعل كل مرّة. الخشبتان يجمعهما على هيئة صليب. وبمسمار كبير

وحجر يثبت الصليب على جدار ويستغرق في الصلاة. لا يتصور أن صبيًا يراقبه في كل تصرفاته، حتى إن الصبي تابعه وشاهده وهو يصلي. فك كلود خشبتي الصليب ووضعهما جانبًا وخرج ينظر شمالًا يتنسَّم هواء بلاده. الصبي عاد مسرعًا حيث لولي وحسنات تراقبان من بعيد. خلع كلود ملابسه فيما عدا لباسه التحتي. هبط في المياه. لولي طلبت من حسنات والصبي أن يبقيا بعيدًا ولا يتدخلان. أسرعت إلى حيث ترك الفرنسيسي ملابسه. خلعت ملابسها فيما عدا رداء داخليًا خفيفًا. لا تهمها برودة الهواء. نزلت المياه. كلود عائد للشاطئ سباحة. شاهدها. الدهشة ثم الخوف. يسبح بعيدًا عنها. لولي أسرعت عدوًا ومياه البحر تصل لأعلى ركبتيها والموج يضرب في وسطها. لولي قوية الجسد مشتعلة إصرارًا، تسرع وتقطع على كلود الطريق. كاد كلود يفلت منها فألقت لولي بنفسها عليه فسقطا في المياه. قاما مبلَّلين وقد اهتاجت لولي أكثر وجسدها شَفّ وبانت تفاصيله تمامًا مع بلل القميص الخفيف الذي ترتديه. مسكت بذراعه واحتضنته فكادا يسقطان مرة أخرى. كلود يحاول إبعادها ولولي تحاول استكمال حضنها وتقبيله. يدفعها بعيدًا وهي تناجيه يا حبيبي يا زوجي يا أبو أولادي الخمسة. استطاع إبعادها عنه بصعوبة وأسرع خطواته للبر وهي تطارده ومدت يدها باستطالتها وأمسكته من شعره الطويل وجذبته فسقط على ظهره بين المياه والرمال. ارتمت لولي فوقه. اعتلته بكامل

جسدها، وجهها يكاد يلمس وجهه، وشعرها المبلل منسكب حول وجهيهما. تتحسَّسه وأنفاسها تلهبه والأمواج في نهاية هجومها على الشاطئ قد ضعفت، لكنها تصعد على الجسدين. كلود يرفع رأسه وقد دخلت المياه في أنفه وفمه. يدفعها بقوة فيسقطها جانبًا ويقوم ليهرب. أمسكت بساقه وعضَّته عضة غلٍّ، فصرخ وهو يقع مرة أخرى وهي تعتدل بنصفها العلوي. انحنى وصفعها بقوة فصرخت لولي وهي تسحب لباسه الداخلي وتتشبَّث به، فانكشف عضوه الذي يواجه وجهها. لولي في ذهول مما تراه.. عضوه ليس مختونًا! عضو كلود المواجه لها، والتي كانت تتمناه لجسدها ليس مختونًا. سقط كلود على ظهره وقد عرقله لباسه ويد لولي متشبثة به. نهض كلود مرعوبًا وترك لها اللباس وأسرع هاربًا. لولي وقفت وهي تتابع كلود الهارب في حسرة وذهول وغيظ. ثم انتابتها فرحة إمكانية الانتقام من كلود غير المختون. أخذت تلعنه بالنصراني الكاذب الكافر. تهدده بأنها ستفضحه وسيقتله المسلمون شر قتلة. كلود يحمل بقية ملابسه وواصل الهرب بعيدًا ولولي تواصل لعنه وهي تضرب بقدميها الرمال المبتلة تحتها.

كلود يأخذ خطوات مضطربة مُسرعة إلى بيت والديّ كَدِيسة. كَدِيسة في تعب الشهور الأولى للحمل. قال لكَدِيسة كلمة واحدة: تعالي. يعودان لبيتهما في الطابية. يسرع في المشي بساقيه الطويلتين وكَدِيسة تحاول اللحاق به وهي في إعياء وقلق عارمين،

أكيد أن بلاءً قد حدث. وفي البيت قال لها ما كان. كَدِيسة مبهوتة مرعوبة مما كان ومما سيكون. جلسا صامتين ثم أدركت كَدِيسة عِظَم المصيبة التي حلت بهما. لطمت على خديها وصاحت..

– مصيبة ووقعت على دماغنا.

تبكي كَدِيسة وتؤكد أن الناس لن يتركوه ولن يتركوها، وربما آذوا عائلتها كلها. قامت واحتضنته صائحة بأنه معرض للقتل الشنيع، الشك في إسلامه مصيبة. الشك أنه ما زال مسيحيًا مصيبة مهلكة. فلم يسمح أحد بزواج نصراني من مسلمة. هذا في بلادنا جُرم لا يُغتفر للناس. كارثة ستقع يا زوجي يا فرنسيسي.

لم يتوقع أي منهما أن الكارثة المتوقعة قد بدأت بالفعل. المغرب ينطوي والمساء بدأ يغطي المكان. سوق السمك هدأ بعد ابتعاد المشترين، لكن السوق به همهمات تتصاعد وكلمات حادة تنطلق. الكارثة تتصاعد. أصحاب اللحى وعلى رأسهم الملتحي المتعافي. يتجمَّعون، وقد أوصل لهم الصبي المراقب للفرنسيسي أنه شخصيًا شاهده يصلي للصليب، فتشاجر معه وسحب لباسه ورأى بأم عينيه أن الفرنسيسي غير مختون. إنها فرصة جاءت حتى أقدام الملتحي المتعافي وأسياده. صياحه يرتفع ويهيب بالمسلمين أن يدافعوا عن إسلامهم من اعتداء النصراني الإفرنجي.

برهومة في مكان مع شيخه يجلسان أمام الشيخ الذئبي يخططان.

أرسلا الرسائل الشفاهية مع عدد من الشباب على حميرهم لينطلقوا إلى كل أرجاء الإسكندرية، حيث تجمعات أصحاب الرايات السوداء الدمويين. في المقابل كان حميدو وخمسة من الشباب قد أسرعوا على ظهور الحمير ووصلوا لبيت الفرنسيسي وكَدِيسة. أبلغوهما أنه في دقائق قليلة سيحاصر أصحاب الرايات السوداء البيت، ولن يتركوا الفرنسيسي حيًا. حميدو ومن معه معهم حماران لكَدِيسة والفرنسيسي. الكل على ظهور الحمير انطلقوا سريعًا إلى البيت الكبير الذي يسكنه الفرنسيسي من يوم وصوله، وهناك عليهما جمع أهم وأخف ما يحتاجانه، وقبل الفجر يسرعان بعيدا عن الإسكندرية كلها. أما عائلة كَدِيسة فلا خوف عليها، الآن مجموعة من شباب الجيران وبائعي وصائدي السمك يدافعون عن البيت وسيبقون حامين له ليلًا ونهارًا.

الليل وحوافر الحمير السبعة المسرعة. الطرقات هادئة. حمار منها أصدر نهيقه فزاد من توتر راكبي الحمير، وكأن النهيق القبيح سيوقظ الإسكندرية كلها.

الموقف جد خطير، يتضح من أوله، المحتشد بالأحقاد والتربص والغل، أن نهايته حتمًا ستكون سفك الدماء. الليل في ظلامه المعتاد لكن الخوف في تلك الليلة زائد وغير معتاد. ضربات حوافر الحمير السبعة سريعة متوترة وراكبوها في غاية الانتباه والتوجس،

لا يستبعدون حدوث مفاجأة ما تصدمهم وتضعهم في خطر شديد. حمار حميدو بجوار حمار الفرنسيسي. حميدو يبلغ الفرنسيسي أن يرحل لدمياط. وهناك يذهب لـ صديق أبيه بَرَكَة، وسيتولى رعايته. وعندما دخلا شارع كانوبي وقاربوا البيت بدأوا في زيادة الاحتراس، فربما يكون هناك من ينتظرهم، قال حميدو للفرنسيسي إنه في حال وجود كمين، عليه بأخذ كَدِيسة داخل البيت لتكون في أمان. وقد كان.

البيت بحديقته مظلم إلا من فانوس مضاء على جدار من جدران حجرات الخدم الذين اختفوا. بمجرد أن دخلت مجموعة حميدو من الباب الخشبي المفتوح، حتى هاجمهم من الناحيتين ومن خلفهم عدد من شباب الرايات السوداء. كلهم يحملون العصي والسكاكين ويلعنون الكافر النصراني الإفِرِنْجي والزانية بائعة السمك. الفرنسيسي وثب من ظهر حماره وأمسك بلجام حمار كَدِيسة وأسرع به للأمام وبقدمه ضرب من هاجمهما في بطنه فأسقطه. حمل كَدِيسة سريعًا وصعد الدرجات السبع، ودخل المبنى ثم حجرتهما. في حديقة البيت شبه المظلم المعركة دموية بين حميدو ومعه الشباب الأربعة أنصاره، وضدهم ما يزيد على عشرة من المهاجمين. نتيجة لشبه مفاجأة الهجوم، سقط قتيل من زملاء حميدو. في دقائق بدأت الكفتان تتساويان، فالمهاجمون لم يتوقعوا أن الخمسة أقوياء متحمسون لا يخافونهم. حميدو يصول

ويجول فيهم وهو يلعنهم والصيحات تتعالى بالسباب والتهديدات والصرخات. في حجرتهما كَدِيسة تصرخ مرعوبة على حميدو ومن معه. الفرنسيسي لم يحاول تهدئتها أو حتى النظر إليها، في لحظتين كان قد أخرج سيفه من مخبئه. اقتربت منه كَدِيسة لتمسك به فأبعدها بحزم وقال كلمة واحدة:

– اقعدي.

المعركة دموية ضربًا بالعصي وطعنًا بالخناجر والسكاكين، وإن تلاحم اثنان فمع العصي والخناجر والسكاكين، يكون الضرب بالروسية والنص ركبة ومقلب الحرامية. حميدو فارس معارك الشوارع السكندرية، أكثر من مهاجم التفوا عليه منهم الملتحي المتعافي. حميدو يهارش الثلاثة ويناورهم لكن تركيزه على المتعافي فبينهما أحقاد قديمة، ومقتل المتعافي سيصيب عصابته باليأس. في حركة مباغتة تمكن من طعن المتعافي في بطنه فسقط أرضًا يولول، وفي سرعة بسن الخنجر مر على زور من أغاظه سقوط المتعافي وهجم عليه، فأسقط هذا أيضًا يشخر. رغم مهارات حميدو بدأت الغلبة العددية تنتصر وتحاصر الأربعة الذين فيهم حميدو، حتى أتى الفرنسيسي مشهرًا سيفه متخطيًا الدرجات السبع في وثبة واحدة ليكون وسط المعركة. في سرعة أطاح باثنين وأسقطهما قتلى وحاصر الثالث. انقلبت الموازين وصارت مجموعة حميدو

الأقل عددًا هي الراجحة. حميدو صاح فرحًا وهو يشـــاهد ما يفعله الفرنسيسي بسيفه. صاح فيه:

– يا فرنسيسي يا بطل. حَبّيب وفارس كمان يا وَلَهْ.

أصحاب الرايات السوداء يتراجعون بعد أن سقط منهم القتيل الرابع وثلاثة مصابين يجأرون فزعًا من نهايتهم. شباب سوق السمك وفي مقدمتهم حميدو والفرنسيسي يحاصرون أصحاب الرايات السوداء. كَدِيسة لم تطق البقاء في الحجرة، فخرجت ومن أعلى الدرجات السبع تتابع المعركة وقلبها يرفرف خوفًا على حبيبها وعلى أخيها حميدو ومن معهما.

أتباع الرايات الســـوداء ينســـحبون بظهورهم خـــارج البيت، وواضح أن المعركة ســـتنتهي عند هذا. فجأة قتيل كان يُشَخِّص أنه مات وانتهى أمره، ينهض في ســـرعة، لم يسمع أحد صيحة كَدِيسة التحذيرية وهي تقفز على الدرجات لتجري وتلحق بالخبيث المتسلل لظهـــر حميـــدو، لحقت به ووثبت على ظهـــره لكنه كان قد وصل لظهر حميدو وطعنه بســـكينه في غل طعنة غادرة. صرخ حميدو ألمًا وكَدِيســـة تصرخ هلعًا وهي متعلقة متشبثة بعنق القاتل وتعضه من قفاه.

التفت حميدو وصيحـــة الألم تخرج من فمه المفتوح على آخره وبخنجـــره طعنَ طاعِنه فـــي قلبه ثم ركله بباطـــن قدمه في بطنه

فأسقطه على ظهره وتحته كَدِيســة. زميل لحميدو أبعد كَدِيسة من تحت القاتل القتيل. كان هذا الغــادر هو الملتحي المتعافي. حميدو هبــط على ركبتيه والتــف حوله من معه. الفرنسيســي ينظر إليه في حســرة وألم. أرقدوه أرضًا فالمهاجمــون المتآمرون يهربون. الفرنسيسي من غيظه وحسرته على حميدو أسرع مطاردًا للهاربين ولحــق باثنين منهم وقتلهما في لحظتين. اختفى الباقون في الظلام. عاد بسيفه الملوث بدماء من قتلهم حيث حميدو مستلقًى على جانبه ورأســه على فخذ كَدِيســة الباكية. الكل حوله. نظر للفرنسيســي محاولًا الابتسام.

– بسرعة. اهرب إنتَ وكَدِيسة. إنتَ فارس تقدر تحميها. وإحنا هنا قدِّهم ولاد الخربانة المجرمين دول. فرنسيسي.. روح دمياط بسرعة.

كَدِيسة تنحني برأسها فينسدل شعرها على وجه حميدو. تحتضن رأسه بقوة تبكي صائحة:

– أخويًا. أخويا حميدو.

حميدو ينازع وسيفارق الجمع سريعًا. يبعد رأسه عن حضن كَدِيسة يحشرج ويقول:

– ضربني في ضهري ابن الخاينة المتعافي. كَدِيسة.. أنا أخوكي اللي محدش يغلبني. لكن الغدر بقَى، تقولي إيه؟

– حتعيش يا حميدو وحنداويك.

– لا. خلاص. سايبها دنيا التعب. خللوا بالكم على بنتي عنبة وأمها. شوفي يا كَدِيسة، الفرنسيسي بيحبِك قوي. دا طلع فارس، لا دا طلع أبو الفوارس كمان. يا قلبك يا فرنسيسي، كنت مخبّي فروسيتك طول المدّة دي! كَدِيسة. جوزك دا واد مجدع حيخلي باله عليك. في دمياط عند.. آآآه.

مات حميدو وكَدِيسة تُوَلْوِلْ عليه والدموع تنهمر من عيون أتباعه ومن عينيّ الفرنسيسي. وقبل أن يفكروا ما العمل، وكيف يبلغون أباه بَرَكَة وزوجته فطومة؟ كان أتباع الرايات السوداء قد عادوا ومعهم أضعاف أضعاف عددهم وحاصروا بيت الفرنسيس. في سرعة أغلق الفرنسيسي ومن معه الباب وبقوا في الداخل محاصرين. اثنان منهم يحملون جثة زميلهم ويدخلون بها داخل البيت. كَدِيسة وما زال رأس حميدو على فخذها تصرخ وتلطم خديها. أبعدوا كَدِيسة ووضعوا جثة حميدو مع الجثة الأخرى. كَدِيسة تحاول إلقاء نفسها على جثة حميدو. الفرنسيسي حملها رغمًا عنها وعن صراخها وأدخلها حجرتهما ومددَّها على السرير وجلس بجوارها يهدئها. الفرنسيسي أتاه عذاب قديم جديد. لقد تعهد ألا يقتل أحدًا بعد حادثة قتله زعيم العصابة التي هاجمته في مرسيليا وكان معه كونراد. قتله وهو يهرب منه. لحظات سريعة وسحابة

ندم تغشى ملامحه، ثم سطوع قوي يزيح تلك السحابة. سطوع حق يقول له.. لقد قمت بما كان يجب أن تقوم به. هؤلاء إجرامهم أحقر من عصابة مرسيليا. قتلوا حميدو وشابًا من الشباب الذين أتوا دفاعًا عنك وعن زوجتك. أفاق الفرنسيسي من ذكرياته سريعًا على صراخ كَدِيسة المستمر. أخذ يهدِّئها ويطلب منها أن تراعي من في بطنها، ففي بطنها حميدو الجديد. هنا هدأت كَدِيسة قليلًا وصار بكاؤها هادئا. تركها الفرنسيسي وعاد لبقية المدافعين.

خبر المعركة ومقتل حميدو وزميله والمتعافي وسبعة من زملائه وصل حي الطابية عن طريق أصحاب الرايات أنفسهم، فمن القتلى الثمانية حميدو وزميله وأحد القتلى من شباب الرايات السوداء من أبناء حي الطابية. صراخ أمهات القتلى وعائلاتهم ارتفع. فطومة خائرة أرضًا تلطم وتضع التراب على رأسها. وابنتها عنبة تبكي وقد حملتها إحدى السيدات. بَركَة واقف وسط الرجال الذين التفوا حوله. لا يتكلم. ينظر إليهم في حيرة ويضرب كفًا بكف ويتحسر على ابنه حميدو، لكنه لم يبك، بل يبتسم في سخرية وعدم فهم. لا يستطيع أن يصدق أن حميدو قُتِل! وقبل أن ينهار أرضًا أمسكوا به وأدخلوه حجرته وأرقدوه فأغمض عينيه واستمر في عدم الكلام وعدم البكاء. كارثته أكبر من دموع تهطل وأعمق من كلمات ترثي. رفض أن يشرب جرعة ماء ورفض حتى أن يفتح عينيه.

خلال كل هذا الزحام والبكاء واللطم، أتى عدد من شباب الرايات السوداء، وأعلنوا في ثقة أنهم يحاصرون بيت الفرنسيسي، ولن يتركوه يخرج منه إلا جثة هامدة هو ومن معه. معركة كادت تنشب بين أغلب رجال وشباب المنطقة وبين شباب الرايات السوداء الذين انسحبوا سريعًا. سعدية توقفت عن الصراخ والبكاء. أخذت زوجها حليمو بعيدًا. أحضرت حمارًا وامتطته وأمرت حليمو بأن يثب خلفها. الحمار يسرع بهما. المسافة ليست قصيرة. حليمو يهمهم خشية على ابنته الحامل. وسعدية كل ما تقوله حا. حا، حثًا للحمار أن يسرع أسرع مما هو يسرع. وعند باب بيت عصمت كوسا هبطا. حليمو يمسك بالحمار وسعدية تضرب بقبضتيها على الباب. فتح خادم فدفعته سعدية جانبًا ودخلت وخلفها حليمو الذي ترك الحمار للخادم. وأخذا خطوات في داخل الحديقة حتى حاصرهما الخدم حاملين فانوسين مضيئين وأوقفوهما في ضجيج اتهامات وتهديدات. من نافذته العلوية نظر عصمت، ولما تبين أنها سعدية أمر الخدم بتركهما. الدور الأرضي حيث هبط عصمت وخلفه زوجته كريمات بملابس البيت. لولي تسحَّبت وهبطت خلفهما وبقيت بعيدًا تراقب. خائفة فهي السبب في كل ما يحدث. عصمت وكريمات جلسا في حيرة وأمامهما سعدية وزوجها. خادمة عجوز تقف على بعد في انتظار أي أمر يأتيها. سعدية لم تضع الوقت قالت وهي تبكي:

– عصمت. عصمت كوسا..

صاحت كريمات..

– اتكلمي يا ست أنتِ. مصيبة حصلت؟

– أيوة مصيبة. مصيبة كبيرة. عصمت.. قتلوا ابنك.

– ..

– قتلوا ابنك حميدو يا عصمت.

عصمت ينظر لسعدية في ذهول وكريمات تنظر لعصمت في خوف عليه. وقبل أن يقول عصمت حرفًا كانت سعدية تحكي ما حدث في بيت الفرنسيسي، وأن حصار الرايات السوداء يشتد على الفرنسيسي وكَدِيسة، ينوون قتلهما، وأن كَدِيسة حامل في شهرها الرابع، وأن على عصمت أن ينتقم لابنه ويفك الحصار عن ابنتها كَدِيسة.

دموع في عينيّ عصمت لكنها لم تهبط. يتنفس بصعوبة. وجهه صار شمعيًا. ضرب الجميع صوت لولي وهي تندفع وتلعن سعدية بالكاذبة الحقيرة، فليس لأبيها ابن غير نظمت الذي غَرَق. لولي اقتربت من سعدية لتصفعها. هبّ حليمو في هبّة رجولية نادرة ما يفعلها وأبعد لولي. عصمت قفز من مكانه وأمسك لولي من شعرها وجذبها جذبة شديدة بيمناه وبيسراه صفعها صفعة مدوية. لولي في

ذهول وأبوها يصرخ فيها بأن تصعد لحجرتها فصعدت سريعًا.

بإشارة من كريمات صعدت الخادمة العجوز وهبطت سريعًا ومعها ملابس لسيدها عصمت كوسا الذي خلع ملابس البيت وارتدى ملابس الخروج أمام الجميع دون حرج، فهو ما زال في ذهول من مقتل ابنه. أمر الخادمة بأن تأتي له بشاب من الخدم. نظر لسعدية وقال وقد بدأت دموعه في الانهمار:

– كنتْ مغرور. وتخليت عن سونة. يا رب تكون سونة سامحتني. قومي بسرعة نلحقوا بَرَكَة، حيموت فيها ربنا يكون في عونه. أما اللي قتلوا ابني حميدو، أنا عارف مين اللي خطط لقتل ابني. سعدية.. بكرة اللي تسبب في قتل ابني، مقتول.

أتى الخادم الشاب. اتجه له عصمت وأعطاه الأوامر. نظر لزوجته كريمات وطمأنها. ثم أسرعوا ثلاثتهم عصمت وسعدية وحليمو إلى خارج البيت. سعدية تريد الاطمئنان على ابنتها وفك الحصار عنها وعن زوجها الفرنسيسي، طمأنها عصمت أنه أمر بمجاميع من رجاله بأن يذهبوا للدفاع عن بيت الفرنسيسي. عصمت على حمار قوي سبق الحمار الذي تمطيه سعدية وحيلمو.

لكن كيف يكون حميدو بن بَرَكَة هو ابن عصمت كوسا؟ من نحو أكثر من عشرين عامًا من الأحداث الجارية، كانت منطقة الطابية تحوي بيوتًا لمستوري الحال، بيوتا ليست لاستقرار العائلات، بل

هي مُخصصة للسهر والمتعة سواء كانت المتعة حلالًا أم حرامًا، فكل من له بيت في منطقة الطابية له بيته الأساسي خارجها. واستمر هذا الوضع حتى بدأ صيادو وبائعو السمك في بناء بيوت في منطقة الطابية والإقامة فيها إقامة أساسية، فزاحموا المستورين في بيوت المتعة والمزاج، فترك المستورون بيوتهم مضطرين، باعوها وانفضوا، فلم تعد منطقة الطابية تصلح للسهر الحر في الفضاء المتسع. قبل طفشان المستورين من منطقة الطابية، بعض الفتية والفتيان الفقراء من حي فقير قريب من منطقة الطابية، كانوا يعملون في خدمة تلك البيوت المستورة. وحدث بين الفتيات الفقراء وبعض أصحاب البيوت الكثير من المخازي. حاول البعض الاعتداء على الفتيات أو على الأقل مراودتهن على شرفهن.

ثلاثة من الفتيات رضخن وصرن مومسات بعد هذا. وإن كان بعض الفتيات وافقن على السماح بمداعبة أجسادهن وتقبيلهن دون التمادي في المضاجعة الكاملة. من ضمن تلك الفتيات الصغيرات كانتا سعدية وسونة. حليمو جار للفتاتين في المنطقة الفقيرة، ويكبرهما بثلاث سنوات. من المفترض أنه هو الحامي لهما والذي يعطي الاطمئنان لعائلة الفتاتين سعدية وسونة.

حقيقة، حليمو فتى أي كلام، كالريشة تطير حسب الريح. حليمو رضخ لغني لوطي يعشق أن يفعل فيه الذكور، فكان حليمو يفعل

فيه مقابل قطعة نقدية بسيطة كل مرة. سعدية وسونة واجهتا الكثير من الإغراءات لتوافقا على تسليم جسديهما لبعض ملاك البيوت. رفضتا وإن اضطرتا لتحمل الكثير من السخافات لتنالا نهاية كل يوم قطعتين أو ثلاثًا من النقود. سعدية عادية إلا من مؤخرة ممتلئة تتماوج فلفتاها حتى وهي تسير في خطوات عادية لا تقصد بها أي إغراء. قاومت بشراسة أن يضاجعها أحد مهما كان إغراؤه المالي، لكنها اضطرت لترك شاب يمارس مزاجه في مؤخرتها.

أما سونة فهي الجميلة وجها وجسدًا والأكثر سذاجة، أحبت ووثقت فيمن أحبته، وتركته يضاجعها. ولما تخلّى عنها رافضًا الزواج منها، لم تحقد عليه ولم تكرهه، بل التمست له العذر، فهو الغني ذو المكانة، هو ابن صاحب أكثر وأكبر مراكب الصيد، وأهم بائع جملة للسمك في المدينة. فكيف يتزوجها وهي الفقيرة الغلبانة؟

خلال عودة الأولاد والبنات من منطقة الطابية، يمرون على سوق السمك ويشترون لعائلاتهم ما يحتاجونه من سمك، ويشترون لغير عائلاتهم أيضًا بمكسب يسير يضاف لما يكسبونه من خدمة بيوت الطابية. خلال ذلك كان الصيادون الشباب يعجبون بجمال سونة خاصة من بين الفتيات، والكثير منهم يلاغونها ويشاكسونها ويتلمَّظون على جسدها، صياد شاب واحد لم يلاغِ ولم يشاكس

سونة، أحبها بإخلاص وإن لم يتفوّه بكلمة. يخجل من الاعتراف بحبه. هو قوي الجسد لكنه لا يمتلك لا وسامة ولا مالًا ولا حتى مفهومية عقل عادية، فهو ساذج وعلى حدود البلاهة. يعلم المسكين أن من هم أغنى وأحلى منه يسعون وراءها، فكيف ينافسهم وهل أصلًا ستلاحظه الفتاة الجميلة سونة؟ يتابعها وهي تشتري السمك، وشاهدها عددًا من المرات تنظف في بيت صديقه عصمت كوسا. يتابعها وهي تقوم بعملها وإن اقتربت منه يدّعي الانشغال بشيء حتى لا يظهر عليه أي ارتباك يفضحه. الذي ساعده في كتمان حبه، أن عصمت كوسا لا يتوقع منه أن يحب سونة الجميلة. ثم في ليلة كان في خمارة وتجرع كوزين من البوظة، سكر، دمعت عيناه واعترف بحبه لسونة. ضحك من حوله وصاروا يسخرون منه في الخمارة، واستمرت السخرية وسط الصيادين. هذا الشاب المُحب هو بَرَكَة. بركة الشاب الفقير الساذج. وصل الأمر لسونة وسعدية وحليمو، فاستقبلوا حب الشاب الساذج لسونة بضحك شبابي ولم تغضب سونة.

الشاب الغني عصمت كوسا ضحك من إعلان صديقه بَرَكَة ولم يعقب. عصمت لم يحب سونة رغم أنه قال لها إنه يحبها. هو معجب بجمالها وابتسامتها الطيبة وطبعها الحالم البريء. ولمكانته ومكانة عائلته أبقى علاقته بسونة سرًا، في الليالي التي يجلب في بيته بالطابية فرقة من العوالم تحيي السهرة غناءً ورقصًا، يبقى عدد

من الخادمين والخادمات ليخدموا السهرة والساهرين، لكن سونة خاصة لا، وبالفعل لم يعلم أحد من أصدقائه أو معارفه أو حتى أحد جيرانه أو الصيادون، بأنه يحب سونة. سونة أحبت عصمت كوسا وأحبَّت إعجابه بها واعتبرته حبًا، فهو الجميل جسمًا والأشقر وجهًا والأنيق ملبسًا. فكانت في حضنه كثيرًا ورغم تحذير سعدية.

عصر يوم وهي في أحضان عصمت كوسا ولم تستطع السيطرة على نفسها وتركته يستكمل رغبته ويفض بكارتها. سعدية كادت تصرخ بصوت عالٍ حين صارحتها سونة بما كان، لكن سونة لم تكن في فزع لهذه المصيبة. فهي في حالة استغراق في الحب ولم تفكر.. وماذا بعد؟ ولم تغضب حين صارحها عصمت بأنه لن يستطيع الزواج منها، أصابتها حسرة واستسلمت له بعدها كثيرًا فهي تحبه وتحب أن يضاجعها. يكفيها ظنها بأنه يحبها كما تحبه.

اثنان يعرفان بما كان بين عصمت كوسا وسونة. سعدية وحليمو، فالثلاثة يعرفون كل ما يخص أحدًا منهم. سعدية هاجمت عصمت كوسا واتهمته بالغدر، قال في غضب: إن مكانة عائلته لا تسمح له بالزواج من سونة، بالإضافة أنه لن يتزوج فتاة تركته يفضها. فمن تركته يفعل فيها ستترك غيره يفعل فيها! لعنته سعدية واحتقرته، سونة لم تلعن عصمت كوسا بل تقبَّلت رأيه ولامت نفسها على ضعفها، وقالت أكثر من مرة إنها سامحته. وحليمو لم يفعل أي

شيء، يواسي سونة ويتحمل لعنات سعدية وكأنه هو الذي فض سونة! تتهمه بأنه لم يدافع عن سونة! وحليمو لا يعرف، كيف كان يدافع عنها؟

مشكلة حبل سونة ستتفاقم مع الوقت. سعدية قالت الحل لعصمت كوسا:

– قبل أن تكبر بطن سونة، زوّجها لبَرَكَة!

صداقة عصمت مع بَرَكَة ليس فقط تبركًا ببَرَكَة، لكنه يحبه لطيبته ولأن بَرَكَة لا يحسده على غِناه. تزوَّجها بَرَكَة وسط دهشة الجميع! عاشت سونة مع بَرَكَة شهورًا في سعادة، صدّت كل محاولات التودد من جميع الشباب والرجال. وجدت في بَرَكَة الطيبة والحنان. سونة أنجبت حميدو وماتت، وقد أحبت بَرَكَة أكثر من حبها القديم لعصمت.

عام مر وتزوجت سعدية من حليمو، فهو المتوفر لها والذي يعرف ما كانت تفعله مثلما هي تعرف ما كان يفعله. عصمت كوسا ندم ندمًا حارقًا لتخليه عن الجميلة الطيبة سونة، خاصة بعدما كتمت السر في قلبها ولم تحاول فضح عصمت أو استغلاله أو حتى لومه. وازداد عصمت ندمًا وحزنا على سونة بعد موتها. وبعد كارثة غرق ابنه عصمت، ظن أن اللـه يعاقبه على قسوته وتكبره على سونة فأخذ ابنه، ويعاقبه اللـه أكثر وأكثر أن له ولدًا ذكرًا من

صُلبه هو حميدو، وهذا الولد لا يعرف أن عصمت كوسا ابنه، ولا يستطيع عصمت الاعتراف بأبوَّته ولا يستطيع أن يعطيه الجانب الأعظم من ثروته. حميدو يكبر في بيت صديقه بَرَكَة، ويعامل بَرَكَة وينادِيه على أنه أبوه! حميدو يكبر ويشب شابًا وسيمًا قويًا يحمل جمال عيني أمه سونة وجسد عصمت كوسا القوي. وليكفر عصمت كوسا عن سيئاته، بنى بيتًا في الطابية وأهداه لبَرَكَة وسونة بحجّة صداقته العميقة لبَرَكَة، وأيضًا فتح لبَرَكَة دكانًا صغيرًا في الساحة الكبيرة لسوق السمك حيث أغلى الأمكنة. وليراضي سعدية وحليمو وهما الوحيدين اللذين يعلمان ما كان بينه وبين سونة، بنى لهما بيتا بجوار بيت بَرَكَة وسونة، وفتح لهما دكانًا لبيع السمك لكن ليس في الساحة الكبيرة للسوق. وفي أي ضائقة مالية تمر بهما، فهو يساعدهما بكرم بالغ. فعاشت العائلتان عائلة بَرَكَة وعائلة سعدية وحليمو في ستر.

بَرَكَة أحب سونة حبًا عميقًا، وقبل أن تسلم سونة الروح طمأنها على ابنها. أقسم لها أنه سيقوم بتربيته والحفاظ عليه. وحافظ بَرَكَة على وعده ولم يبرد حبه لسونة أبدًا، فقد قرر أنها ستكون حبيبته وزوجته الوحيدة وهي ميتة وحتى مماته هو.

لم يشك أحد في حقيقة نسب حميدو، ومن طفولته كثيرًا ما كان بَرَكَة يحتضنه ويبكي أمه سونة ويحكي له عن جمالها وطيبتها

وحبها للناس، فكان الحزن يتضاعف في قلب حميدو حسرة على فقْد أمه وحرقة على آلام أبيه. حميدو لم يكن يريحه سوى سعدية التي تتعمد أن تحكي له بعض حكايات مضحكة كانتا تقومان بها هي وأمه سونة خلال طفولتهما وأول شبابهما. بعض الحكايات حقيقية والبعض تؤلّفها لكي تسعد حميدو. وبالطبع لم تقل له عن أمه وأن من أحبته وضاجعها وأحبلها وغدر بها رافضًا الزواج منها هو عصمت كوسا.

حين قاربت سعدية عمر الخامسة عشر، كان بنيامين قد تخطى الأربعين ومتزوجًا وله أولاد. له بيت في الطابية. بيته للسهرات الطيبات مع الأصدقاء مسلمين ومسيحيين ويهود. وكان أكبر أصحاب الأعمال اليهود يأتون عنده مثل سموحة، أشهر وأغنى ملاك الأراضي في الإسكندرية، وصديقيه منشة وعدس، يتسامرون ويتناقشون في الأعمال. وأحيانًا يأتي بفرقة غناء ورقص. أو يستضيف تجارًا آتين من خارج الإسكندرية، لكنه لم يأت بمومسات أبدًا. أصلًا بنيامين كان فقيرًا يسكن حارة اليهود، أي كان جارًا لجدَّي سعدية. ثم فتح مطعمًا للفول والطعمية فنجح المطعم وصار قبلة السكندريين عمومًا عاشقي تلك الأكلة الشعبية الرخيصة، فاغتنى بنيامين وانتقل إلى أحياء الأغنياء.

سعدية مع غيرها تأتي لتنظف بيت بنيامين أو تخدم ضيوفه.

طلبها أن تبقى هي وغيرها ليخدمن في سهرة يقيمها في بيته. سعدية تلك الليلة كانت في قلق عميق. أسقطت أطباق صيني غالية من يدها فانكسرت. نالت لومًا ممن يشرف على العمل. خرجت ووقفت على باب البيت الخارجي. الليل يحويها وتتنفس هواء البحر بعمق. وجدت يدا تربت على كتفها، ابتعدت خطوة للأمام وهي تلتفت فزعة.. وجدت بنيامين ينظر إليها في ودّ. لكنها من تجاربها تعودت القلق من غرض الذكور. قال لها إنه لاحظ أنها مضطربة، وأنه ليس غاضبًا من كسر الأطباق الغالية. سألها عن سبب اضطرابها وحزنها. قالت إنها تركت أمها مريضة في البيت. فقال لها اذهبي إلى أمك لتراعيها. ولما بان عليها القلق، مد يده في جيبه وأعطاها ما يزيد على حقها في عمل الليلة كلها.

بعدها تعودت الحديث مع بنيامين، وسأل عن أمها كثيرًا. أحيانا يحاورها ضاحكًا فهي لا تفك الخط ولا تعي من أمور الدنيا سوى ما يمس الحياة اليومية. لم تجد فيه طمعًا فيها ولا استعلاءً، وهو من العائلات الغنية في الإسكندرية، ولما غابت ثلاثة أيام وعادت بعد أن توفيت أمها، منحها مبلغًا إضافيًا. ولما قالت لم أكن أعرف أن اليهود الأغنياء طيبون هكذا، لأن صديقة لها اشتكت من عائلة يهودية غنية عاملتها باستكبار واستهانة. ضحك وقال: بل نحن أغنياء اليهود مثل فقراء اليهود ومثل بقية الناس مسلمين ومسيحيين وغيرهم. فينا الطيب وفينا الرديء. كنت فقيرًا وصرت غنيًا بفضل

من اللـه، ولم ولن أتعاظم على الفقراء، فقد قال سليمان الحكيم.. تَأْتِي الْكِبْرِيَاءُ فَيَأْتِي الْهَوَانُ، وَمَعَ الْمُتَوَاضِعِينَ حِكْمَةٌ. ويا سعدية، لأني أقرأ كثيرًا، فقد عرفت أن في أزمان ماضية كان المسلمون في سماحة مع اليهود والمسيحيين، وليس مثل هذه الأيام التي تضيع فيها السماحة وتتزايد فيها القبائح.

بنيامين وسعدية صارا صديقين وكثيرًا ما يتركها وحدها في بيته تقوم بعملها، استأمنها ولم يقلق منها، رغم أن فتاة من زميلات سعدية كانت تعطي جسدها وتضاجع من يعطيها ما تطلبه من المال، هذه الفتاة من أيام قليلة طعنت صاحب البيت وسرقت مالًا ومصاغ ذهبية وهربت. أمسكوا بعائلتها لكن الفتاة فص ملح وذاب. بنيامين طلب سعدية للعمل في بيته الأساسي، فوجدت عائلته لا تقل عنه ذوقًا وحنانًا عليها. ثم انشغلت في زواجها وظروفها وانقطعت عن بنيامين وعائلته. وبنيامين بعدما كان متداخلًا مع الناس، بدأ ينزوي، وصار حزينا مثل غيره من اليهود لتنامي كره اليهود في المدينة مع صعود الرايات السوداء. وحزن أكثر بعد هجرة أخته الأكبر منه وأخوه الأصغر ثم رحيل صديقيه الأصغر سنًا عدس وسموحة. ولم يبق له من صديق حميم سوى منشة، وخلت المعابد اليهودية من المصلين.

مضت السنوات وفوجئ بنيامين بسعدية تحضر له في بيته

وتدعوه وعائلته لحضور ليلة زفاف ابنتها كَدِيسة، فحضر حفل زواج كَدِيسة فرقصت معه وقال لها إن صديق عمره منشة سافر لأسوان لزيارة جزيرة الفنتين النوبية، تلك الجزيرة التي تتوسط النيل. وكان اليهود يزورونها ويتبرَّكون بها في مضى. وحين يعود منشة يكون هو قد باع دكانه وصفَّى أعماله مثلما فعل منشة، ويهاجران معًا من الإسكندرية وعموم مصر. فدمعت عيناها ودمعت عيناه.

منطقة الطابية مضاءة بالفوانيس والمأتم الجماعي شغّال والفجر تبقى له وقت قليل ويصل. بعض الشباب والرجال في حلقات يتحاورون في أصوات عالية ويتوعَّدون أصحاب الرايات السوداء، وحلقات من النساء في لطم وصراخ ولعن في أصحاب الرايات السوداء. فجأة عصمت كوسا وصل. يخترق الزحام والدموع تنهال من عينيه ومن يشاهده يوسّع له الطريق. لم يصبر حتى يصل لبَرَكَة. صاح من بعيد:

– بَرَكَة.

بَرَكَة المستلقي كالجثة وقد زمّ شفتيه ويضغط على جفنيه ليكتم آلامه ولا يرى الواقع المأساوي الذي يحيط به. بَرَكَة لا يستطيع أن يصرخ باكيًا ولا يريد أن يرى، يرفض استيعاب مقتل حميدو. سمع صيحة عصمت يناديه. ففتح عينيه وفتح فمه وصاح هو الآخر:

– عصمت.

بَرَكَة فَزّ قام وأبعد الذين حوله وأسرع بقدر ما يسمح له وزنه خارجًا من باب بيته، فوجد عصمت على بعد خطوات منه يأتي إليه. صاح:

– قتلو حميدو يا عصمت.

اندفعا واحتضنا بعضهما بعضًا وهما يبكيان وينتحبان.. حميدو. حميدو مات. حميدو قتلوه. ابننا راح. يرقصان رقصة طائرين ضخمين بعد ذبحهما وربطهما معًا. يحتضنان بعضهما بقوة ويدوران حول نفسيهما وفي المكان فأبكيا الرجال من حولهما وصرخت النساء أكثر وأكثر وأغمى على فطومة. وفجأة يسقط بَرَكَة أرضًا على ظهره ويأخذ معه عصمت فوقه. الرجال يفصلون عصمت عن بَرَكَة والاثنان يرفضان ترك بعضهما. بصعوبة رفعوا عصمت عن بَرَكَة. ولما أمسكوا ببَرَكَة وجدوه قد أغمى عليه.

والفجر يشقشق، أفاق بَرَكَة، وجد عددًا من الرجال واقفين حول فراشه. الوحيد الذي يجلس بجواره دامع العينين منهارًا هو عصمت كوسا. حزن مُقَطّر يسبح في تجاعيد وجه بَرَكَة ولمعة الدموع في عينيه. أشار لعصمت أن يقرّب وجهه منه. عصمت والدموع تسيل من عينيه انحنى بجذعه ورقبته وقرّب أذنه من فم بَرَكَة. فهمس له بَرَكَة:

– سونة قالت لي حكايتها. سونة ماتت مسامحة. وأنا مسامحك.

حميدو ابنك من صلبك، وأنا معاك ربّيته. حميدو ابننا سوا. لكن.. حميدو مات. حفيدتنا عنبة. خلّي بالك منها.

عصمت يقف كالطود الثابت وفي داخله خلخلة بعد زلزال كلمات بَرَكَة. هل بَرَكَة يعرف من سنوات ما كان بينه وبين سونة! ولم يغضب من عصمت ولم يحقد عليه ولم يظهر ولو لمحة ضيق تعتريه، وكانا يلتقيان كثيرًا ببعضهما! أفاق عصمت كوسا. عليه دوْر وأمامه مسئوليات يجب أن يقوم بها. أخذ يطمئن من حوله بألا يقلقوا على كَدِيسة والفرنسيسي، فقد أرسل إليهما مجموعة كبيرة من الرجال بالسكاكين والعصي ليفكوا حصارهما. ثم تعمَّد أن يناقش بصوت يمكن سماعه، كيف سيأخذون كَدِيسة والفرنسيسي إلى مزارع يِنّي البيانكي ومنها إلى تونس، ومن هناك يبحران إلى فرنسا.

الفجر شقشــق وبان. الحمير المســرعة تجري وعلى ظهورها المجاميــع التي أرســلها عصمت كوســا لفك الحصــار عن بيت الفرنسيسي وكَدِيســة. ما كادت المجموعة تقترب من البيت، حتى هرب رجال الرايات السوداء وفكوا حصار البيت. وسريعًا خرجت مجموعة عصمت كوسا كثيفة العدد ووسطهم كَدِيسة والفرنسيسي. واتجهوا ناحية الغرب. وفي مسافة ما، لحقت بهما سعدية وحليمو. واحتضنا بعضهم ثــم كان الوداع الاضطــراري بالبكاء الغزير.

ورغم حَبَلْ كَدِيســـة فقد تحملت بشبابها وحيويتها مشقة السفر على ظهر حمار. ثلاثة من الشــباب حاملي العصـــي والخناجر معهما حتى وصلــوا لمزارع يَنِّي البيانكي. راحة ســاعتان، أطبق ظلام الليل فاســتمروا في المســيرة غربًا، لكنهم لم يصلوا لتونس. قبل انبلاج الصباح وصلوا للمرفأ الصغير. الفرنسيســي وكَدِيسة ركبا مركبا عادت بهما شرقًا. ومن بعيد في أعماق البحر الوسيط تخطيا الإســكندرية ووصلا لمــكان قبل دمياط بقليل. قريـــة نائية وعلى أطرافهـــا بيت متطـــرف. وهناك كان في انتظارهما تاجر ســمك صعيدي، أتى إلى الإســكندرية وعمل لدى عصمت كوسا وصادق بَركة، قبل أن يرحل لدمياط.

تاجر السمك هو عبد المقصود. من قلب الصعيد. ترك قريته بعد حفل زفاف حدثت فيه واقعة دموية كان عبد المقصود الطرف الأساسي فيها. اللعبة الشعبية في الصعيد هي التحطيب. واللعبة لعبة قتال. لكنها في الأفراح سلمية تستعرض فنون القتال بالعصي الغليظة. وعبد المقصود شاب في الثامنة عشر، من أشهر لاعبي التحطيب. عصر يوم الزفاف حلقة واسعة من الرجال والشباب. ينزل الحلقة لاعبان بعد لاعبين يتبارزان في استعراض للتحطيب وفنونه. من أعلى أسطح المنازل القريبة النساء يشاهدن المباريات. دخل الشاب القوي عبد المقصود الحلبة بعصاته متعاجبًا بشبابه وبقوته فرحًا، لأنه خطب فتاة من أجمل وأغنى فتيات القرية.

فنزل أمامه الشاب الذي نافسه في انتزاع الفتاة التي فاز بها عبد المقصود. يتقابل الغريمان ويقولان كلمة الافتتاح.. أبيض. أي لعبة سلام. لكن غريمه كان يحمل له ضغينة هزيمته وضياع الفتاة منه، فقال أزرق. بمجرد نطق أحد الغريمين لهذه الكلمة ينقض كل على غريمه وقد تحولت اللعبة السلمية إلى معركة حرب قاتل أو قتيل. انطلقت المبارزة بالعصاتين الغليظتين. أصوات اصطدامهما ببعضهما مرعبة وكلا الشابين يقفز هنا وهناك ويصد الضربات ويضرب ضرباته وكل ضربة إن أصابت مقصدها إما تقتل أو على أقله تصيب المضروب بالعجز الجسدي. وقبل أن يتدخل الرجال بينهما، كان عبد المقصود قد استغل رفع غريمه يديه بعصاته فوجه له ضربة جانبية من تحت إبطه أصابت أضلعه وقلبه فسقط الغريم أرضًا يتلوّى وفي اليوم الثاني فارق الحياة.

ومهما أقسم عبد المقصود أن غريمه هو الذي نطق أزرق، كان لزامًا عليه أن يهجر قريته، وإلا تمكنت عائلة غريمه القتيل من قتله أخذًا بالثأر.

هجر عبد المقصود قريته، ومعه زوجته الشابة الجميلة التي خطبها من أسبوع، والتي كانت سبب تلك المعركة المميتة. زوّجوها له سريعًا قبل الرحيل، فعائلتها تعلم أن الفتاة صارت شؤمًا ولن يتقدم لها شاب من بعد. انطلقا معًا في رحلة غربة إلى

أقصى الشمال، إلى الإسكندرية ثم دمياط حيث قريب له مختفٍ من زمن. لم يتعلم عبد المقصود الصيد، بل بغريزة أهل الصعيد دخل في تجارة شراء وبيع السمك مثل ابن عمه. عبد المقصود قلق من أسلوب معيشة أهل دمياط المختلفة عنهم في الصعيد. الصعيد المتشدد ويكاد يسجن النساء في البيوت، والمرأة من بيت أبيها إلى بيت زوجها ومنه إلى القبر. اختار عبد المقصود أن يبني عشّة متطرفة من البوص في قرية هي أيضًا متطرفة عن دمياط، بحيث لا يكون له جيران. ومع الوقت بدأ يلين ويتأقلم مع الحياة الجديدة، وبدأ يأخذ زوجته إلى دمياط لتتهوّى قليلًا وترى الناس وهي بالنقاب حتى لا يراها أحد. زوجته تتعجب من نساء دمياط مكشوفات الوجه في الغالب، عاريات العنق وأعلى الذراعين. يتحادثن مع الرجال ويبعن ويشترين رغم تكاثر الرجال ذوي الذقون المتحجّرة كما تقول النساء عنهم.

حبلت زوجته وأنجبت له أنثى فحزن قليلًا، كان يتمنى ذكرًا يسانده ويكون عزْوة له في غربته. استسلم لقضاء اللـه وأطلق على ابنته اسم أمه، عوَّاضة. ماتت زوجته وتركت له عواضة في الثالثة من عمرها. فأتت النساء وقمن بالواجب في غسل الزوجة الغسل الشرعي. بل وجئن له يعزّينه فيها! يتعجب عبد المقصود وبدأ التغيير قويًا فيه، فوافق لعائلة قبطية أن تبني بيتًا قريبًا من بيته.

الفرنسيسي وكَدِيسة دخلا بيت عبد المقصود بفنائه الواسع ولم يخرجا منه حتى لبعض خطوات معدودة كما طلب منهما عبد المقصود، فالخطر ليس عليهما فقط إن تمّ القبض عليهما، بل عليه هو الآخر، وسيكون عقاب الوالي وجمهور الناس غليظًا. أصر عبد المقصود أن تغطي كَدِيسة وجهها طالما هو في البيت. رغم تعنت عبد المقصود المفهوم، فهو قد وافق على بقائهما في بيته لمصلحته، يحتاج لمن تعتني بابنته الطفلة عوّاضة خلال تغيُّبه طوال النهار في عمله. مطمئن أن الفرنسيسي قد أسلم بالفعل كما أكد له مرسال بركة وعصمت كوسا. وشاهده بالفعل يصلي ويؤم زوجته كَدِيسة. الفرنسيسي ترك ذقنه وشاربه ينميان وصبغهما بالأسود. بعد أسبوعين سمح لهما عبد المقصود بالخروج من البيت ليلًا، لكن لا يبتعدان عن جدرانه في هذا الليل المظلم، فربما رصدهما أي بصّاص خبّاص.

بهروب الفرنسيسي وكَدِيسة، لم تهدأ الزوبعة في الإسكندرية، الزوبعة توالدت أعاصير. التجار والوالي والعسس التابعون لهم، لم يكونوا يعرفون مدى توغل أتباع الشيخ الذئبي في أنحاء الإسكندرية الفقيرة، ولا مدى تأثيرهم الخطير في نفوس وعقول الشباب بين عمري الخامسة عشر والثمانية عشر عامًا! الجموع الهائجة باسم الدفاع عن الدين جموع في أغلبها شبابية متفجرة غضبًا كالبراكين،

وهي لا تعي حقائق الدين ولا حقائق الأمور، لقد أشعلهم الشيخ الذئبي وأتباعه بتفسيراتهم الإجرامية.

الشائعات الكاذبة انطلقت تقول إن الفرنسيسي لم يكن صادقًا في إسلامه، وأن الحلاق المرتشي لم يختن الفرنسيسي الختان الشرعي، بل أجرى خدشًا بسيطًا. والفرنسيسي ما زال على مسيحيته ويعمل على تنصير الناس، وكاد يسحب سعدية وحليمو وأخاها هِنّس إلى النصرانية بعدما نَصَّر كَدِيسة!

مع توالي الضغط الشعبي، اضطر الوالي أن يكون في صف الشيخ الذئبي، وأيضًا سلطان مصر نفسه اضطر لنفاق تلك الجموع الهائجة ليبين للرعية كافة أن سلطان مصر والولاة التابعين له، عندهم غيرة على الدين بما لا يقل عن الشيوخ! سلطان مصر أرسل لكل ولاة مدن وأقاليم مصر مشددًا للقبض على الفرنسيسي وكَدِيسة لوجود احتمال أنهما لم يسافرا لفرنسا. وبعد القبض عليهما يُقتل الفرنسيسي وربما استتابة كَدِيسة، لكن في الغالب ستقتل على أنها ارتدت عن دين الإسلام بزواجها من الفرنسيسي وهي تعلم أنه على ملّته.

لم يقع غضب على عصمت كوسا رغم محاولة الشيخ الذئبي أن يطعنه في دينه، فعصمت كوسا مع مجموعة التجار يدفعون الكثير لوالي الإسكندرية ومنه لسلطان مصر. وسبب محاولات الشيخ

الذئبي ومعه الشيخ الأربعيني توريط عصمت كوسا وقتله، ليس فقط أنهما يطمعان في الاستيلاء على تجارته وأمواله، بل لأنه فعل فعلة المفروض أن تكون في السر، وقد تمت في السر فعلًا، لكن الشيخين الذئبي والأربعيني فكرا وقالا إن عصمت كوسا هو القاتل! فبعد هروب الفرنسيسي وكَدِيسة بليلتين، اختفى برهومة واحتار الجميع أين ذهب؟ قال عصمت كوسا إن برهومة قد هرب بعد أن كَشَفَ اختلاساته. الحقيقة أن عصمت كوسا أرسل له أحد خلصائه ليقابله ليلا ممنيًا له بالعودة لعمله، برهومة انتابه الشك والخوف، لكن شيخه الأربعيني قال له اذهب إليه واعرف ما يريده منك. برهومة انتابه الرعب. مضطر أن يستمر في السير. ولما انضم للثلاثة. لاحظ برهومة أن الثلاثة يمسكون بأدوات حفر وشاهد حفرة عميقة بجانبهم. وقبل أن يتكلم برهومة أظهر عصمت كوسا ما في باطنه. اتهم برهومة بأنه الذي حَرَّض الملتحي المتعافي على قتل حميدو، وبما أن الملتحي المتعافي قد قُتِل، فأنت يا برهومة ما زلت حيًا، ويجب قتلك أيضا. برهومة لا يستوعب كيف يعرف عصمت كوسا كل هذا؟ قال له عصمت كوسا في سخرية:

– ما هو اللي يتعامل مع التعابين لازم يشتغل حاوي. وإحنا التجار الكبار، لازم نكون حواة عشان نتعامل مع أمثالك وأمثال الذئبي. مش أنتم في السر بتقولوا إنكم جايين لينا بالذبح، سواء كنا مسيحيين أم يهودًا أو حتى مسلمين؟

برهومة يحاول الإنكار وهو يتراجع للخلف استعدادًا للفرار، لكن الثلاثة حاصروه. لم يبق له سوى البكاء ليستدر الشفقة والتوسل ليجلب الرحمة. قال عصمت كوسا له اعترف وربما خففت عنك، لكن إنكارك معناه دفنك حيًا هنا. اعترف برهومة بعد فاصل من البكاء الحار، عسى أن ينال الرحمة. كوسا ابتسم له ابتسامة سخرية. اقترب من برهومة ووضع يده على كتفه المرتعش، وقال:

– عارفين عنكم حاجات كتير. لكن اللي أنت مش عارفه..

اقترب عصمت كوسا بوجهه من أذن برهومة وقال:

– حميدو اللي تسبَّبت في قتله، حقيقي هوّه ابني من صلبي.

نظر برهومة لوجه عصمت كوسا في حيرة ثم غلبه الفزع. في هذا الظلام وجد عينيّ عصمت كوسا وكأنهما مصباحان تبثان نارًا ملتهبة. وقبل أن يترك لجلجته ليعود للبكاء والاعتذار والندم، دفعه عصمت كوسا ناحية الحفرة. وقبل أن يسترد برهومة توازنه، أشار عصمت كوسا للثلاثة. فضربه واحد منهم بالفأس في ساقه فكسرها ودفعاه الاثنان الآخران فسقط في الحفرة على جانبه يصرخ ألمًا ورعبًا ولا يستطيع الوقوف. يرفع يديه محاولا الإمساك بجوانب الحفرة العميقة ليتسلق الحفرة بلا جدوى. الثلاثة بما معهم من أدوات الحفر أهالوا عليه التراب فدفنوه حيًا.

البحث محموم. البصّاصون في كل مكان يبحثون عن الهاربين الفرنسيسي الكافر وكَدِيسة المرتدة. وكل منهم يتلمَّظ على المكافأة المعلنة عن الذي يتمكن من اكتشاف مخبئهما، فالشيخ الذئبي متأكد أن الهاربين لم يتركا مصر بعد. فآثار الهاربين انقطعت بعد مزارع يَنِّي البيانكي.

بيت عبد المقصود الذي كان مقطوعًا عن غيره، صار له جيرة ليست بعيدة البعد الكافي المريح له، جيرة مسيحية. لم يحاول الجار عبد الملاك مصادقة عبد المقصود. فقد حاولت زوجته عزيزة أن تراعي عوَّاضة ابنة عبد المقصود، وأن تجعل ابنيها مينا ونرجس يلعبان معها. عبد المقصود لم يتقبَّل فابتعدت عزيزة وبالتالي عبد الملاك، حتى جاء كلود الفرنسيسي وكَدِيسة. عائلة عبد الملاك رأت وعرفت أن ضيوفًا ما عند عبد المقصود، وأن عبد المقصود وضيوفه يحاولون إخفاء أمرهم. ثلاثة شهور وأيام وصارت كَدِيسة على وشك الوضع. هنا اضطر عبد المقصود أن يطلب مساعدة عزيزة. فأتت عزيزة مع عبد الملاك زوجها. عزيزة قامت بتوليد كَدِيسة فأنجبت توأمًا ذكرًا وأنثى. واضطر عبد المقصود أيضًا أن يستأمنهما على السر الخطير الذي في بيته، سر الفرنسيسي وكَدِيسة. فعاهداه على الكتمان، واندمجت العائلتان معًا وصار عبد الملاك وعزيزة صديقين مقرَّبين من عبد المقصود والفرنسيسي وكَدِيسة. وصار كلب عبد المقصود صديقًا لكلب عبد الملاك.

الفرنسيسي يحمل التوأم. تمعن في الذكر. على خده الأيمن الشامة موجودة رغم عدم وضوحها، فالطفل في سمرة القمح الناضج وليس أشقر مثل والده. اطمأن كلود الفرنسيسي أن طفله سيعمل على تحقيق رسالة جده الكبير كلود بن فيكتور.

كَدِيسة والفرنسيسي أطلقا على الولد اسم حميدو، واتفقا أن كل ولد ذكر في ذريتهما يجب أن ينال اسم حميدو. الفتاة أخذت اسم صفية، وهو اسم قريب من اسم صوفي أم الفرنسيسي. الفرنسيسي يفكر في كل الاحتمالات، وكل الاحتمالات ليس فيها احتمال واحد مريح.

التوأم صفية وحميدو قاربا السنة، صفية أخذت كل شيء من أبيها. شقراء زرقاء العينين. وحميدو وجه أمه وجسد أبيه. قمحي اللون أسود العينين قوي الجسد. رسائل تصلهم من عصمت كوسا يطمئنهما. الفرنسيسي وكَدِيسة لا يستمتعان كما ينبغي بتوأمهما، ولا يستطيعان الاستمتاع حتى بنفسيهما ليلًا وعبد المقصود موجود، فكان عناقهما الجسدي نهارًا. عبد المقصود قلقه يزداد أن يتم القبض على الفرنسيسي وكَدِيسة في بيته. وكَدِيسة والفرنسيسي قلقهما على أنفسهما وعلى توأمهما أشد، إن تم القبض عليهما. وزاد من رعبهما آخر خطاب من عصمت يقول إن الشائعات وصلت لوالي الإسكندرية بأن الفرنسيسي وكَدِيسة أبحرت بهما مركب من

غرب الإسكندرية إلى دمياط! البحث عنهما سيتركز في دمياط وما حولها. هنا كان على الفرنسيسي أن يهرب، فهو بشكله ولونه وزرقة عينيه، يتم التعرف إليه ببساطة، ولن تنفعه صبغة ذقنه وشاربه بالأسود. وبالاتفاق وسط بكاء غزير، وافقت كَدِيسة أن تترك صفية للفرنسيسي، فهي شقراء مثله، والبصّاصون يعلمون أن كَدِيسة حامل في توأم. كلود الفرنسيسي وكَدِيسة تعاهدا أن يعملا على أن يتلاقى التوأم صفية وحميدو في أقرب وقت ممكن، وحميدو لأنه الولد، فعليه عندما يشتد عوده أن يبدأ ويأتي لتوأمه صفية في مرسيليا. لكن لا يعلم الغيب إلا الله. ربما الفرنسيسي وكَدِيسة لن يتقابلا أبدًا. وكَدِيسة تحتضنه وتحتضن وليدتها صفية أحضان الوداع، همس في أذنها:

– تزوَّجي عبد المقصود.

تركت حضنه ولطمت خديها وأغشي عليها. لما أفاقت وجدت الإصرار في وجه ولسان حبيبها ووالد توأمها الفرنسيسي، أن تتزوج عبد المقصود. من أجل أن يطمئن عليها ومن أجل ابنها حميدو ومن أجل نفسها، فلا مناص مما ليس منه مناص. طلَّقها الفرنسيسي وهو يبكي وهي تلطم، الفرنسيسي على يقين بأنه حتى لو عاد، لن يعود إلا بعد سنوات طوال. فكيف ستعيش كَدِيسة وبأي مكان، فمن المستحيل أن تبقى في بيت رجل غريب وهي مطلقة.

وإن تمّ القبض عليها سيقتلوها بلا رحمة، وسيكون الأمر طامة على طفلهما حميدو وعلى الفرنسيسي وصفية. ترك كلود الفرنسيسي ما تبقى معه من دنانير ذهبية وفضية لكَدِيسة، احتفظ بأقل القليل.

لم يُسمح لكَدِيسة بأن تودّع حبيبها في ميناء دمياط، فهذا خطر عليهما. وهي تودعه في بيت عبد المقصود أغمى على كَدِيسة مرة ثانية وثالثة وخامسة. جاء عبد الملاك وعزيزة لمواساة كَدِيسة. الفرنسيسي في ملابس بسيطة وذقنه السوداء مرسَله، وكذا شاربه وكلاهما بلّلته دموعه. فساعده عبد الملاك في إعادة صبغهما. ووقت الفراق والفرنسيسي يبتعد حاملًا صفية سقطت كَدِيسة مغشيًا عليها في أحضان عزيزة.

رحل الفرنسيسي وهو مصرٌ على منع دموعه حتى لا تبلل صبغة شاربه وذقنه. يسير حاملا صفية وسط عبد المقصود وعبد الملاك. ودَّعهما في هدوء وصعد في مركب بها سيدة ترضع ابنها، لتقوم بإرضاع صفية. وأقلعت المركب، ولم يتلاق مع حبيبته كَدِيسة من بعد ذلك حتى الممات.

الخطورة قلت كثيرًا بعد رحيل الفرنسيسي. بدأت كَدِيسة في النشاط وصبَّت كل حبها وحنانها على ابنها حميدو ولم تهمل الطفلة عوَّاضة ابنة عبد المقصود، هي في رعب من ليلة ستتزوج فيها عبد المقصود. انقضت عدّة المطلقة فتزوجت عبد المقصود في

حضور عبد الملاك وعزيزة وابن عمه وزوجة ابن عمه وعائلتين من معارف ابن عمه. ادّعى عبد المقصود أن مَن تزوجها أرملة من قرية قرب دمياط واسمها سعدية، واسم سعدية هو اسم أم كَدِيسة. هذا الزواج العلني أعطى أمانًا لكَدِيسة. خاصة أن كَدِيسة منقّبة دومًا.

لم تمر ليلة إلا وكَدِيسة تتذكر الفرنسيسي وابنتها الغائبة صفية. استراحت مع الوقت مع زوجها عبد المقصود. تتركه يضاجعها وتحبس دموعها فهذا حقه وتتجاوب معه وهي تتخيل أن الفرنسيسي هو الذي معها. لم تجد من عبد المقصود ما يضايقها، ولم يحاول أن يسألها عن مدى وجود زوجها السابق في قلبها وبالها. ضيقه الداخلي وإحساسه بوجود كلود الفرنسيسي في قلب زوجته، يعبر به رقصًا. في الليل الخلي من أي راءٍ له، يتناول عصاته ويرقص بها رقصة التحطيب. الرقصة وقتها ليست رقصة قتال، ليست رقصة ضربات، بل حركات ناعمة حزينة توضّح دواخله المحبة لزوجته والقلقة من قلبها المحجوز لحبيبها زوجها الأول. من يشاهده في حالته هذه يرى شبحها هائمًا.

الصداقة بين عوّاضة ومينا ونرجس تنامت كثيرًا، ثم انضم لهم حميدو بعد أن كبر وصار في الثالثة من العمر. صاروا أربعة أصدقاء حميمين. حميدو برغبته وتشجيع أمه وموافقة أبيه، ذهب

إلى كنيسة دمياط مرارًا وأحب المكان وتعود عليه وتعود المسيحيون على وجوده. ومع توالي السنين ولأن كَدِيسة تنتظر يومًا يرحل فيه حميدو إلى مرسيليا مدينة أبيه وتوأمه صفية، شجعته على أن يكون جادًا في حياته قوي العقل والجسد. ذهب للتجارة مع عبد المقصود الذي يناديه بأبي على يقين بأنه أبوه، وأن عوَّاضة أخته الشقيقة، ولا يعرف السر سوى عبد المقصود وكَدِيسة وعواضة، وعائلة عبد الملاك التي نبهت ابنيها ألا يفشيا السر لحميدو.

ومضت الأيام فاترة حتى أنجبت كَدِيسة بنتا أطلقت عليها أيضًا اسم صفية، لتذكرها بابنتها صفية التي لا تنساها أبدًا. ولما شبّ حميدو أكثر، صارت تعلمه بعض الكلمات الفرنسية التي تعلمتها من الفرنسيسي، سألها حميدو كيف تعرف هذه الكلمات، فقالت إنها كانت تبيع السمك في مرسي مطروح مع أبيها الذي كان يتعامل مع فرنسيين فتعلمت منهم. حميدو كثيرًا ما يذهب لشاطئ البحر وحده. ويجلس بالأوقات الطويلة ينظر للبحر في حيرة، وكأن مخلوقات ما في البحر لا يراها ولا يفهمها لكنها تراه وتحس به ويحس بها. وينظر لبعيد وكأنه سيشاهد الجانب الآخر من البحر. نداء ما يناديه. وكثيرًا في أحلامه يحلم بطفلة تحبه وتلاعبه. طفلة الأحلام تعاوده كل فترة، والنداء البحري من قلب البحر ومن خلف البحر يشتد ويزداد إلحاحًا. تيقن أن مخلوقات في البحر تلاحظه حبًا. تأكد أنها حوريات طيبات وليست ندَّاهة البحر التي تشبه نداهة النهر، والتي

تنادي الشباب الصغير حتى ينزلوا في المياه العميقة ويغطسوا متتبّعين نداءها فيغرقوا، ولم يعودوا لعائلاتهم. تيقن أن نداءً آخر لا يقل حبا له يناديه من الجانب الآخر من البحر، ما هو؟ لا يدري، لكنه يدري بأنه موجود بالفعل.

حكى لأمه فبكت ولم تصارحه لماذا تبكي. طلبت من عبد المقصود أن يعلّمه اللعب والضرب بالعصا، فيجب أن يكون قويًا في الغربة التي سيغرق فيها قريبًا. فعلّمه عبد المقصود وتعجب أن حميدو يتعلم بسرعة، ولولا صغر عمره لنافسه. فاستمر في تعليمه كلما وجدا وقتًا، فكما يستمتع حميدو بلعب العصا، يستمتع عبد المقصود، فقد أوحشته تلك اللعبة التي تحولت لمبارزة موت وتسببت في نفيه من قريته. حميدو يشب طويلًا قويا، صار لاعبًا بالعصا الغليظة في امتياز، وحيرته وأحاسيسه صارتا مؤلمتين محيرتين له في امتياز أيضًا.

ليلة كَدِيسة مع عبد المقصود يتناجيان عن حميدو ومعضلة حميدو. اتفقا أن صفية أخت حميدو التوأم حيّة وتناديه من مدينتها. كَدِيسة تصدق ما يقوله ابنها عن حوريات البحر، فقد حكى لها الفرنسيسي عن حوريات البحر الطيبات، لكن عبد المقصود لا يصدق هذا الجانب من الحكاية، كل ما يعرفه هو ندّاهة النهر الشريرة.

بلغت عوّاضة سن الخامسة عشر من عمرها، ستتزوج. وأتت

اللحظات التي لا بد منها. تلك اللحظات المرعبة لكَدِيسة. عواضة أصرت أن تكون موجودة حين يعرف حميدو سر أبيه وأمه. فهي ستكون عونًا له في تقبل الصدمة. حميدو في الثانية عشر. يفارق الطفولة ويدخل مرحلة الصبي، وقارب أن يصل لطول أمه. كَدِيسة وهي تبكي حكت لابنها حكايتها وحكاية أبيه الفرنسيسي الذي اسمه الحقيقي كلود الثالث من آل فيكتور، وهم من كبار تجار مرسيليا ومن وجهاء فرنسا. وأن أباه مسيحي إفرنجي أسلم حقًا ولم يترك مسيحيته حقًا، جمع الدينين في عقله وقلبه، فكلاهما يتجه إلى الخالق الواحد. حميدو في شبه انهيار نفسي وعقلي. دموع حزن ونظرات غيظ لأمه التي كتمت عنه السر الرهيب. دخل عليهما عبد المقصود وعواضة وصفية. عواضة تقدمت من حميدو تنظر إليه نظرات أم ثانية. احتضنته. انفلت حميدو من حضن عواضة ونظر لأمه نظرات ضيق، وقبل أن ينطق بكلمة ضد أمه، ناداه عبد المقصود سريعًا:

– حميدو. ابني حميدو.

نظر حميدو إلى عبد المقصود في حيرةٍ. وجد نظرة عبد المقصود نظرة أب عطوف. ألقي حميدو بنفسه في أحضان عبد المقصود وهو يناديه.

– أنت أبي مهما كان.

احتضنته عواضة فقبّلها حميدو ثم أخذ أمه في أحضانه. قارب طولها وإن كانت أكتافه أعرض وأقوى. لن تتزلزل العائلة بكشف سر والدي حميدو، ولا بالخطورة التي ما زالت تحوم حول أمه ومن خبَّأ أمه في بيته.

ثم سنتين ضروريتين ليجيد فيها حميدو الفرنسية، ويسمع كل ما سمعته أمه من أبيه عن الشامة التي على خدّه الأيمن، وعن مرسيليا وعائلات مرسيليا الغنية القوية، وعن أهم معالمها، وعن حوريات البحر اللاتي طالبن أباه وجدّيه برسالة محبة وسلام بين أجناب البحر، وحكت عن عائلة الصياد بياف التي أنقذت والده من الغرق. يدخل حميدو عامه الخامس عشر وهو يتعمد حلاقة ذقنه وشاربه يوميًا حتى ينميا ويضيفا عليها رجولة أعمق ويعطياه مظهرًا أكبر سنًا، ثم ترك ذقنه وشاربه الخفيفين يكسوان وجهه. لا وقت يضيّعه. صعد على ظهر مركب تجارية فرنسية راحلة إلى سبتة. لن يأخذ أجرا كافيًا ففرحوا به وهو فرح أنه سيتكلم الفرنسية. وفي سبتة الكثير من أهلها يتكلمون الفرنسية. وبحظه وجد عملًا في مخزن مملوك لفرنسي، والفرنسيون يعشقون لغتهم ويفضلون التعامل مع من يتكلمها. بقي شهورًا حتى أجاد اللغة كثيرًا. وغادر سبتة على مركب إلى الإسكندرية. سمع عنها كثيرًا. صادق شابًا وطلب منه أن يعرّفه بالمدينة. وذهب معه إلى سوق السمك ومنه لحي الطابية. اليوم التالي ذهب حميدو بمفرده قبل الغروب والسوق

ينتهي والزحام يختفي. وشاهد خاله هِنّس في الدكان لكنه لم يقترب منه، فلا يريد أن يحادثه في العلن. ذهب خلفه إلى البيت والليل في بداياته. طرق الباب ففتح هِنّس. فدخل حميدو البيت ببساطة تاركًا هِنّس ينظر إليه متعجبًا غاضبًا من هذا الشاب الصغير ذي اللحية والشارب الخفيفين، والذي يدخل البيت هكذا وكأنه بيته! سعدية تجلس أمام طبلية العشاء وبجانبها ابنة هِنّس الصغيرة. سعدية تنظر لهذا الشاب الغريب القريب من قلبها من أول لحظة. قَبَّلها حميدو في أم رأسها وجلس بجانبها مبتسمًا وهِنّس وزوجته ينظران إلى حميدو في عجب، قال هِنّس في غضب:

– أنت مين يا أخْ أنتَ؟! تدخل البيت كده لا إِحِمْ ولا دُستور؟

قال حميدو في بساطة:

– أنا حميدو. ابن أختك كَدِيسة.

قامت سعدية وألقت بنفسها على حفيدها حميدو. أحضان من الجميع دون صوت عالٍ. ثم العشاء اللذيذ بالصحبة الغريبة. هنا يعلمون بكل ما يستجد عن كَدِيسة. سألوا عن صحتها وعن أخته صفية، وكيف يعامل عبد المقصود الصعيدي كَدِيسة. طمأنهم حميدو لكنه لم يقل شيئًا عن بكاء أمه كَدِيسة شوقًا لابنتها صفية، ولا عن رحلته المزمعة لمرسيليا. يريد أن يرى خالته عِزّو وأبناءها. رفضت سعدية خشية من البصاصين. حكت له عن موت بَرَكة وعن عنبة

التي كبرت وتزوجت وتعيش في بحبوحة باهتمام عصمت كوسا، لكنها لا تعلم أن عصمت كوسا جدها حقيقة، فالسر مات بموت بَرَكة وكتمان عصمت كوسا وعائلته وصمت سعدية وحليمو. وفي اليوم التالي كان حميدو على ظهر مركب إلى دمياط. وبعد شهر كان على ظهر مركب اسمها السلامة متجهة إلى مرسيليا، مكتوب على ظهرها (بسم اللـه الرحمن الرحيم. يا حافظ الأرواح في الألواح. ومُسَيِّرَ الفلك من غير جناح. احفظ مركب السلامة).

حميدو وصل لعمر السادسة عشر. يقل عامًا عن عمر والده كلود الثالث يوم رحل من مرسيليا للإسكندرية. انطلق إلى مرسيليا، والشهر كان ديسمبر الشتوي البارد الممطر. في هذه المركب عشرون من الشباب ليس غرضهم التجارة، بل العمل في مرسيليا وغيرها من مدن الشمال الإفرنجي. فالفقر والتبطل زادا في بلاد الجنوب المحكومة بالطغاة فأفسدوها وأفقروها وصبوا عليها البؤس صبًا. صارت مرسيليا وغيرها من الموانئ الإفرنجية بالنسبة لهؤلاء اليائسين هي الملاذ والخلاص. مرسيليا جنّة الإفلات من التبطل والشحاذة والإذلال. يأتون رغم علمهم أن مرسيليا لم تعد ترغب في المزيد من العرب وغير العرب، وأن العرب الذين يعملون في مرسيليا يشتكون كثيرًا من ظلم تعامل فرنسيي مرسيليا معهم. لذلك يقولون قولهم الحزين ليل نهار بأن مرسيليا لا تحبنا. رغم كل هذا يرحل البائسون اليائسون راكبين الهول هروبًا من الذل.

على ظهر المركب الصغيرة المتهالكة، وحمولة ثقيلة من البضائع. أيام مضت عليهم في البحر. القليل من الطعام الرديء. أنهكهم الجوع وأصابهم بالهَمَدان، وبرد البحر يشتد كلما توغلوا شمالًا والأمواج العالية تعاندهم وتضرب في المركب الضعيفة وترعب قلوب من عليها. زاد الغُلب عليهم بسقوط الأمطار المتواصلة. أحد ملاحي المركب كبير في السن أصابه المرض. رغم البرد والجوع وبلل الملابس والأمطار المنهمرة فالكل بأوانٍ معدنية مضطر للعمل على إزاحة مياه الأمطار من ظهر المركب المترنحة. مات العجوز المريض فألقوا بجثته في البحر.

في حلكة الظلام شاهدوا أضواء متفرقة باهتة لمرسيليا، فاستبشروا بعد طول تشاؤم، قالوا لقد أفلتنا من الموت جوعًا وبردًا وغرقًا، وحين أخذهم التفاؤل وغمرهم الفرح، فاجأتهم عاصفة رعدية سريعة والأمطار صارت سيولًا لا يصدق عنفها من لم يعش في الشمال من قبل. الأمواج العالية ورذاذها والأمطار الشديدة الغليظة أخفت أضواء مرسيليا. إن كانت عين في علو تحاول أن ترى ما يكون، فقلب الليل المرعب لا يُبين شيئًا إلا حين تنطلق ومضات البرق المرتعشة، فترى العين الراصدة حشرة مسكينة تافهة لا تزيد على نقطة صفار مُغَبِّشَة مرتعشة، هي المركب الغلبانة بأخشابها فاتحة اللون، تتلاعب بها جحافل الأمواج التي لا تُصَدُ ولا تُرَدُ. وإن كان السمع يسمع فلا صوت مسموع سوى صفير الإعصار وهدير

الرعد وتهديدات الأمواج. من على ظهر المركب لا يسمع أحد منهم استغاثات زملائه الطالبة من اللـه العون. العاصفة الممطرة ذات الأمواج الجبلية تتلاعب بالمركب الصغيرة دون رحمة، تُطَوِّح بها لأعلى ولأسفل وتدفعها لتميل على جانب وفي ثانية تضربها لتميل على الجانب الثاني. المركب لا تستقر هُنِيهة وتضعف مقاومتها كل برهة. ألواحها تتوجَّع أزيزًا وحشرجة من قوة الأمواج، وتتكسَّر واحدة بعد الأخرى في سكرات الموت.

الراكبون على المركب في الظلام الحالك لا يرون من الموج سوى حواف جوانبها التي تلمع برهة وكأنها سيوف شيطانية تصر على قتلهم. يتزلزلون بتلك الأمواج الهائلة وينكبون على وجوههم ويقعون على ظهورهم وجوانبهم ويرتطمون ببعضهم بعضًا، وبأجناب المركب التي اتضح مصيرها. لم يهتم أحد بالذي ضربته موجة وأطاحت به في اليمِّ، صرخ مستنجدًا فلم يسمعه أحد، ومن شاهده يسقط في المياه لا يمكنه تقديم أي مساعدة. فأخذه الموج القاسي اللا مبالي بعيدًا ليقتله غريقًا. ثم كانت خاتمتهم. جاءتهم موجة جدارية عظيمة رفعت المركب وكأنها شظية ضئيلة لا تُقاس ولا تَزن وزنًا وقلبتها رأسا على عقب، وهبطت بها تقذفها لأعماق المياه الباردة المالحة الأشد ظلامًا. أغلب من على ظهر المركب صاروا معها من المغرقين. خمسة فقط، ثلاثة من الشباب المهاجر واثنان من الملاحين استطاعوا الوثوب قبل أن تغوص المركب.

لا يسبحون، كل ما يفعلونه هو البقاء طافين والأمواج تتلاعب بهم والأمطار لا تتوقف والظلام مطبق. أنفاسهم تتحشرج فاستسلم ثلاثة وهبطوا في اليم الأليم، ولم يبق سوى اثنان قويان لمحا ضوءًا من أضواء مرسيليا فسبحا ناحية الشاطئ، يسبحان ويريان رأسي بعضهما بصعوبة حتى حال بينهما الموج فكان أحدهما من المغرقين. حميدو أحد الاثنين، وهو الذي بقي متشبثًا بالحياة. منهك تمامًا وقد بلغ منه اليأس حدًا كاد أن يترك نفسه ليغوص في المياه مثل الآخر ويستريح من إرهاقه وعذابه. أحس بضربة قاسية على قفاه ولوح الخشب الذي ضربه التف ليكون أمامه! أمسك حميدو باللوح بيديه الاثنتين، وصاح والمياه تضرب في فمه.. الحمد لله. الحمد لله. يا رب يا معين. ثم عدل نفسه وبقيَ ممسكا باللوح بيسراه ويمناه تضرب في المياه متجهًا ناحية لمحة الأضواء التي لمعت للحظة خاطفة. فمن دون هذه الأضواء لن يعرف الاتجاه. ساعة زمن وأنياب البرد القاسيَة تمسك بجسد حميدو، ويحس أنه مهما يضرب بيمناه في المياه ليتحرك فتقدمه بطيء وشاطئ النجاة بعيد بعيد بعيد. قواه تتسرب منه وجسده يتصفَّى من العافية وأنياب البرد تغوص أكثر في لحمه وتغزو عظامه. اليأس من النجاة يغمره أكثر مما تغمره الأمواج. يسراه ترتخي ويكاد يترك اللوح المنقذ لينتهي. وهنا أحس بالحوريات اللاتي كن يوحين له في شواطئ دمياط قد حضرن له والتفن حوله. يخاطبنه. إنهن حوريات البحر التي

حكت أمه كَدِيسة عنهن وقالت إنهن ناشدن أباه كلود الفرنسيسي، كما ناشدن من قبله جدَّيه كلود السمين وكلود الكبير ابن فيكتور. حوريات البحر بثثن فيه الأمل والحماسة. يضرب بيمناه وبساقيه في البحر ويتقدم للشاطئ ويسراه متشبثة بلوح النجاة الخشبي ولا تتركه يفلت منها مهما ضربته وتلاعبت به الأمواج الطاغية. مسافة قطعها ولا يعلم كيف شعر يقينًا بأن أباه كلود الفرنسيسي كان في نفس هذا المكان من البحر، وأنه قاوم واستبسل حتى نجيَ. فعلى عنقه رسالة استكمال رسالة أبيه وجدَّيه. حميدو ينظر للسماء بوجهه الذي تضربه المياه دون توقف. يصرخ متضرعًا:

– يا من يجيب المضطر إذا دعاه.

ضربات يمناه وساقيه في المياه تشتد وثقته في النجاة صارت راسخة، سيصل إن شاء اللـه لهذا الشاطئ البعيد المظلم تمامًا إلا من أنوار قليلة متناثرة على مرتفعات ما بدأت تتضح له. منها نور الكنيسة بالقطع. ووصل إلى الشاطئ الصخري فترك لوح الخشب وصعد والأمطار لا تهدأ. أخذ خطوات وهو يرتعش بردًا ثم ارتمى أرضًا غير قادر على الحركة. بضع ساعة ونداءات تشجيعية يحس بها تأتيه مع الموج الذي يضرب صخور الشاطئ ويلقي عليه رذاذه. نداءات تقول له إن بقيت هكذا في هذا البرد وتحت الأمطار المنهمرة فستموت لا محالة. قام متحاملًا على نفسه لا يستطيع

التحكم في رعشته التي تتزايد. يتجه لناحية لا يعرف لماذا هذه الناحية بالذات؟ وجد كوخًا ودخانًا يتصاعد من مدخنته. اتجه إليه وضرب على بابه بقبضتيه ثم سقط مغشيًا عليه.

أفاق حميدو والنهار ينير ما حوله. أحس بالدفء اللذيذ وهو وسط حَشِيّة مريحة وأغطية ناعمة. فتح عينيه ونظر حوله.. طفل يقف بجوار سريره ينظر إليه مبهورًا وهو يصيح بالفرنسية:

– أمي. لقد استيقظ الغريب.

أتت ناحية حميدو امرأة شابة. نظرت إليه فرحة.

– شكرا للرب. كنّا نخشى أن تصاب بالحمى. بياف. بياف.

رجل في الثلاثين من عمره أتى ليقف بجوار المرأة والطفل. يسألهم حميدو:

– أين أنا؟

– في الكوخ الذي ضربت على بابه ليلة أمس.

– العاصفة أغرقت المركب. غرق كل من عليها. هل نجوت أنا؟

– أشكر الرب.

– الحمد لله. العاصفة؟

– مضت العاصفة. انتهت.

حميدو يحتار قليلًا ثم يسأل نفسه:

– اسمه بياف؟ هذا الرجل القوي الجسد طيب ملامح الوجه.

جلس بياف بجانب حميدو وقال للمرأة:

– قبل أن نستفسر عن حكايته، عليكِ أن تناوليه بعض الحساء.

رفضا حديثه قبل أن يتناول الحساء. ولما عرف أنه عارٍ أصابه الخجل. الرجل يضحك على خجل حميدو وهو يضع وسادة خلف ظهره ويساعده على الاعتدال قليلًا. الطفل أشار لحميدو ناحية المدفأة حيث ملابسه مفرودة لتجف. المرأة أتت له بالحساء الساخن وأخذت تناوله بالملعقة. جرت الدماء مع ملاعق الحساء الساخن وقطع من السمك أجبرته المرأة على مضغها وابتلاعها. وهنا سأله الرجل:

– من أين أنت؟

– جئت من سبتة. وقبل سبتة دمياط، وقبل دمياط الإسكندرية.

– ولماذا أتيت؟

– جئت لمقابلة أبي وأختي التوأم.

– ماذا؟ أبوك وأختك التوأم! هل هما من عرب مرسيليا أم من يهودها؟

– لا. هما فرنسيان مسيحيان.

– أنت شكلك عربي وفي الغالب أنت مسلم.

– صحيح. أمي سكندرية مسلمة وأبي فرنسي مسيحي مسلم.

– ما اسمه؟

– عندنا اسمه الفرنسيسي، هنا اسمه كلود.

– كلود؟ كلود ماذا؟

– كلود بن سايمن وصوفي. من عائلة فيكتور.

– يااااه. وأختك التوأم صوفي؟

– نعم أختي التوأم صفية. أنتم عائلة بياف التي سبق وأنقذت أبي من الغرق. مؤكد تعرفونني؟

– طبعًا. أنا بياف الذي كان صبيًا وقتها. أما الذي أنقذ أباك فهو أبي. والتي ناولته الحساء هي أمي. أبوك كان نائما على هذا الفراش من قبل و..

– أنت بياف الصغير؟

– نعم. لكن لم أعد بياف الصغير. فقد مات أبي بياف وأمي ماتت. كيف عرفت اسمي؟

– أبي حكى لأمي وأمي حكت لي.

أشارت المرأة على الخد الأيمن لحميدو.

– نفس الشامة التي على خدّ والده.

قال بياف:

– أتعرف أن توأمك صوفي كثيرًا ما أتت هنا، تقف على الشاطئ تنظر ناحية الجنوب. تأتي أحيانا وهي تحمل قطة معها وتبقى عندنا ساعات. تقول صوفي إنها تتنسَّم عبق أمها التي اسمها كَدِيسة، وتوأمها هميدو الذي هو أنت! وأنها تحلم بك كثيرًا. اسمع. ابق هنا مستريحًا. سأذهب لأبيك كلود وأختك صوفي أبلغهما.

حميدو ارتدى ملابسه. يروح ويجيء في المكان وعيناه على باب البيت. ساعة زمن تتثاقل ثوانيها وتمر بطيئة غبية. كل ثانية وكأنها يوم طويل غاية في الملل. أصوات حوافر حصانين. فتح الطفل الباب فدخل كلود الفرنسيسي وخلفه شابة جميلة ثم بياف. كلود الفرنسيسي وصوفي وقفا على بعد خطوات من حميدو في فرحة ورهبة وعدم تصديق يتبادلان نظرات الحب والدهشة مع حميدو. كلود الفرنسيسي لم يعد ذاك الشاب الصغير، أناقته تناسب عمره. الآن قارب

الأربعين وامتلأ جسـده قليلًا وسوالفه من تحت غطاء رأسه خليط من الأسود والأبيض. الفتاة صفية غاية في الشباب والجمال وأناقة الملبس، أناقة تناسب شبابها وغنى عائلتها. ينظران لحميدو وينظر إليهما. صاح كلود الفرنسيسي بالعربية:

– حميدو! حميدو ابني وابن كَدِيسة!

– أبي الفرنسيسي!

اندفعا لبعضهما في حضن وبكاء ساخن. لا يريد أحدهما أن يفارق الآخر حتى أزاحتهما صفية وأخذت حميدو في حضنها فاحتضنها بقوة وهو مستمر في البكاء مع بكائها. صوفي تناديه هميدو وهو يناديها بـ صفية. صفية أختي.

أجلسا حميدو على السرير وأباه على يمينه وأخته على يساره. حميدو حائر ينظر لهذا لحظات ثم لهذه لحظات. يحتضن هذا ثم هذه. صفية تسأل عن أمها وحميدو يطمئنها. كلود يتمعَّن في خد ابنه حيث الوحمة. ابتسم وقال لحميدو:

– هل قالت لك أمك عن الوحمة ومغزاها؟

– نعم. إنها علامة المسئولية على حمل رسالة جدنا الكبير كلود بن فيكتور.

– هي كذلك. يجب على أحد منّا استكمالها. وأنت يا حميدو

تحمل دماء شمال وجنوب البحر الوسيط. أنت الأقدر على استكمال هدفنا في هذا البحر، هل تعاهدني على استكمال رسالة جدنا كلود بن فيكتور في بث المحبة والسلام بين شاطئي البحر الوسيط. نبني جسرًا للتواصل والتفاهم بين الديانات المسيحية والإسلامية واليهودية.

– أعاهدك وسأعمل بكل ما أستطيع على ذلك إن شاء اللـه.

وقف كلود وأمسك بكتفي بياف:

– عائلتك صارت دائنة لنا بإنقاذ حياتين من آل فيكتور.

كلود أخذ زوجة بياف وابنه في حضنه وهو يشكرهما. صفية احتضنت بياف وقبّلته ثم فعلت نفس الشيء مع زوجته وابنه. وكان عليهما العودة بحميدو. مثلما جاء كلود الفرنسيسي على صهوة حصانه وقد أردف بياف خلفه، في العودة أردف ابنه حميدو خلفه. وحصان صفية خلف حصانه. دخلا قصر آل فيكتور. انبهر حميدو بفخامة وشموخ القصر. حديقة القصر الخضراء ثم عدد من الكلاب الضخمة تستقبلهم. وحين دخلوا الردهة وصفية تمسك بذراع حميدو. لاحظت أن حميدو حافي القدمين! حزنت وضحك هو، فقد حذاءه في البحر ونسيت عائلة بياف أن تعطيه آخر.

صالة واسعة في عصر نفس اليوم. اجتمع فيها أفراد من آل فيكتور. أولًا تم تعريف حميدو بزوجة أبيه جوستين وابنتها الطفلة

أليسا. احتضنا حميدو فرحة بوصوله، وفرح حميدو بأخته الصغيرة أليسا التي تعلقت به. وبعدها كلود عَرَّفَ ابنه بصديقه الحميم ورفيق صباه كونراد شلنت. كونراد يسير مستعينًا بعكاز، هذا من جراء إصابته حين كان يرافق كلود خارجين من خمَّارة. حميدو سمع من أمه عن هذه الحادثة وعن كونراد.

ثم مصافحات وأحضان وقبلات من الأقارب لمن جاءهم وصار اسمه في مرسيليا هميدو. يتعجبون.. إن هميدو بن كلود يشبه تمامًا أبناء العرب في حي العرب! الأكثر فرحون بهميدو ولم يهمهم كونه محمديًا سكندريًا. والبعض تعجَّب ولم يتأثر لا سلبًا ولا إيجابًا، لكن القليل من العائلة المتعجرفين أصابهم الضيق من هميدو، يتهامسون: كيف تختلط دماء آل فيكتور بدماء هؤلاء العرب المحمديين؟ ما يزيد حنقهم واشمئزازهم، أن عائلة فيكتور سمعتها سيئة عند جانب من أهالي مرسيليا الذين لا يطيقون لا العرب ولا اليهود. هذا الجانب المرسيلي الذي كان صغيرًا منذ سنوات طويلة وصار يتنامى ويستفحل مع الأيام. الجانب الكاره منذ البداية لسيرة كلود الأول الذي كان من أشهر وأشجع فرسان حملة الملك لويس التاسع، ثم عاد بعد أسْره ليدافع عن المحمديين واليهود! ثم ثالثة أثافيه قوله: إن رسالته هي بث المحبة والسلام بين ضفة البحر الشمالية المسيحية وضفة هؤلاء المحمديين غير المسيحيين، يظن نفسه رسولًا من عند اللـه! ثم أتى بعده كلود الثاني السمين ثم كلود الثالث بنفس الهرطقة، ويجرحنا

بزواجه من المحمديين وأتى بصوفي الشقراء، فقبلناها لتمسكها بالمسيحية وتناسينا أن أمها كافرة، فيأتي لنا بابنه المسلم العربي الخِلقة وعلى خدّه نفس الوحمة الكلودية! كيف ترتكب عائلة فيكتور العظيمة تلك الخطايا ضد المسيحية وضد مدينتنا مرسيليا ووطننا الكبير فرنسا؟

فيلدرز كراهيته لكلود لا تُحد. من أيام صباهما يكرهه. عودة كلود أوجعت قلبه وعصرته فنزّ قلبه سم الحقد فركبته الكوابيس فصار يصرخ ويسبّ ويقوم فزعًا. فيلدرز من سنوات يبث الأقاويل على كلود وابنته صوفي، ابنة المحمدية الكافرة. ولما تزوج كلود من جوستين، خشي أن ينجب منها ولدًا يرثه، فلما أنجبت جوستين فتاة، ارتاح قلب فيلدرز وقال لنفسه: بضع سنوات يموت كلود فأرث أنا القصر وغيره، وإن مت أنا قبل كلود، فسوف يرث ابني بينو الإرث المطلوب. فيلدرز لا يأبه أن ابنه بينو ليس سَوِيَ الجسد. بينو سمين جدًا في نصفه العلوي، نحيف قصير في السفلي. ضعيف الشخصية أقرب للغباء. يتلعثم في حديثه وتزوغ عيناه، رغم السيف الذي يتمنطق به دومًا، فهو فاشل في تدريب الفروسية. فيلدرز يريد لابنه هذا أن يكون على رأس آل فيكتور! الغريب أن بينو لا يريد أن يكون كبير العائلة، يعلم أنه أقل من هذا المكانة بكثير. ترجّى والده كثيرًا أن يتركه يعيش في هدوء وسيكفيه ما يرثه منه. لكن فيلدرز يضغط على ابنه بينو كثيرًا ووصل إلى حد صفعه أكثر من

مرة، ليدفعه دفعًا فيتحمس ليتبوأ المركز المرموق. نعم فهكذا كان يحلم فيلدرز الحاقد، حتى تحطمت أطماعه وطموحاته بوصول حميدو بن كلود. نشط فيلدرز مع الكارهين لعائلة كلود وتوغل في المؤامرات، ولم يهمه أن كلود يعلم كراهيته له، وسمع بما يقوله فيلدرز عنه وعن صوفي. لا يهم فيلدرز غضب كلود.

بعد انصراف الضيوف، بقية اليوم وطوال الليل وحتى الفجر، صوفي تمسح على ظهر قطة ساكنة على حجرها، وتلح في السؤال عن أحوال أمها كَدِيسة. ومهما طمأنها حميدو أن أمها بخير، وأن زوجها عبد المقصود يعاملها بحنان، وأنجب منها صفية الثانية، ومهما حكى لها عن شوق أمها لها، صوفي لا تشبع وتذرف الدموع شوقًا لأمها وأختها الصغيرة صوفي الثالثة. قال كلود لحميدو:

– هل تعلم اسم القطة التي على حجر أختك؟

لم يأخذ حميدو ثانية واحدة في التفكير. أجاب:

– كَدِيسة.

– هاها. صوفي تعرف أن كَدِيسة معناها قطة. وتعرف حكاية المرأة النوبية التي أطلقت على أمكما هذا الاسم.

تقدم حميدو من صوفي وأخذ منها القطة وأخذ يداعبها. واستمر في الحكي عن الذي حدث بعد رحيل كلود الفرنسيسي من دمياط.

حكى عن تَغَوُّل أصحاب الرايات السوداء وبدئهم في استخدام السكاكين والعصي الغليظة لتهديد من يعارضونهم. حكى كيف قتلوا رجلًا ناقشهم وعارضهم بما سمعه من الشيخ موفق. وقول الشيخ الذئبي إن كُتّاب المدرسة الذي افتتحه مُوفق ويدرس فيه الحساب وتاريخ البلدان، هو عمل غير صالح ويحارب الإسلام، وقد حاول شاب صغير لا يقرأ ولا يكتب أن يغتال الشيخ موفق لكنه فشل، والخوف أن ينجح غيره مستقبلًا. فالتفسيرات المتشددة الشاذة للإسلام والتي تتنافى بالفعل مع الإسلام، هي التي تسود وتحاصر أفكار المتنورين أمثال الشيخ مُوفق، وأن أصحاب الرايات السوداء لم يكفوا عن البحث عن كلود الفرنسيسي وكَدِيسة حتى الآن. وكيف أن الأحوال في الإسكندرية وعموم مصر تسير من سيئ لأسوأ، وأغلب غير المصريين خاصة اليهود قد تركوا البلاد. والخوف يتضاعف والحب والانسجام بين الناس يتضاءلان، فقلّ الرزق وازداد التبطُّل وتفشَّى القبح وصار الكل يتشاجر مع الكل.

كلود بيَّن لابنه أن الكثير من التاركين للإسكندرية أتوا إلى فرنسا عمومًا، والكثير منهم أتى لمرسيليا، خاصة اليهود. وأنهم بدأوا في تنمية ثرواتهم وثروات مرسيليا رغم الجانب المرسيلي الكاره لهم، فمرسيليا صارت بها انقسامات مقلقة بين عموم الناس، ومثل الإسكندرية زاد فيها التشدد وكراهية من هم على غير دينهم.

بعد محاورات بين الأب وابنه، صوفي تمسح دموعها ولا تصدق أنها أخيرًا التقت بتوأمها الذي كانت تشتاق إليه. حكت ما حكاه بياف. وقوفها على الشاطئ تناديه وتناجيه ولولا أنها فتاة لرحلت لترى أمها وتوأمها. أبلغت حميدو بأنها مخطوبة وستتزوج بعد شهور قليلة من حبيبها موريس. أعجبت به لخلقه ووسامته وأيضًا لأنه واحد من اثنين هما أمهر فارسين في جيلهما. ثم سأل كلود الفرنسيسي سؤالًا يجب أن يسأله من البداية. سأل ابنه:

– سمعت منك أنك عرفت الكثير عن المسيحية، الآن يهمني. هل ستبقى مسلمًا أم تدخل المسيحية؟ وقبل أن تجيب يجب أن تعلم، أن بقاءك في إسلامك لن يمكنني من توريثك أملاك آل فيكتور وهي ثروات هائلة، وأن يكون على رأس العائلة مسلم، سيجلب هذا ضررا فادحًا على العائلة وتجارتها وثروتها، بل سيتسبب في شقاق عائلي. حميدو.. هل أتركك أيامًا تفكر؟

لم يحتج حميدو لوقت. أجاب والده فورًا:

– مع وافر احترامي للمسيحية، وعلمي بقدسية الإنجيل وصحته. فسأبقى مسلمًا.

– أنت ابني وابن كَدِيسة، ولن تتبدَّل لأجل ميراثي.

صباح اليوم التالي ذهب ثلاثتهم إلى البحر. نفس الجانب الذي كان يجلس عنده كلود وكاد يغرق فيه ثم كاد حميدو يغرق فيه.

معهما صوفي. رغم البرد بملابس خفيفة نزلوا ثلاثتهم في البحر وسبحوا مسافة. الثلاثة في سعادة خاصة حين دارت حولهم وبينهم تيارات حوريات البحر. عادوا للشاطئ وجففوا أنفسهم وارتدوا ملابسهم وقد ملأهم التفاؤل. رضاء اللـه يحيط بهم وسيساعدهم في رسالة الخير. بعدها ترك كلود أعماله لمساعديه وبقي مع حميدو وصوفي وما زال حميدو يناديها صفية، جوستين زوجة أبيه أحبته كما أحبته أخته الصغيرة أليسا وصارت تفتخر به، وانضم لهم كونراد شلنت وموريس الذي انسجم تمامًا مع حميدو.

جمعًا في موكب على الخيول ساروا معًا في أنحاء مرسيليا، فكان المرسيليون يقابلونهم بالود وإن كان القليل يبعدون وجوههم في رفض لهم، وعدد كان الأشد رفضًا لهم أخذوا يلوّحون لهم مهددين. شاهدوا معركة بين مجموعتين من الشباب. الشجار بالقبضات والركلات، ثم استل أحدهم خنجرًا فاستل الآخرون خناجرهم. ولولا تدخل عدد من كبار السن لقتلوا بعضهم. شرح كلود متحسرًا أن مرسيليا في حالة توتر لأنها تمر بمرحلة تبدل من حال لحال. لذلك فالعقول حائرة، والعواطف ساخنة والقلق من المستقبل أصاب الجميع، ومن مشاكل مرسيليا أنها لم تقرر بعد كيف تتعامل مع المسلمين واليهود. المسلمون واليهود صاروا بندًا مؤثرًا في تجارة وكل أعمال مرسيليا، واليهود خاصة بدأوا في مشاركة العمل مع أصحاب السفن والتجارة. لم يعد حصارهم ممكنًا.

دخلوا حي العرب وشارع اليهود فكان الاستقبال أرحب وأعمق ودًّا، وإن كانت الوجوه تحمل في طياتها حزنًا وقلقًا. اقتربت فتاة من صوفي فمالت صوفي وصافحت الفتاة وهزّت يدها تشجيعًا مع ابتسامة ودود. بعدها حكت صوفي لحميدو قصة هذه الفتاة. الفتاة أحبت فتى مرسيليًّا ولم يتمكنا من الزواج بسبب إسلام الفتاة ومسيحية الفتى. عائلة الفتى والكنيسة رفضتا هذه الزيجة. وعائلة الفتاة لم ترض عن تصرف ابنتها. الفتى في صدمة ولم يتزوج للآن، والفتاة رفضت أن يزوجوها من شاب مسلم قدموه لها. تصر على البقاء عازبة حتى تجد الفرصة للزواج من حبيبها. وهما للآن صابران ينتظران شيئًا يحدث يجمعهما معًا. وفي المقابل أحب فتى مسلم فتاة مرسيلية مسيحية، ولما وقفت مرسيليا كلها أمامهما، تشجعت الفتاة فهربت مع الفتى إلى باريس وتزوجا. هذه الحادثة آلمت الكثير من المرسيليين الكارهين للعرب، وأقلقت العرب خشية أن تفعل فتياتهم نفس الفعلة.

في اليوم التالي زاروا الخليج المزدحم بالمراكب المتنوعة وعليها مختلف أنواع البضائع التي تبحر بها لأنحاء البحر الوسيط. حميدو دخل المقر الذي يدير كلود منه أعمال آل فيكتور، ومن شرفته التي في الطابق الثاني وتطل على الخليج تعجب من كثرة المراكب وتنوُّعها. ثم زار مزارع آل فيكتور ومعاصر العنب. حميدو مبهور من حيوية المدينة ودقة تنظيمها.

كلود دهش أن قراءات حميدو قليلة ومعارفه ليست بالقدر الكافي، فعليه أن يقرأ في مكتبة العائلة بعد أن يتعرف على مرسيليا وأهلها. وأنه ماهر في استخدام العصا والخنجر. تعجب أن العصا أداة قتال بين متبارزين! يفكر كلود.. هل يمكن تدريب ابنه حميدو على الفروسية رغم سنه المتقدمة نسبيًا؟ في ساحة القصر الأوسع. حميدو بعصاته وكلود بسيفه. تبارزا وتتابعهما صوفي وموريس. العصا خطيرة فعلًا ويستخدمها حميدو بمهارة وهو يتراقص بها مثلما تعلم من عبد المقصود. لكن العصا انكسرت سريعًا بعد صدامها بحد السيف. وانكسرت العصا الثانية ثم الثالثة. في خلال انكسار العصي، حميدو يقاوم فروسية أبيه لكن قلبه ينكشف كثيرًا لذؤابة سيف أبيه. توقفا بعد أن تأكد حميدو أنه بعصاته لا يمكن أن يصمد أمام فارس يحمل سيفًا. أتوا له برمح معدني ليستخدمه كعصا، وفي نفس الوقت سن الرمح أداة قتل خطيرة. هنا كانت مقاومة حميدو لكلود شرسة، لكن ما زال كلود الفارس الماهر هو الذي يفوز. ولما تبارزا بالخناجر فاز حميدو. قرر كلود أن حميدو لن يستطيع تعلم المبارزة بالسيف في وقت ضيق، لن يكون فارسًا. عليه أن يتدرب سريعًا بالرمح في مبارزة الفرسان، بهذا يمكنه الصمود أمام الفرسان. وعليه تعلم ركوب الخيل فحميدو تعود على ركوب الحمير فقط. حاول حميدو المعارضة، لكن كلود صمم وقال لحميدو:

– توقع يا بني كثرة أعدائك هنا بما لا يقلون عن هناك. فعليك أن

تعرف أكثر مما تعرفه لتتعمَّق معرفتك بالبشر، وأن تكون واضح المهارة في استخدامك الرمح، ففرسان مرسيليا خطرون.

ثلاثة أيام من التدريب في ساحة القصر، حميدو متحمس ويريد استيعاب كل مهارات تمكنه من مواجهة الفرسان، فكان كلود وموريس خير مدربيْن له. واتفقوا على أنه كل صباح عليه بالتدريب مدة ساعتين.

أقرب صديقة لصوفي هي إيفون. إيفون مصممة على صداقة صوفي رغمًا عن نهْي والدي إيفون لها. فأبوها لوبان الحدّاد. التابع لآراء أخيه الأكبر الكاهن لويس. لويس كاره للمسلمين واليهود. وهو الذي قام بتربية أخيه الأصغر لوبان. لذلك فلوبان معتقد تمامًا في كل ما يعتقده لويس، ويكرر ما يقوله. لوبان تُسَيِّره في حياته كراهية وحسرة. الحسرة أن زوجته مارين صدمته وأخزته بإنجابها ثلاث فتيات ولم تُرضه بذكر واحد! ودائمًا كلما تغرقه الحسرات يردد مقولة يقولها لويس عن القديس بولس (من تزوج يفعل حسنًا، ومن لا يتزوج يفعل أحسن) لوبان الحدّاد لم يسعده وحتى لم يرضه أن بناته الثلاث جميلات قويات البنية. بقيَ في هَم رغم أن زوجته مارين بإحساسها بالذنب، وضعت نفسها في خدمته ليل نهار، وكأنها جارية عنده. واتخذت أفكاره أفكارًا لها مهما كان شططها. لوبان شكر الرب أنه تخلص من بنتين بتزويجهما،

ويدعو اللـه أن يعجّل بتزويج الثالثة. الثالثة هي إيفون. لم يعطها فرصة ليكون لها رأي في أي شيء. يغضبها إن رآها تضحك. يرفض أن تشارك في الرقصات حتى لو كانت الرقصة خاصة بالفتيات فقط. لوبان قاسٍ على المرأة عمومًا وعلى زوجته وبناته خصوصًا. هذا من ناحية الحسرة، أما من ناحية الكراهية، فلوبان مثل أخيه لويس. متعصّب لمسيحيته، رافض لكل العقائد الدينية الأخرى. لا يركز كراهيته على غير المسيحيين فحسب، بل حتى على المسيحيين الذين يخالفون مذهبه. لذا فلوبان عدو لدود لآل فيكتور، وغاضب من صداقة ابنته إيفون بصوفي ابنة كلود الثالث المدافع عن المحمديين واليهود، والذي يشجع الفتيات على الابتهاج والغناء والرقص ومضاحكة الشباب.

لوبان لا يسمح لإيفون بالتردد كثيرًا على قصر آل فيكتور، لكن إيفون تضطر للمكر وزيارة صديقتها دون علم والديها، وإن كان لوبان بمثل هذه الكراهية، فإن زوجته مارين التي كانت فتاة عادية متطلعة للحياة، تحولت لإنسانة صعبة متصلبة اتباعًا لخطى زوجها في كل شيء، خاصة أنها تلوم نفسها على إنجابها للفتيات الثلاث، وأن رحمها لم يعط زوجها ولدًا ذكرًا يسعده. فشاركته في احتقار المرأة عمومًا، وحشرها في مكانة واطئة بما فيها نفسها! قست وتقسو على بناتهما الثلاث، وحمّلتهن مسئولية أن لا واحدة منهن جاءت ذكرًا! وتحاول ولن تكل عن محاولة إبعاد ابنتها إيفون

عن صديقتها صوفي. ورضوخًا لزوجها أيضًا، فهي لا تقل عنه كراهية للمحمديين واليهود. ابنتهما إيفون لم تتأثر بتصلب والديها وجفافهما وبقيت هيِّنة ليِّنة، لكنها من دواخلها تتشوَّق لقلب حنون، تحتاج لمن تشكو إليه ولمن يربت على كتفها ويلمس على شعرها ليعوِّضها عن خشونة والديها.

أتت إيفون تبارك لصديقتها صوفي وصول توأمها السكندري المحمدي. إيفون تسرع الخطو وفي قصر آل فيكتور تسرع أكثر وتكاد تهرول تشوُّقًا لمقابلة صوفي. تصعد درجًا وعيناها على درجاته الخمس فإذا بمن ينزل الدرج ويكاد يصطدم بها. من المفاجأة ومحاولتها تفادي التصادم ارتدَّت بنصفها العلوي للخلف، فيتوقف الشاب النازل فورًا وأمسكها بيد من أعلى كتفها وبيده الثانية يحيط بخصرها حتى لا تسقط على ظهرها. شهقت إيفون رعبًا من السقوط، ورفعت وجهها فانتابتها دهشة وهي تنظر لهذا الذي كاد يطيح بها ثم أحاطها بذراعه من وسطها وقرَّبها لجسده. يا له من شاب وسيم أصابه ارتباك وخجل من إمساكه من وسطها، وشعوره بجسدها وقد لامس جسده. ثوانٍ بقيا هكذا. ثوانٍ فقط كانا في خجل مما هما فيه ومتعة زائدة من نفس مما هما فيه. ثوانٍ فقط ستبقى ذكراها طوال سنوات حياتهما. فلما اعتدلت إيفون سحب حميدو ذراعيه للخلف سريعًا. تأسف بالعربية ثم بالفرنسية.

ــ آسف.

فقالت ووجها يتحول من الأشقر للأحمر:

– آسفة.

وقفا ينظران لبعضهما بعضًا. جميدو يقف على الدرجة الثالثة وأمامه وتحته بدرجة فتاة شابة شقراء كادت أن تكون حمراء من المفاجأة، شعرها مُحمَّر وعيونها صافية الزرقة وشفتاها أعمق من حمرة خدَّيها. إيفون تسمّرت لا تبعد عينها عن وجه الشاب ذي الشعر الأسود الملفوف في شبه دوائر، ووجه لا تعلم له لونًا. ليس واضح السمرة ولا هو أبيض ولا هو أشقر، لونه من لون القمح الناضج. عيناه آسرتان بحدقتيها السوداوين في محيط أبيض. يبتسم لها والحرج ما زال يغلف تقاسيمه الجاذبة. لكن دلائل الإعجاب أخذت تتغلب على دلائل الخجل. هبط الشاب درجة فصار بجوارها. ينظر إليها مبهورًا بجمال وجهها الغربي وجسدها المثمر. تنظر إليه مبهورة بجماله الشرقي وجسده الرشيق. لم يتكلم، فتكلمت هي متغلبة على ارتباكها وخجلها المعروف عنها وسألت:

– أنت توأم صوفي؟

– نعم.

– أهلا. جئت لأبلغها سعادتي بوصولك.

– ..

– أنا إيفون.

– أنا حميدو.

– هميدو.

مبتسمًا

– نعم هميدو.

– نشكر الرب على سلامتك.

– وصلت مرسيليا واا..

تلعثم ثم واصل كلامه وهو في حالة هيام. يريد أن يقول لها إنها جميلة..

– واا.. مرسيليا جميلة.

ابتسمت إيفون وقد فهمت ما يريد قوله.

– أراك فيما بعد.

– فيما بعد يا..

– إيفون.

– يا إيفون.

صعدت لحجرة صوفي. احتضنت صوفي وهي في غاية السعادة، ثم تناولت منها قطتها وأخذت تداعبها وتقبّلها بشوق عظيم. صوفي

حائرة من حالة إيفون الغريبة، ووجهها النابض بحُمرة الفرح. إيفون لم تبارك لصوفي وصول توأمها. قالت ووجها يشع بهجة، إنها قابلت توأمها وكادا يصطدمان بالدرج. عادت إيفون لتحتضن صوفي. صوفي وهي في أحضان إيفون قالت لها:

– إيفون. ماذا؟

– إنه بالغ الوسامة.

– هاها. أعجبك.

تركت إيفون حضنها وقالت:

– لا أعرف كيف حادثته؟ صوفي، أتعرفين؟ إنه خجول مثلي! لو رأيتيه وهو في بحر من الخجل لأنه كاد يصطدم بي.

– إنه خجول بالفعل.

– ولأنه أمسك بكتفي و..

– وماذا يا إيفون؟

– وأمسكني من خصري. احتضنني.

– صوفي؟

– لا. لم يكن حضنًا. فقط لحقني حتى لا أسقط على ظهري. فقط.

– هـ.. همـ..

– صوفي.. كان حضنًا جميلًا. يجب أن أعترف بهذا.

– هـ.. همـ.. أيا ابنة الرجل المتشدد الكاره للمرأة.

– هميدو. اسم غريب جميل.

– إيفون. احترسي يا صديقتي. هميدو مسلم من الجنوب، وأبوك وأمك أكره ما يكرهانه ما يقولان عنهم المحمديين واليهود.

فترة طالت وإيفون تنظر لكفيها اللتين تفركهما في عصبية. رفعت وجهها ونظرت لصوفي:

– صوفي. وهل يخشى القلب المحب غضب أب أو أم؟

– أبدًا؟

– وهل يفهم القلب اختلاف الأديان؟

– لا أظن.

أيام ثلاثة يتقابل فيها حميدو وإيفون داخل قصر آل فيكتور. قضيا معًا ساعات يتجاذبان الحديث. حكى لها بإسهاب عن حياته وعن أمه. حكت له في اختصار عن حياتها وعن والديها، وشرحت نفسية والديها الكارهة للمحمديين واليهود والمرأة، وأكدت أنها تحبهما رغم طبعهما المتشدد. سعدت إيفون حين أبدى حميدو

رغبته في الزواج منها. تتمالك نفسها بصعوبة، تريد أن تثب عليه وتحتضنه. وافقت على الزواج منه بلسانها وبكل دواخلها وخوارجها. ثم صارحت حميدو بانها لا تتوقع أن يوافق أبوها على زواجها من محمدي. وأنه سيقيم حربًا ضروسًا ضدها وضد كلود وآل فيكتور. تأثر حميدو لوضع إيفون الصعب. أكد لها أن سلامتها أهم شيء عنده، وأنه مستعد أن يتحمل آلام فراقه عنها في سبيل ألا يتسبب في الإضرار بها. صاحت إيفون.. لا. لا. لن يكون فراق بيننا. ثم دمعت عيناها من طيبة قلب حميدو وخشيته وحنانه الواضح عليها، مالت عليه وأراحت رأسها على كتفه. حميدو يربت على رأسها وشعرها الناعم، وشرح لها أنه مسلم والقول على المسلمين إنهم محمديون، المقصود به الإساءة. ثم أكدّ لها أنها إن اختارت هي مجابهة الرافضين للزواج منه، فهو مستعد لمقاتلة جيوش كاملة في سبيل أن ينالها زوجة. فقالت إنها ستجابه الدنيا لتكون زوجته.

في هذه اللقاءات الثلاثة، تلامست أذرعهما في ولهٍ، وتبادلا نظرات المغرمين بالأعين الناعسة، وفي اللقاء الأخير لم يتحمل حميدو فأخذها من كتفيها وقبّلها وهي تقاوم بضعف مقاومة الراغبة. القبلة تلتها قبلة وتلتها قبلة. القبلات العاطفية حملت الكثير من فورات الجسد المكبوتة، فانغلقت جفونهما لذّة وطربًا.

العائلة مجتمعة لتناول العشاء. صوفي وهي تداعب قطتها نظرت نظرة فهمها أبوها كلود. ثم قالت لحميدو إنها تريده في أمر، أمسكت بذراعه وأخذته معها لحجرة جانبية. أتى أبوهما فهذه الحجرة هي المحببة لصوفي أن تتفاهم مع أبيها في أمورهما خاصة. تعجب كلود أنها تنتظره ومعها حميدو. جلسا في مواجهة حميدو كما طلبت صوفي. حميدو في قلق وكلود ينتظر ما وراء ابنته. قالت صوفي:

– إيفون؟

فوجئ حميدو ولم يجب. استمرت صوفي والقلق والحزم يشعان من عينيها وإن رسمت شفتاها ابتسامة خفيفة رغمًا عنها:

– يا أخي ما زلت حديثًا في مرسيليا وتوقع أعز صديقاتي في حبك؟

حميدو ينظر لأبيه محرجًا. كلود ينظر لصوفي مستفهمًا. حميدو بعد لجلجة قال:

– لم أقصد.

هنا تغلبت ابتسامة صوفي على قلقها وقالت.

– الحب يفاجئنا يا هميدو. أنا أحببت موريس من أول مرة شاهدته في استعراض مبارزة، ورفضت تودد زميله ومنافسه بيجار. لكن يا هميدو لي تَعَجُّب ولي تحذير، العجب من سرعة وقوع إيفون في

حبك، فهي معروفة بالخجل الزائد والابتعاد عن الشباب، إن حادثها شاب تتلعثم وتكاد ساقاها أن تلتفا في بعضهما وتسقط أرضًا، فكيف تقع في حبك هكذا سريعًا وتتكلم معك ثم تحكي لي عن حبها بهذه الجرأة والإصرار؟ أما التحذير يا حميدو.. إيفون ابنة لوبان الحدّاد وزوجته القاسية مارين. بالطبع حكيت لك عنهما؟

– نعم.

القلق الذي غمر كلود الفرنسيسي كان أعمق وأكثف من قلق ابنته صوفي. قال حزينًا:

– حميدو. يا بني الذي حُرمت منه سنوات طويلة، إيفون فتاة جميلة طيبة قوية الجسد، لكن إن لم يتوقف حبكما أنت وإيفون، سيتسبب لكما أبوها وأتباعه في أذية لا تتصورانها. حميدو. إن نسيت إيفون يكون أفضل.

– لماذا يا أبي؟

– لما قلته لك عن أبيها. ولأنها من دين يخالف دينك. ولأن جانبًا من أهل مرسيليا سيقف ضدك.

– وأنت يا أبي حين أحببت أمي كَدِيسة، ألم يكن دينها مخالفًا لدينك؟ ألم يقف أمامك جانب من أهالي الإسكندرية؟ ورغم ذلك مضيتما في حبكما، أنا وإيفون أحببنا بعضنا، ولن أتخلى عنها طالما هي متمسكة بي وليكن ما يكون.

– غلبتني يا بني. اعذرني فأنا أب يخشى على ابنه.

تدخلت صوفي:

– إن استطعتما الزواج يا هميدو، ماذا ستفعل في مسيحيتها؟

– أنا أحترم المسيحية، فأبانا مسيحي مسلم. وأنت توأمي مسيحية. وفي دمياط عاشرت عائلة عبد الملاك المسيحية، ودخلت الكنائس عشرات المرات، قرأت وسمعت لآيات الكتاب المقدس بتوراته وإنجيله. سأتزوج إيفون فأنا أحترم مسيحيتها ولن أمنعها من الكنيسة بل سأزور معها الكنيسة. ولها أن تعلّق صليبها داخل بيتنا وخارجه كما تشاء.

– وإن أنجبتما بنين وبنات؟

– صوفي. هل تشكين فيّ؟

– لا. لكن لنطمئن.

تدخل كلود:

– وأيضًا حتى لا تسبب مشاكل لعائلة فيكتور وتضر بتجارتها وسمعتها بين المرسيليين.

– أتمنى أن تنجب لي إيفون أولادًا وبناتًا. ولن أتدخل في ديانتهم. سيكبرون وهم يعيشون مع المسلمين والمسيحيين. وحين يصلون

لسن الرشد، لكل واحد فيهم أن يقرر الديانة التي يستريح إليها أكثر، كما قررت يا والدي أن تكون مسيحيا مسلمًا. وكما قررت أختي أن تكوني مسيحية وأنا بقيت مسلمًا.

شهر قاسٍ على حميدو. مجبر على التدريب كل صباح تحت رعاية خطيب أخته موريس. بنهاية الشهر كان حميدو قد تعلم كيف يستخدم الرمح والخنجر في مواجهة أعتى الفرسان. اطمأن كلود الفرنسيسي على ابنه، فكلود بخبراته موقن أن الأيام القادمة حبلى بالمخاطر المميتة على ابنه حميدو، فبعض عائلة فيكتور لا يحبونه، والبعض يكرهونه. والكثير من أهالي مرسيليا لن يتقبلوه. وفي نفس الوقت لقاءات حميدو وإيفون تتم في الخفاء، وبقدر ما فيها فرحة والابتسامات المُحبة، بقدر ما فيها الكثير من القلق والهلع.

ثم أتى احتفال عيد الميلاد المجيد في الخامس والعشرين من ديسمبر، والثلج يتساقط على المدينة. في قصر آل فيكتور، مثل كل عام قامت صوفي مع صديقاتها بعمل مجسم لمغارة الميلاد، وفيها يوسف والعذراء مريم تحمل رضيعها يسوع. انضم لصديقات صوفي هذا العام، خطيبها موريس وإيفون وأيضًا حميدو. إيفون التي سعادتها مضاعفة أن يشارك حبيبها هميدو في تجسد المغارة.

حضر حميدو احتفالات كنيسة نوتردام دي لاجارد. لم يكن وحده المسلم، حضر عدد من العرب المسلمين. حميدو يتابع ويشارك فيما

يراه مناسبًا له. استغرق في جو التعبد الشفيف والروحانيات السامية التي تعبئ الكنيسة ومن فيها. شاهده الكثيرون وعرفوه. أسقف الكنيسة يعرف من قبل بحكاية كلود الثالث، ويعرف زواجه من مسلمة قبل زواجه الثاني من مسيحية، ويعرف أن ابنًا له مسلم قد أتى لمرسيليا، بل عرف أنه موجود في الكنيسة في هذا الاحتفال المقدس. تعمد في كلماته الطيبات أن يعدد مناقب يسوع الإنسانية. طيبته وسماحته اللذين أحبا البشر كلهم. ومن كلمة الأسقف:

– هو المسيح الذي قال لنا أحبوا أعداءكم. أحسنوا لمبغضيكم. باركوا لاعنيكم. وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم. وقال ما جئت لأهلك أنفس الناس، بل لأخَلِّص. والراهب فرنسيس علمنا أن المسيحيين مدينون لجميع البشر بالاحترام والمحبة، لأنّ جميع البشر موضع اهتمام اللـه ومحبته. ومن أقواله إن الكنيسة تحترم جميع الأديان التي تحاول الوصول إلى اللـه.

واستمر الأسقف في كلمته:

– الآن في بيت الرب هذا، إن جاءنا أخ لنا مسلم جنوبي، ماذا نفعل مع أخينا هذا المسلم؟ لقد أتانا محبًا، فلنستقبله بالمحبة.

مَن حول حميدو نظروا إليه مبتسمين. حميدو غمرته فرحة عظيمة فنزلت دموع من عينيه، وأحس أنه يحب كل البشر، وأنه بالفعل يحب المسيحيين حبًا جمًا. فهم أهل الكتاب الذين أوصى بهم

اللـه في قرآنه الكريم وأوصى بهم الرسول في أقواله الصحيحة.

الكاهن لويس وأتباعه لم يرضوا بكلمات الأسقف. الغضب يتحجَّر على قسمات وجوههم. لم يرضوا عن المحمديين واليهود، ويفكروا في طريقة لطرد كل من هو غير مسيحي من مرسيليا.

ما يقلق حميدو، البرد الذي يشتد والذي لم يتعود عليه في دمياط. أيام عديدة لم تظهر فيها الشمس، أوحشته الشمس. الفرحة الغامرة على أهالي مرسيليا تخفف عن حميدو البرد القارص، وخففت عنه موجة البرد القارص في ليلة رأس السنة. ورغم كل هذا البرد المخيف، فحميدو يتعجب وأهالي مرسيليا تحتفل في الشوارع والميادين غير مبالين بسقوط الثلج! كل الأعمار تحتفل وهي في سرور وتهنئات متبادلة والملابس الثقيلة عليهم. وجماعات الشباب خاصة تمرح وتعلو ضحكاتهم. حميدو وقد ارتدى ملابس أثقل مما يرتديه أهالي مرسيليا، يقابل إيفون ويتشاركا في الرقصات الجماعية الساخنة التي جمعت الذكور الإناث في أهم ميدان في مرسيليا. حميدو لا يعرف تلك الرقصات المرسيلية، لكنه يرقص كما يحلو له ولا يهمه النشاز فهو سعيد. إيفون لم ترقص من قبل بأمر من والديها، لكنها رغم سوء رقصها، فهي ترقص ولا يهمها النشاز فهي سعيدة. انطلقت تغني مع الجموع ولم تخش أن يراها ويعرفها أحد ويصل خبر رقصها وغنائها مع المحمدي لوالديها. ثم انزويا – حميدو وإيفون – في ركن هادئ. قال حميدو:

– إيفون. طوال حياتي كنتُ أبحث عنك.

– هميدو. وطوال حياتي كنتُ أنتظرك.

على عادة آل فيكتور، في أعياد معينة تدعو لحفل كبير في القصر. في هذه الليلة أعدوا ودعوا لحفل مبهج حضره جموع متنوعة من أهالي مرسيليا، مع العديد من آل فيكتور، ومن بينهم فيلدرز وابنه المضطرب بينو. ماسياس المطرب الأساسي الذي أحيا الحفل. غنى ماسياس أغاني حب الرب وحب الحياة وحب الناس، غنى بالفرنسية وبالعربية. أطرب الكل والكل لم يهتم بل لم يفكر أن ماسياس شمالي تربى في جنوب البحر الوسيط، وأنه يهودي الديانة. الفن ينسي الاختلافات ويقرّب ما بين البشر. غنت عائلة كلود وكل الحضور معه. تناولوا الطعام معًا وابتهجوا معًا.

حميدو محط الأنظار الراضية في أغلبها والرافضة في أقلها. كلود الفرنسيسي اقترب من ابنه حميدو وهو يمسك بساعد رجل عجوز. قام بتعريف الرجل لحميدو. الرجل يهودي صاحب دكان كبير في مرسيليا، وهو من أحفاد عائلة كانت تمتلك أشهر وأكبر الدكاكين في الإسكندرية، والتي كتب عنها كلود السمين. تحادث مع حميدو في شجن عن الإسكندرية مسقط رأسه واشتياقه لها، ورغبته في زيارتها، ثم دعا كلود وحميدو ومعهما صوفي للغداء في بيته الكبير، وكانت الموافقة السريعة.

انصرف المدعوون وبقيت عائلة آل فيكتور. يعلم كلود أن بين الحضور أقلية رافضة وكارهة له. أراد أن يُحَيِّدَ جانبًا من الرافضين والذين سيرفضون قرارًا خطيرًا سيعلنه. وقف كلود ليبلغ الحضور أن ابنه حميدو سيعود لمصر فحياته هناك وليست هنا. فيلدرز ابتسم فرحًا. لكن كلود أعقب مفاجأة رحيل ابنه حميدو بمفاجأة ثانية كان يمهد لها، تكلم عن تغير الزمن وأن الفتيات يتعلمن مثل الأولاد، وبعضهن نبغن في التجارة وشتى جوانب الحياة، فتقليد توريث القصر وأكبر جانب من الثورة لأكبر الذكور، لم يعد صالحًا الآن. لذلك فقد قرر أن صوفي هي وارثة القصر وتسيير أعماله من بعد موته. فيلدرز كان ممسكًا بكأس نبيذ أحمر. وجهه امتلأ بدماء الغيظ والحقد وكراهية سنوات طوال، فصار لونه أعمق حُمرة من النبيذ. ألقى بكأسه على الجدار القريب منه فتحطم في انفجار شؤم. في نفس الوقت تصاعدت أصوات الاحتجاج.. صوفي! صوفي! صوفي تتولى عائلتنا؟ امرأة تتحكم في الرجال، ألا يوجد رجال في آل فيكتور؟ فيلدرز صياحه كان أعلى على بقية الأصوات.

– كلود. أنت تخرج عن تقاليد العائلة، وهذه أنانية منك. كيف تجرؤ على تنصيب امرأة على رأس العائلة؟ كيف تتهور وتؤذي سمعتنا كلنا بهذا الرأي الشاذ؟ امرأة تتولى أمرنا؟ صوفي! صوفي! ابنتك لا تستطيع التحكم في أعمال آل فيكتور وستضرنا كلنا. صوفي تستطيع أن تتبوأ مكانة احترام وتوقير بين عائلتنا كامرأة

تتزوج وتنجب وتربي أولادها مثلها مثل غيرها. وسنتغاضى عن كونها ابنة امرأة مُحَمّدية! أنت بقرارك المتعسّف هذا تحرمني أنا وابني بينو من حقنا في القصر والثروة. أنا وبينو مَن لنا الحق في ميراثك وليست ابنتك. كلود بن سايمون، أنت بأنانيتك هذه تعمل على تدمير العائلة. سأقف ضدك في هذا القرار القبيح أنا وغيري، ولن تتحكم امرأة في قصر وأعمال جدنا.

ترك فيلدرز المكان وخلفه تابعه ابنه بينو الذي يجلب السخرية بسذاجته وعدم اتزانه وغرابة بنيانه. اتبع فيلدرز وبينو ثلاثة من آل فيكتور بزوجاتهم وأبنائهم. كلهم غير موافقين على قرار كلود، غير راضين أن تتولى الأمور امرأة.

مضى شهر يناير وأقبل فبراير ومعه سحب المتاعب تبرق بالوعيد وترعد بالتهديد. الانقسامات بين المرسيليين تزداد، والكراهية تتعمق ليست بينهم وبين المسلمين واليهود فقط، بل بينهم وبين أنفسهم، وزاد انقسامهم بعد إعلان كلود أن وريثته هي ابنته صوفي، وأن من حقها إدارة أعمال آل فيكتور! ظهرت في مرسيليا فئة تطالب بالسماح للمرأة بالعمل في التجارة ومساواتها تمامًا بالرجل. بالطبع كان الكاهن لويس وأخاه الأصغر لوبان الحدّاد من أكثر الكارهين لما فعله كلود، ومن أكثر المحرّضين ضد المرأة. ولويس وهو في الزي الكنسي الوقور، كرر مرارًا أمام الجموع أنه ليست للنساء

ولاية على الأعمال، فعقل المرأة ضعيف وليست في كمال عقل الرجل. أغلبية المرسيليين ضد قرار كلود بتولية ابنته صوفي لتدير أعمال آل فيكتور، وجانب منهم انضم للكارهين لآل فيكتور والعرب واليهود.

أبلغت إيفون أمها مارين بحكايتها مع حميدو. مارين انهارت وأغمى عليها، أفاقت تسكب أنهارًا من الدموع واتهمت ابنتها بأنها تخطط للخروج من رحمة الكنيسة، وتزمع قتل والديها وفضحهما في مرسيليا. إيفون لم تتراجع وهي تتوقع أن تثور عليها أمها بعنف، وثارت أمها عليها بدرجة من العنف لم تتوقعها إيفون. مارين صارت غولة مرعبة. هجمت على ابنتها وجذبتها من شعرها وأطاحت بها أرضًا، تسبُّها وتلوم نفسها أنها سمحت لها أن تكون صديقة لعائلة تحب العرب واليهود؟ عائلة رجل تزوج من محمدية والآن يريد توريث ابنتها ووضعها فوق الرجال؟ مارين عادت تلطم وتبكي وتنوح. لم تتراجع إيفون عن تصميمها للزواج من حميدو. قالت لأمها:

– لن أخنع مثلك لأبي مثلما أنت خانعة له. هميدو يحترمني. أبي لم يحترمني ولم يحترم أختيَّ وحتى لا يحترمك أنتِ.

هجمت مارين على إيفون هجمة ثانية وعضتها عضات متواليات، ثم هددتها بسوء العاقبة إن لم تتراجع عن غيِّها. لم تتراجع إيفون ولم

تتخاذل أمام كل هذا التهديد والوعيد، صاحت أنها لن تتخلى عن حبها لحميدو، ثم استقبلت جولة ثالثة من الضرب والعض والرفس.

عدد من آل فيكتور صاروا عونًا للحاقد فيلدرز. قرار كلود بتوريث ابنته صوفي شجع كل من كان يداري رفضه لكلود، أن يعلن رفضه أو كرهه أو حتى حقده. الرافضون لكلود صاروا عددًا لا يستهان به، الغريب أن أعدادًا كبيرة من العرب واليهود لم يعجبهم قرار كلود، فالمرأة عندهم أيضًا لا يحق لها أن تترأس الرجال! والأغرب أن الكثير من النساء في عموم مرسيليا رفضن قرار كلود بتوريث صوفي! الرافضون لكلود والكارهون له، استقووا أكثر بانضمام الفارس الشاب بيجار الذي كان ينافس موريس في المركز الأول في تدريبات الفروسية. بيجار من عائلة كبيرة العدد لكنها متوسطة الغِنى. عائلة تفعل الأفاعيل لتعلو وتستقر كعائلة من كبريات عائلة مرسيليا، لذا بيجار لن يكف عن محاولاته في الزواج من صوفي ليستولي على ثروة آل فيكتور. حاول مرارًا لفت أنظار صوفي خلال تدريبات الفروسية والعروض التي كان يشاهدها كبار عائلات مرسيليا، لكنه لم يفلح، فهو وقت الاحتدام القتالي يتبين أنه ليس بالشجاعة المطلوبة. مهارته لا تستطيع مداراة جبنه. من فلح في جذب إعجابها وخفقان قلب صوفي هو موريس. فألقى بيجار سبب فشله على موريس، فموريس إن لم يُخلق ويوجد، لكان هو الأول في الفروسية بلا منازع، ولكانت صوفي قد وقعت في حبه

لتصير زوجته هي وثروتها. انضم بيجار وعائلته لأعداء كلود.

في نهار يوم وموريس وحميدو وصوفي على صهوات الخيول وصوفي تردف أختها أليسا خلفها، يمرون في ميدان من ميادين مرسيليا. الخيول الأربعة تتداخل وتتباعد في انسجام. موريس تقدم وقرر أن ينحرف يمينًا في شارع جانبي. حصان صوفي صار خلف حصان حميدو. وهنا صرخت صوفي صرخة قوية. ألم حاد اشتعل تحت كتفها الأيمن مباشرة. صوفي تصرخ وأليسا التي تحتضنها بالخلف ارتعبت من صراخ أختها رفعت رأسها لأعلى فرأت السهم المرشوق في كتف أختها فصرخت هي الأخرى. قبل أن تسقط صوفي كان موريس وحميدو قد أحاطا بها. لم يتبينوا من أطلق السهم. الأهم الآن إنقاذ صوفي. رفعاها ووضعاها أمام موريس، وحميدو أخذ أليسا خلفه وانطلقا عائدين سريعًا للقصر والحصان الخالي يسرع خلف الحصانين اللذين يمتطيهما موريس وصوفي المصابة وحميدو وأليسا.

طرحوها على بطنها ومزقوها ملابسها من ناحية ظهرها. الطبيب الذي أتى سريعًا انتزع السهم وطهر الجرح وطمأن كلود والعائلة أن الإصابة لن تميت، لكن ربما تضعف قوة الكتف والذراع. كلود في غضب مشتعل. صباح اليوم التالي ذهب لقصر حاكم المدينة، لم يكن وحده، معه كونراد شلنت وكبير عائلة فيتوريو وكبير عائلة

رابال. الحادث جلل وينذر بمعارك بين أهالي مرسيليا ويتوعد بسيل من الدماء. الحاكم يستمع لكلود الذي طالب الحاكم بالقيام بدوره في القبض على الجاني. الحاكم ضعيف. بدلًا من فعل شيء، أخذ يشكو لكلود ورفقائه كيف أن الفوضى تضرب مرسيليا، والشجار بالأسلحة صار عاديًا، والشباب المستهتر يزدادون ويبثون الفوضى في المدينة. ناهيك عن المعركة الضارية بين فئات مرسيليا، فرنسيون ضد غير الفرنسسين. أغنياء ضد فقراء والعكس. وكل هذه المتاعب والمعارك وليست معه قوة تكفي ولا مساعدون أكفاء. قام كلود ومن معه من عند الحاكم غاضبين. يعلمون أنه يجامل المتطرفين في الدين والكارهين للمرأة ولا يريد التصادم معهم. الحاكم يريد اللعب على كل التجمعات المؤثرة في مرسيليا، الحاكم منافق. تركوه وقد فقدوا الأمل فيه تمامًا. يجب أن يعتمدوا على قوى عائلتهم والقطاع الأكبر الطيب في ناس مرسيليا.

حميدو افتقد إيفون كثيرًا. لم تعد تأتي لزيارة صوفي ولتراه ويراها، ويتعجب حميدو.. ألم تسمع إيفون بإصابة صديقتها صوفي؟ بعد أن اطمأن حميدو فعلًا أن إصابة صوفي ليست خطيرة، سأل عن بيت لوبان الحدّاد وبحث عنه حتى وجده. بيت عادي له سور خارجي غير مرتفع. يحوم حميدو حول البيت ليجد نافذة مفتوحة يرى منها إيفون، النوافذ الأربع مثل باب البيت، كلها مغلقة. تُرى أي نافذة هي نافذة إيفون؟ شاهدته امرأة من الجيران وشكّت فيه أنه لص

يحوم حول البيت. حميدو ملبسه مثل ملبس بقية أهل مرسيليا، لكن لونه وملامحه تبينان أنه عربي. أتى حميدو في اليوم الثاني فخرج له زوج المرأة وأمسك به وهو يصيح بصوت عال مناديًا لوبان الحدّاد. حاول حميدو أن يفلت من يد الجار. ليست معه حربته، لكن خنجره موجود. يخشى أن يستخدم العنف معه فيتسبب في تصاعد المشاكل، خاصة أن عددًا من الرجال والنساء والأطفال التفوا حوله. لم يكن الحدّاد موجودًا في بيته، أتت زوجته مارين. اتجهت مسرعة ناحية الجار وزوجته وحميدو. سمعت ما يقوله الجار قبل أن تصل إليهم. نظرت لوجه حميدو، عرفت أنه الشاب الغريب الذي تحبه ابنتها. أخذت تلعنه بالكافر الخسيس السافل الذي يحاول طعن المسيح والمسيحية. الجار فهم أن الشاب العربي ليس لصًا، وأنه ابن كلود، فهدده إن عاد مرة أخرى هنا فلن يتركه وسيكون مصيره السجن ثم تركه. لعنات تلاحقه من بعض الذين تجمعوا. حميدو يبتعد ومارين مستمرة في لعانتها. حميدو يتعجب أن هذه الغليظة هي أم إيفون الرقيقة. وقبل أن يبتعد انفتحت نافذة بقوة لدرجة أن جانبًا من النافذة تحطم. من النافذة المحطمة ظهرت إيفون. شعرها مهوش ووجهها مُرهق بائس. صاحت بصوت عالٍ:

– هميدو. هميدو. سأتزوجك يا هميدو مهما فعلت أمي وفعل أبي. يحبساني يا هميدو حتى لا آتي إليك. اصبر يا هميدو.

استمرت في التأكيد على أنها له. حميدو وقف مذهولًا من المفاجأة ثم ابتسم وضحك وصاح هو الآخر:

– لن أتخلى عنكِ يا إيفون. سنتزوَّج رغم كل المصاعب. أحبك يا إيفون. أحبك يا إيفون.

مارين صرخت من جرأة ابنتها والفضيحة التي تحدثها. أسرعت عائدة إلى بيتها، وفي لحظات كانت تجذب إيفون من شعرها وتنهال عليها بالضرب، ثم سحبت بقايا النافذة المحطمة لتغلقها فلم تنغلق تمامًا. حميدو عاد لقصر آل فيكتور سعيدًا وسعادته مغلَّفة بحزن وآلام ما يحدث لحبيبته إيفون، سعادته ممرورة بالعراقيل الهائلة التي تحاول صد نهر حبه لإيفون وحب إيفون له.

في الوقت الذي كان كلود ومن يؤيدونه يستجمعون قواهم لوقف حملات الكراهية التي تنتشر في مرسيليا انتشار النار في الهشيم، كان مشعلو الكراهية يجتمعون ويخططون لمحاصرة المحمديين واليهود، ومنع تولي النساء أمور التجارة وغيرها. ومنع تنامي اندماجهما في المدينة، ومنع اليهود من الدخول في التجارة وامتلاك السفن ومخازن البضائع.

فيلدرز الطامع في قصره وثروته، انضم لبيجار الطامح الطامع، ولوبان الذي زادت نيران كراهيته بعدما صُدِمَ بحب ابنته لشاب عربي محمدي. الكارهون نظموا أنفسهم. القيادات ثمانية منهم

الثلاثة الذين ذكرناهم. في تجمع خاص بهم اشتكى لهم الحدّاد من حميدو الذي أغوى ابنته إيفون. فكان قرارهم أن يتم وضع مجموعة شباب تراقب بيت لوبان، وحين يأتي حميدو ليحوم حول البيت، يتم الإمساك به وضربه ضربًا مبرحًا.

امتثلت صوفي للشفاء. عاد حميدو ليحوم حول بيت إيفون. هذه المرة كانت معه حربته. نافذة إيفون تم غلقها بأخشاب غليظة من خارجها. حميدو لاحظ أن عددًا من الشباب يتابعونه. حاول العودة فسدوا عليه الطريق. لا يريدون الهجوم عليه ولا يسمحون له بالابتعاد. ثم صوت حوافر جواد تتصاعد حتى اقترب وهبط منه راكبه. الفارس الشاب بيجار. تقدم منه بيجار واستحكمت حلقة الشباب حولهما. بيجار يسخر من حميدو ويسخر من الحربة التي يحملها. يسخر من لونه ومن أصله العربي ودينه المحمدي. حميدو يمسك أعصابه لعل الوضع الخطير يهبط ويعود للقصر. بيجار تقدم أكثر من حميدو، ودفعه من كتفه دفعة قوية فاهتز لها حميدو. حميدو ملامحه تعطي الهدوء وعدم الغضب.

الشباب يشجعون بيجار على التمادي ويضحكون مع كلماته الساخرة من حميدو. حتى اتهم بيجار حميدو بالجبن. هنا ظهرت بوادر الغضب على وجه حميدو. ابتهج بيجار بهذه العلامات لكن حميدو عاد للهدوء. هنا التف بيجار يخاطب الشباب ويسألهم ماذا يفعل مع هذا الجبان؟

ماذا يفعل مع هذا العربي المحمدي الذي يخنع أمام الإهانات؟ ثم عاد بيجار لحميدو في خطوات سريعة وصفع حميدو صفعة قوية ووقف أمامه يديه في خاصرتيه مبتسمًا في تحدٍّ وقح. هنا حميدو لم يتمالك نفسه فبصق على وجه بيجار. بيجار لم يتوقع البصقة. استل سيفه وحميدو أشهر حربته. الشباب أوسعوا الحلقة للمتبارزيْن المتحفزيْن. بيجار رغم غضبه من البصقة المهينة، يبتسم في غرور وهو يتحرك هنا وهناك ويحرك سيفه في ثقة واحتقار لحميدو. حميدو مشهرًا حربته وعلى وجهه الغضب وعقله يتذكر كل ما تعلمه من كلود وموريس. ثم الاشتباك السريع المريع. ضربات ماكرة من هذا وذاك وصد ماهر من الاثنين. هجوم ودفاع ومناورات متقنة. بدأ بيجار يهبط من ابتساماته الساخرة وجبنه يتصاعد داخله. الذي أمامه ليس جبانًا ولا غبيًا يسهل قتله. بيجار يستجمع كل نفسه وشامل فروسيته ويهاجم ويحاصر حميدو الذي صار في موقف الدفاع. بيجار يتلقى تشجيع الشباب ومن انضموا إليهم من سكان البيوت المجاورة رجال ونساء وأطفال. بعض المشاهدين على حياد ويخشون من تشجيع حميدو. حربة حميدو أصبح دورها صد ضربات السيف. بيجار في توالي ضرباته ومناوراته السريعة زعزع من ثبات حميدو وفتح فيه الثغرات. وفي سرعة سيف أطاح بحربة حميدو الذي صار مكشوفًا تمامًا لبيجار. صيحات الإعجاب والفرحة من المشاهدين وأعلى الأصوات صوت مارين التي أتت خلال المبارزة. يحاول حميدو

أن يأخذ خطوات ليلتقط الحربة لكن بيجار يسد عليه الطريق. هجم بيجار وحميدو صار كقط مُحاصر حتى نال طعنة قاسية في جانبه الأيسر. سحب بيجار سيفه فانطلقت الدماء من الجرح العميق. بيجار وجَّه طعنة يريدها في قلب حميدو فابتعد حميدو عن الطعنة وأمسك بتلابيب بيجار وتلاصق معه حتى يمنعه من استخدام سيفه. حميدو لن يصمد طويلًا وجسده يفقد الدماء بغزارة. عاد بيجار للغرور والاستهزاء بحميدو. يحاول بيسراه دفع حميدو بعيدًا وتخليص يمناه الممسكة بالسيف من اليد اليسرى لحميدو. حميدو متشبث بيد بيجار الممسكة بالسيف، يلويها حتى أسقط السيف منه. ابتعدا واستل كل منهما خنجره. معركة خناجر، هي فرصة حميدو وليس أمامه دقائق كثيرة لينتصر قبل أن يفقد دماء أكثر. هو تلاحم واحد واستقر خنجر حميدو في بطن بيجار. بيجار فوجئ بالطعنة السريعة فتوقف عن الاحتدام متألمًا مذهولًا. الطعنة ليست مميتة، فهكذا أرادها حميدو. لكن بيجار خارت شجاعته وظهر جبنه. يمسك بمكان الطعنة ويكاد يبكي. ارتخى جسدا المتقاتلين وكل منهما يعاني من الطعنة التي نالها. وما كاد المتبارزان يتهدّلان أرضًا وهما في غاية الإنهاك، حتى اندفع العديد من الشباب وحملوا بيجار سريعًا لينقلوه للعلاج. مارين اقتربت من حميدو وأخذت تلعنه. عدد من الشباب اقتربوا من حميدو ليضربوه ويستكملوا قتله. وكادوا لولا أن تصدى لهم عدد من الشباب ومعهم أكثر من امرأة. لن يسمحوا بقتل مصاب وإن

كان محمديا كافرًا، وإن كان قد طعن فارسًا مسيحيًا مرسيليًا. رغم تشجيع مارين للشباب الغاضب ليواصلوا محاولتهم أن يصلوا إلى حميدو المصاب، ليضربوه بأياديهم ويركلوه بأرجلهم، كان إصرار المدافعين عن حميدو أقوى. حملوه لداخل منزل قريب وعملوا على إيقاف نزيفه وأرسلوا لقصر آل فيكتور ليأتوا سريعًا.

خلال وقت المبارزة العصيب وحتى انتهائها، كانت إيفون قد حطمت باب الحجرة المغلقة عليها، مستغلة عدم وجود أمها مارين. وما كادت تلملم أهم حاجاتها في كيس قماش، حتى دخلت مارين البيت وبصوت عالٍ تلعن حميدو وكل محمدي كافر. فوجئت مارين بابنتها على وشك الهروب من البيت. صرخت صرخة زادت من ارتباك إيفون فتركت كيس القماش الممتلئ يقع من يدها. هجمت مارين على ابنتها وأمسكتها من شعرها وجذبتها جذبة قوية للخلف فأوقعتها على ظهرها. ركبت على بطن ابنتها وأخذت تضربها بقبضتيها على وجهها وهي مستمرة في الصراخ المجنون. ابنتها من تحتها تصرخ متألمة وهي تحمي وجهها بيديها. ولما لم تتوقف مارين عن الضرب والصراخ، إيفون أيضًا أصابها الجنون فأمسكت أمها من شعرها وألقتها جانبا وقعدت على بطنها، وبدلًا من أن تضربها في وجهها بقبضتيها، أخذت تضرب بباطن كفيها على الأرض وهي تصرخ ومارين تحمي وجهها من ضربات كانت تتوقعها ولم تحدث. لحظات ولانت إيفون باكية وارتمت

جانبًا تنظـــر بعيدًا عن أمها وانخرطت في البـــكاء. مارين أخذتها فرصة ونهضت فوجدت تمثال القدّيسة مريم العذراء على منضدة. أمسكت بها وهجمت على إيفون التي رأتها فتنحت جانبًا وأخذت في النهوض والابتعاد عن ضربات أمها القاتلة. إيفون تعثرت ووقعت فصرخـــت أمها الصرخة النهائية وهي ترفع يدها بالتمثال وقبل أن تهبط به على رأس ابنتها لتقتلها توقفت وكأن ذراعها شـــل. إيفون متداخلة في نفسها تنتظر الضربة القاضية، ومارين جسدها يتراخى وصراخها يتراخى حتى جلست بجانب ابنتها ومالت عليها وتمثال مريم بين يديها. تبكي مارين وإيفون تبكي. مارين أخذت تقبّل مريم وتحتضنها. وجدت يدي إيفون تربـــت على ظهرها. أخذت إيفون تمثال مريـــم واحتضنته وقبّلته. مارين وإيفون نظرتا لبعضهما في ذهول مما فعلاه. عيناهما تشـــع حـــب أم لابنتها وحب ابنة لأمها. احتضنتا بعضهمـــا باكيتين. لحظات وقامت إيفون لتأخذ كيســـها. وقفت مارين أمامها تنظر لها نظرة حب وعتاب. قالت:

– ستذهبين له؟

– نعم.

– ويسوع؟ ومريم؟

إيفون التفتت حيث لوحة المسيح. ركعت أمامه وناجته بما يليق به. ثم قامت ومدت يدها لأمها فأعطتها أمها تمثال مريم. احتضنته

إيفون وقبّلته ووضعته في كيسها. قالت:

– لن أترك ديني. لن أتخلى عن يسوع. سأبقى أقبّل مريم ما حييت.

– تأكدي أني أحبك يا إيفون.

– أنا متأكدة من حبك. وأنا أحبك يا أمي.

– اذهبي يا ابنتي قبل أن يأتي أبوك. احذري منه. رغم أنه يحبك حبًا جمًا، فهو أهون عليه أن يقتلك ولا يتركك تتزوجين بكافر.

كلود في فزع رغم أن الطبيب طمأنه أن إصابة حميدو لن تقتله. صوفي وقد تعافت كثيرًا من إصابتها، تجلس بجوار توأمها وتبكي بكاءً مرًا. حميدو أفاق، ممددًا على سرير وثير. يبتسم لأبيه وأخته وزوجة أبيه. بيمناه يربت على شعر أخته الصغيرة أليسا التي جلست بجانبه تمسح دموعها.

كلود قرر أن يواجه الدهماء الذين تطاولوا على عائلته وعلى استقرار مرسيليا مما سيضر تجارتها وأعمالها. يجب أن تحتشد قوى الخير والحب ضد عصابات الشر والكراهية. لا مناص من المواجهة. مرسيليا ظهر بها التوحش مثل توحش الرايات السوداء في الإسكندرية. أرسل لرجال وشباب آل فيكتور ليجتمعوا به في مقر عمله صباح الغد. الهدف أن يخططوا لما يجب أن يكون، ثم

يطلبوا كبار العائلات ليجتمعوا بهم ويقنعوهم برأيهم، وبعد هذا يكون اجتماع كبار العائلات الغنية القوية مع الحاكم الضعيف.

قبل مغرب نفس اليوم كانت إيفون في قصر آل فيكتور. كلود نظر لها نظرة لوم. لا يريد أن تشتعل الأمور أكثر وأكثر. لكن صوفي احتضنت إيفون وأخذتها لحجرة حميدو. ألقت إيفون بكيسها وأسرعت لحميدو قبل أن يحاول الاعتدال من رقدته. تناديه:

– هميدو.

وحميدو ابتسامته اتسعت وعيناه اتسعتا وكأنهما استوعبت كل أفراح الكون. همس..

– إيفون!

امتدت يمناه ناحيتها. أمسكت إيفون بيمناه وأخذت تقبّل يده باكية وهي تَعْزف اسمه في هيام.. هميدو. هميدو. حميدو ينظر لها نظرات ولهانٍ سعيدًا برؤية حبيبته ويناجيها.. إيفون. إيفون. وقررا في لحظات أن يتزوجا وأن يهجرا مرسيليا إلى الإسكندرية. ثم تكون لهما عودة لمرسيليا لمراضاة عائلتهما.

وافق كلود مضطرًا. في بداية الليلة، أتى مأذون مسلم، وأعلن حميدو وإيفون زوجين شرعًا، ثم انسحب خفية كما جاء خفية. لكن جسد حميدو يعاني من إصابته والدماء التي فقدها. لن يكون بينهما

لقاء جسدي إلا بعد أن يتعافى. قال حميدو:

– حتى بعد أن أتعافى، لن أقترب منها إلا ونحن في أمان. إلا ونحن في بيت أمي كَدِيسة.

الصباح الباكر. كلود في مكتبه بالطابق الثاني من مقر أعمال آل فيكتور. أنهى أهم المطلوب ثم بدأ رجال العائلة وشبابها في الوصول. حجرة مكتبه واسعة بها من الآرائك والمقاعد ما يكفي. ساعة زمن وكان الجميع جالسين يشربون القهوة فيما عدا فيلدرز وابنه بينو. كانا في الطريق كل على صهوة حصانه. توقف فيلدرز فتوقف بينو، فيلدرز يلوم ابنه بينو لومًا ثقيلًا. يتهمه بأن سمنته الزائدة وافتقاده للحماسة يضرانه ويضران أباه. كيف أن كل العائلة تعرف أن فيلدرز متحمس للاستحواذ على قصر آل فيكتور، وابنه بينو لا يأبه بهذا الحق ولا يأبه حتى بأبيه. يلوم ابنه أنه في كل مشاحناته ضد كلود لم ينطق بينو بكلمة واحدة، لم يساعد أباه ولم يدافع عنه مطلقًا.

وصلا متأخرين، فبدأ كلود في الحديث وأبلغهما باختصار بمجرى الأحداث المتصاعدة، ثم أسهب فيما حدث نهار الأمس. التوتر واضح على كلود، ووصلت مشاعره القلقة لوجوه المستمعين. وقبل أن يقول كلود رأيه في التصرف الواجب، قام فيلدرز غاضبًا كعادته متهمًا كلود بأنه السبب في كل هذه المتاعب، وهو السبب

في إصابة ابنته صوفي وابنه المحمدي. وأنه سيتسبب في مشاكل كبيرة في مرسيليا مما يؤثر على تجارتها، وسيؤثر هذا بالطبع في مكاسب آل فيكتور. كلود في حالة ضيق أصلًا مما جرى لابنته وابنه. لذلك لم يكن هادئا وهو يجيب على عصبية فيلدرز. فبادله عنف القول بأعنفه، واتهمه بالحقد والحماقة. لم ينتبه أحد لبينو الذي وقف مشدوهًا. بينو يجز على أسنانه ونظراته المتوترة في ذهاب وإياب بين أبيه وبين خصمه كلود. نظراته لأبيه يحاول أن يفهم ماذا ينوي أبوه أن يفعل؟ وما المطلوب منه أن يفعل لمناصره أبيه؟ نظراته لكلود مشحونة بالغيظ والكراهية.

الصياح بين العدوين يتزايد. فيلدرز وكلود مستمران في إهانة كل منهما الآخر. كادا أن يتضاربا وأمسك كل منهما بمقبض سيفه استعدادًا للقتال الدموي، لولا أن فرق بينهما الرجال. وما كادوا يعودون للجلوس لبدء النقاش الهادئ، حتى فوجئوا جميعًا وبينو قد أشهر سيفه وأسرع هاجمًا على كلود وكأنه جاموسة بيضاء هائجة. لم يأخذ أي من الحاضرين فرصة أن يقوم من مقعده ويصد بينو ويمنعه من هجومه. كلود شاهد هذا المندفع ناحيته وسيفه يقصده ليرشق في صدره. ألقى كلود بنفسه جانبًا فرشق السيف في ظهر المقعد وانكب بينو وراء السيف واقعًا على المقعد. قبل أن يلحق الرجال به كان كلود قد قام وهجم على ظهر بينو ولف ذراعه حول

رقبته. لحظة وكان فيلدرز مشهرًا سيفه قد أخذ خطوات سريعة. تحذيرات من حوله نبَّهت كلود، نظر خلفه وترك بينو وألقى بنفسه جانبًا كما فعل أول مرة. فإذا بسيف فيلدرز يخترق ظهر ابنه بينو ثم يستقر في حَشِيّة المقعد. بينو صرخ متألمًا وفيلدرز رفع ذراعيه عاليًا، وهو ينظر مذهولًا لسيفه المرشوق في ظهر ابنه.

فيلدرز قتل ابنه. انتهى أمره بمأساة ستبقيه بقية عمره ذاهلًا لا يتحدث ولا يدري بما حوله. لا يشعر بجوع ولا بعطش. لا يشعر ببرد ولا بقيظ. لا يميز بقية عائلته ولا يعرف أصدقاءه ولا يتجاوب مع مُعزٍّ ولا يأبه بمشارك له في آلامه. لا يفهم أنه لم يستحم وأنه يجب أن يذهب لقضاء حاجة! يطعمونه بالتحايل عليه ويغسلون جسده ويبدلون ثيابه كأنه ارتد طفلًا رضيعًا. كل ما عنده الجلوس في مقعد وثير طوال النهار وفيه ينام جالسًا. لم يدرك من حوله أن هذا المقعد المختار، يشبه كثيرًا المقعد الذي طعن فيه ابنه طعنة الموت. فيلدرز يتمعن في الفراغ وكل ما يفعله بين حين وحين أن يبتسم في حسرة مع هطول دموعه. بقيَ هكذا لعام وبضع عام ثم وجدوه ذات مساء ميتًا في مقعده المختار، يبتسم ابتسامته البائسة ووجهه مبلل بالدموع. جففوا دموعه ودلكوا وجهه ليريحوه من ملامح المأساة. وجسده في الكنيسة وبعدها يشيعونه لمقبرة العائلة، وجدوا وجهه وقد عاد لابتسامته البائسة وقطرات دموع قد تسربت من العينين الميتتين وهبطتا على الصدغين ثم بللتا باطن التابوت.

الأحداث في مرسيليا تأزمت تمامًا. الكارهون للمحمديين وللعرب انضموا للغاضبين من قرار كلود بتنصيب ابنته الأنثى على رأس تجارة آل فيكتور. اعتبروا أن هذا الأمر عار على مرسيليا. وما زال المشعلون للحرائق هم لوبان المصدوم في حب ابنته للمحمدي ثم هروبها من بيته، وعددًا من رجال الدين منهم لويس والتابعون للكاهن القديم جونز حارق القرآن الكريم، وعددًا من أتباع أصحاب المراكب والتجار المنافسين لعائلة آل فيكتور، وعددًا من الفرسان في مقدمتهم بيجار الذي شفيَ تقريبًا من الجرح البسيط الذي ناله من خنجر حميدو. بيجار لم يعد حاقدًا فقط بحقده القديم لعدم استحواذه على صوفي ابنة كلود، أضيف في جوفه عار إصابته من خنجر حميدو.

مجموعة لا تقل عن خمسين فردًا متنوعين، منهم الغني ومنهم الفقير، منهم القوي الجسد وفيهم الضعيف. منهم الذي يقرأ ويكتب وأغلبهم أميون جهلة، وفي مقدمتهم لوبان وأتباعه وبيجار وأتباعه الفرسان مع جموع من الغوغاء، يهتفون ضد المحمديين الكفرة وضد كلود الذي أهان مرسيليا، يطالبون بإطلاق سراح ابنة الحدّاد المحجوزة في قصر آل فيكتور، يقسمون بالمسيح أنهم لن يسمحوا بهروب مسيحية مع محمدي، كما حدث هذا سابقًا. يتجهون غاضبين مهددين لقصر آل فيكتور، وإن كان في مقدمة المسيرة الغوغائية

خيول قوية يمتطيها بيجار والفرسان المنضمون له، فإن في خلف المسيرة عشرة من الفرسان التابعين للحاكم على صهوات خيولهم. أتوا ليبينوا لأهالي مرسيليا أن الحاكم ليس راضيًا عن قرارات كلود ولا راضيًا عن خطف إيفون.

تجمهروا أمام القصر وهم يتوعَّدون بالانتقام. حرس القصر منعهم من الدخول. ثم بأمر من كلود سمحوا فقط لاثنين بالدخول، لوبان الحدّاد والفارس بيجار. صعدا ودخلا الحجرة الواسعة التي ينتظرهما فيها كلود وموريس. لوبان بدأ باتهام كلود شخصيًا أنه ساعد ابنه في خطف ابنته إيفون واحتجزها في قصره ليزوّجها رغمًا عن أنفها بالمحمدي، وأن كلود بتقربه من المحمديين واليهود، فهو يعصي الكنيسة، ومن يعصِ الكنيسة فلقد عصى الرب. بيجار يتدخل في الحديث ويهدد أن هذه القضية لن تمر ببساطة. كلود في هدوء فاجأ لوبان بقوله إن إيفون تم زواجها بالفعل من حميدو ليلة أمس. فقد تمّ استدعاء مأذون مسلم وعقد الزواج، وتم إشهاره لمن في القصر، وأيضًا في حي المسلمين وشارع اليهود. لقد صارت إيفون زوجة حميدو، ولم يعد لوبان هو ولي أمرها. لوبان لعن كلود وأكد أن هذه الزيجة ليست مسيحية، واتّهم كلود بأنه صار عدوًا ليسوع ونصيرًا للمحمديين الكفرة. بيجار يهدد كلود بالمجتمعين في خارج القصر.

خلال هذا الحوار، كانت إيفون مع صوفي يراقبان المحتشدين من نافذة. إيفون في حالة ثورة غضب وثورة من هؤلاء الدهماء الذين صدقوا أكذوبة أنها اُخْتِطَفَتْ وسَتُجْبَر على ترك يسوع! أصرت على النزول إليهم وشرح موقفها والتأكيد على أنها أتت برغبتها، وأنها لم ولن تترك مسيحيتها. حاولت صوفي منعها لكن إيفون المتوترة الحانقة أسرعت وهبطت الدرج وأسرعت ناحية الجماهير الغاضبة. منعها الحراس من الخروج. فوقفت خلف الباب ذي العيدان الحديدية تنادي عليهم أن يصمتوا ويستمعوا لها. تبيَّنها بعضهم فاتجهوا إليها. بمجرد أن قالت إنها تحب حميدو وتزوَّجته، لم يستمعوا لبقية ما ستقوله. لعنوها ولعنوا حميدو ثم قذفوها بالحجارة. أسرعت هاربة وصوفي التي كانت قريبة منها والحراس أخذوها بعيدًا بعد أن أصابها حجر في رأسها فآلمها. عادت لداخل القصر تبكي حالها. الدماء بللت شعرها. أخذوا في علاجها علاجًا سريعًا. إيفون غضبها وإصرارها لم يهبطا. أصرت على مواجهة أبيها. اقتحمت الحجرة وخلفها صوفي. لوبان شاهدها فأسرع للهجوم عليها لولا أن منعه كلود وموريس. إيفون صاحت قائلة إنها جاءت إلى هنا وتزوجت من حميدو بمحض إرادتها، وأنها تحبه ويحبها، وأنها لن تعود إلى بيت أبيها، لم يصدق لوبان هذه الجرأة من ابنته، لعنها فصرخت فيه تتهمه بأنه أهان ويهين

أمها وإخوتها وأهانها هي مرارًا، وأنه لا يفهم روح الإنجيل الذي يدعو للسماحة والمحبة، ولأنه شرير ويكره الناس ويحتقر المرأة، يحور آيات الكتاب المقدس ليعطي مبررًا لأحقاده. لوبان يرد على اتهامات ابنته باتهامات مضادة، وحاول مرة إضافية أن يتهجم عليها لولا كلود وموريس. خلال محاولته الهجوم عليها، أكدت إيفون أنها ستبحر مع زوجها حميدو إلى دمياط. لوبان يكاد ينفجر غيظًا. تدخَّل بيجار وطالب بحضور حميدو. تكلمت صوفي وأكدت أن حميدو ما زال متأثرًا بإصابته. بيجار يُكَذّب صوفي ويعلن أنه يتحدى حميدو في مبارزة ثانية، ثم صاح ليسمعه كل من القصر متهمًا حميدو بالجبن لأنه مختبئ ولم يأت ليواجهه. أسرعت صوفي لأنها تأكدت أن حميدو سمع سباب وتحدي بيجار، تبعتها إيفون. بالفعل وجدا حميدو يحاول النهوض من فراشة فمنعتاه.

تصدى موريس لبيجار وأشهر سيفه وتحداه للمبارزة فورًا. بيجار يخشى مواجهة موريس، لذلك قال إن عليه أن يبارز حميدو أولًا ثم موريس ثانيًا. انسحب لوبان ومعه بيجار بعد أن أكدا أن الذين يقفون أمام القصر، لن يتفرقوا، بل سينضم إليهم ألوف من المرسيليين وسيحاصرون قصر آل فيكتور ولن يمكنوا حميدو وإيفون من الفرار، وستتم استعادة إيفون من المحمدي الكافر الذي مصيره القتل شر قتلة.

لم تتفرق الجموع المحاصِرة للقصر، وحين أقبل الليل انضم إليهم غيرهم وتمت محاصرة قصر آل فيكتور، وأيضًا في الميناء عشرة من الشباب الأقوياء بقوا يراقبون المراكب حتى لا يتسلل إليها حميدو وإيفون. الحصار مستمر رغم مرور ثلاثة أيام بلياليها. أتى الكثيرون لزيارة كلود وعائلته، لكن تحت مراقبة المحاصرين للقصر، حتى لا يتنكر حميدو وإيفون في هيئة غير هيئتهما ويندسا وسط الزوار. أتى كبار عائلات رابال وفيتوريو، وأتى كونراد بعكازه ومعه ابناه ممثلان لعائلة شلنت. وبالطبع أتى الكثيرون من آل فيكتور. ورغم مضايقة المحاصرين للقصر، فقد أصر كبار العرب واليهود على الدخول ودخلوا بالفعل. وكان أهم من جاء للتعضيد أسقف الكنيسة وعدد من الكهنة.

في صباح اليوم الرابع، التفت العائلة حول كلود الذي لام إيفون على إعلانها أنها سترحل مع حميدو، عُذرها أنها كانت في حالة ثورة ضد أبيها القاسي. تباحثوا في الورطة التي هم فيها. الحل السريع أن يتم تهريب حميدو وإيفون في أقرب وقت. بعد ذلك يكون الحل الأساسي بالتجمع مع كل المؤيدين للمحبة والسلام بين الناس، والمقتنعين برسالة كلود الأول ليقفوا ضد بركان الكراهية الذي وضحت خطورته. حميدو حضر معهم. إصابته تتماثل للشفاء، وحماسته تعوِّض ضعف عافيته. البيت محاصر والميناء محاصر.

كلود عنده الحل. يعلم أن بعض من يزورونه منافقون، وأنهم يبدون التأييد له لكنهم يكرهونه ويتمنون تحطيمه وتحطيم آل فيكتور. فاستعد بكل شيء ثم أعلن أمام بعض الزوار أنه خطط لتهريب حميدو وإيفون إلى ميناء طولون ليركبا مركبًا من هناك، وبهذا يتخلصان من حصار ميناء مرسيليا.

منتصف الليلة الخامسة، إذا ببوابة القصر تُفتح سريعًا لتنطلق منها عربة آل فيكتور وهي مسدلة الستائر. العربة كأنها وحش قاس انطلقت وأفزعت من حاول الوقوف أمامها ليمنعها من الانطلاق. في سرعة ركب أحد المحاصرين للقصر حصانه وأسرع به يطارد العربة، فبالتأكيد فيها حميدو وإيفون. وفي نفس الوقت حصانان آخران عليهما اثنان من المحاصرين للقصر، انطلقا ليستنجدا بعدد من الفرسان ليطاردوا العربة، فالعربة متجهه إلى ميناء طولون ليهرب حميدو وإيفون من هناك. بقية المحاصرين للقصر أسرعوا ليبلغوا أهالي مرسيليا بفرار حميدو وإيفون.

كوكبة من الفرسان تطارد العربة المنطلقة. الخيول وعلى ظهر كل منها فارس، أسرع من الأربعة خيول التي تجر العربة الثقيلة وبها شخصان. والفجر يأتي هادئًا لينير الطريق المترب الذي تنطلق فيه العربة ومطاردوها. أوقف الفرسان العربة. فتحوا بابيها فإذا من بداخلها خادمان من خدم كلود معهما بعض العينات من بضائع يريد

كلود أن يرسلها لتاجر من تجار طولون! لقد خدعهم كلود وجعلهم يطاردون الوهم، وبالتأكيد في هذا الوقت الضيق، سيهرب حميدو وإيفون، لأن الحصار انفك من حول القصر وهذا ما كان. بعد انفضاض المحاصرين، خرجت من القصر كوكبة من الخيول على ظهورها كلود وموريس وصوفي وبينهم حصانا حميدو وإيفون. في هدوء اتجهوا إلى الميناء. الشباب العشرة المراقبون للميناء كانوا قد ذهبوا ليتابعوا أخبار هروب حميدو وإيفون إلى طولون! وداع حار لحميدو وإيفون. لم يكن البكاء فقط من صوفي وإيفون، بل حتى من حميدو وموريس وأخيرًا كلود الذي حاول أن يتماسك لكنه لم يستطع. إنه يودع ابنه الذي لم يشبع منه. تحيات كلود لكَدِيسة. صوفي ترسل تحياتها، وتؤكد أنها ستزور أمها يومًا ما.

أبحرت المركب متجهة إلى دمياط. ومن في البر يلوّحون لمن في البحر، ومن في البحر يلوّحان لهم والكل تجري دموعه. وتستمر المركب في التوغل بحرًا. تمر بين جزر فريول الأربع. مرسيليا لم يعد يظهر منها إلا برج الكنيسة الذي تنظر إليه إيفون وهي تعاهد نفسها ألا تنسى يسوع أبدًا. في الظهيرة كان حميدو يجلس على مقعد في مقدمة المركب وقد تدثر جيدًا. خلفه تقف إيفون وهي تضع يديها على كتفه. ينظران لبعيد والشمس تتصاعد من يسارهما تدفئ القلوب. قال حميدو:

– إيفون. بحبنا لبعضنا وتماسكنا، سنعمل على ترسيخ رسالة المحبة والسلام بين شاطئي البحر الوسيط. سنعمل على بث السماحة بين المسيحيين والمسلمين واليهود.

وتستمر المركب في الإبحار على سطح بحر هادئ، وتحت شمس دافئة، وحولها حوريات بحرٍ طيبات يتفاءلن خيرًا.

الإسكندرية في مساء الخميس 14 مايو 2015

حجاج أدول

المؤلف في سطور

حجّاج حسن أدّول

- مصري، نوبي. مواليد الإسكندرية عام 1944.
- بدأ الكتابة الأدبية في سن الأربعين. عام 1984. في الدراما المسرحية، ثم القصة القصيرة، ثم الرواية.
- عمل بالسد العالي خمس سنوات، من عام 1963 حتى 1967.
- جُنِّد بالقوات المسلحة سبع سنوات. من 1967 حتى 1974. اشترك في حرب الاستنزاف، وحرب أكتوبر 1973.
- حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام 1990. فرع القصة القصيرة عن مجموعة (ليالي المسك العتيقة).
- منحة تفرغ من المجلس الأعلى للثقافة (وزارة الثقافة) أعوام 96 و97 و98 لاستكمال رواية (معتوق الخير)، ثم منحة تفرغ عام 2002 لكتابة رواية (خُوند حمرا).
- جائزة الأدب المصري من مؤسسة "ساويرس" للتنمية الاجتماعية (فرع الرواية) عام 2005.

- عضو لجنة الخمسين لكتابة مشروع دستور مصر عام 2014.

المؤلفات الأدبية المنشورة

مجموعات قصصية:

1 - ليالي المسك العتيقة، 1989. دار الحضارة للنشر. (جائزة الدولة التشجيعية عام 1990). مترجمة للإنجليزية ونشرتها الجامعة الأمريكية بالقاهرة 2005.

2 - بكّات الـدم، 1991. سلسلة أصوات أدبية. العدد 22.

3 - غزلية القمـر، 1996. دار الحضارة للنشر. الطبعة الثانية عام 2014 دار النسيم.

4 - Take Awa، 1999. اتّحاد الكُتّاب المصري مع دار "زويل" للنشر.

5 - الشاي المر، 2002. دار ميريت.

روايـــات:

1 - ثنائية الكُشَـرْ، 1992. طبعة ثالثة: 2006، دار الحضارة للنشر.

2 - خالي جاءه المخاض، 1999. إصدارات صندلية. طبعة ثانية: دار الحضارة للنشر 2007.

3 - معتوق الخير، رواية في مجلّدين 2002. المجلس الأعلى للثقافة. مطبوعات التفرغ.

4 - خُوند حمرا، 2006. دار الحضارة للنشر.

5 - مَجِسّي، 2009. دار الحضارة للنشر.

6 - رحلة السندباد الأخيرة، 2009. دار الحضارة للنشر.

7 - هجوم القراصنة. دار الحضارة للنشر.

8 - ثلاث برتقالات مملوكية، دار العين، 2011.

9 - حكايات عبد الرحيم الوسيم: 7 روايات - ملحمة شهرزادية. دار النسيم للنشر 2011 وهي:

ابن الخطيئة. الطموح المستحيل. جونجي الهندي. جونجي وغضب الآلهة. صراعات البادية والواحة. ميناء القراصنة وعصابة العاهات. ميناء القراصنة ومخبول السماؤول.

مسرحيات:

1 - ناس النهر، 1993. الهيئة المصرية للكتاب. سلسلة المسرح العربي.

2 - النزلاية، 1993. الهيئة المصرية للكتاب. سلسلة إشراقات، العدد 141.

3 - إغراق عنخ. مجلة خماسين 1996 ومجلة تافكت وهي تصدر باللغة العربية في ألمانيا.

4 - أحضان القنافذ، 1999. إصدارات صندلية بالتعاون مع دار "الصديقان للنشر".

5 - تسابيح نيلية، "مسرناريو" عام 2000. نُشرت في المجلس الأعلى للثقافة عام 2003.

6 - يا بلاكونات لندن، 2007.

7 - اعتصام الأجنة، 2010. دار أرابيسك للنشر والتوزيع.

8 - أمتنا، كُتِبت عام 1985. نُشرت عام 2012. دار الحضارة للنشر.

عن القضية النوبية:

1 - النوبة تتنفس تحت الماء، حوارات وآراء عن النوبة. 1994.

2 - النوبة.. اللامعقول في بلاد الإتّر والفول. مقالات. دار مصر المحروسة. 1996.

3 - الصحوة النوبية، 2006. النشر على حساب المؤلف.

4 - حدوتة نوبية، 2008. النشر على حساب المؤلف.

5- المأساة النوبية، مقالات. 2011. النشر على حساب المؤلف.

6 - النوبة وافتقاد البوصلة، تحليلات عن حاضر ومستقبل النوبة 2011. النشر على حساب المؤلف.

7 - كتابات منصفة عن النوبة والنوبيين.

8 - نوستالجيا نوبية، بعض المقالات التي كتبتها الأقلام غير النوبية عن القضية النوبية. دار الحضارة للنشر.

كتب أخرى:

- ونسة مع الأدب النوبي، تحليل لبعض الأعمال الأدبية النوبية. المحروسة للنشر 2009.

أعمال أخرى:

- فكرة وسيناريو الفيلم التسجيلي (قطار النوبة) إخراج "عطيات الأبنودي". إنتاج المركز القومي للسينما. 2002.

مسرحيات تمّ عرضها:

1 - اعتصام الأجنة المهرجان السادس لمسرحيات الفصل الواحد. (1مارس - 7 أبريل 1993) جمعية الشبان المسيحية بالإسكندرية. "المركز الأول في النص المكتوب".

2 - أمتنا، هيئة قصور الثقافة بالإسكندرية 1995.

3 - ناس النهر:

- المهرجان العاشر لجمعية الهواة المسرح، عام 1995.
- عرضت على هامش مهرجان المسرح التجريبي في القاهرة عام 1999. مثلت مصر في مهرجان مسرح الشعوب، أوكرانيا عام 2000. إعداد: حازم شحاتة وإخراج: ناصر عبد المنعم.
- هيئة قصور الثقافة بالإسماعيلية. إخراج محمد جمال.

4 - إغراق عنخ، في أسوان والقاهرة.

البريد الإلكتروني:

oddoul77@gmail.com

- يا ربنا. كم هي قدرتك على خلق كل هذا الجمال؟

هكذا صاح كلود بصوت مرتفع بفرنسيته الرقيقة فانتبه له الوالي وغيره وابتسموا. كلود حين انتبه له الوالي، عاد عقله لرأسه. خشي إن هو تهور في شيء فربما يغضب الوالي. كتم كلود في صدره العشق الذي انفجر في قلبه تجاه هذه الراقصة الشابة المتفجرة. صفق لها بحماس مثله مثل غيره وتابعها وهي تنسحب خلف صاحب العود وصاحب الدف الصغير. ولم ينم كلود ليلتها. يا لها من فتاة غريبة؟ الفتاة النحاسية إن حاول وضعها في قالب جمال معين في ذهنه أو كل ما في ذهن الناس، لما تطابقت مع أي قالب من القوالب الجمالية النسائية. إن حاول تفصيص ملامح وجهها ملمحًا ملمحًا، لما وجد في ملمح واحد ما يقال عنه رائع الجمال. ففمها أوسع من المعتاد وأنفها أكبر من المعتاد، وعيناها أصغر من المعتاد! بل إن رقبتها أعرض من المعتاد وثدياها أثقل مما ينبغي! شعرها أميل للخشونة. فما تلك الطاقة الأنثوية التي تنطلق منها وتصيب الذكور في قلبهم وذكورتهم؟! ما هي؟

تصميم الغلاف: غادة خليفة

9 789774 903274

دار العين للنشر
Elain Publishing House